ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

فصليّة تُعنى بنقد
الرؤى الغربية في
الإنسان والمجتمع

السنة الثانية - العدد (٦) شتاء ٢٠٢٥ م ١٤٤٦ هـ

العنصريّة
الإرثُ البارزُ في الهويّةِ الغربيّةِ

أوّل الكلام
- العُنصريّة والإرثُ «الحضاريُّ» للغَرب

المحور
- العُنصريّة» في الفِكرَينِ اليَهوديِّ والصّهيونيّ
- جذور العُنصريّة في الثقافة الغربية
- العُنْصُرِيَّة الغربيَّة واستخداماتُها في الأدب والفنِّ والإعلام
- أثر الذَّكاء الاصطناعي في ترسيخ العنصريّة الغربيّة
- آثار العُنصريّة في الغرب

تأصيل
- نقدُ أُسس التَّمييز العُنصري بالرُّؤية القرآنيّة

دراسات وبحوث
- موتُ الإنسان ومآلاتُ البنيوية من منظور روجيه غارودي

قراءة في كتاب
- «العُنصريّة» لـ (فرنسوا دي فونتيت)

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

العنصريّة
الإرثُ البارزُ في الهويّةِ الغربيّةِ

السنة الثانية – العدد (٦): شتاء ٢٠٢٥م – ١٤٤٦هـ

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

أُمم
للدراسات الإنسانية والاجتماعية

تصدر عن:

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

مجلة علمية فصلية تُعنى بنقد الرؤى الغربية في الإنسان والمجتمع

www.barathacenter.com
www.oumam.barathacenter.com
Oumam.magazine@gmail.com

التّابـع لجمعيّـة براثـا الثقافيّـة المرخّصـة في لبنـان بموجب علم وخبر رقم: ٥١٦

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(الأعراف:١٦٨)

رسالة المجلة

مواجهة التحديات الفكرية التي يفرضها الغرب وغيره على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وذلك من خلال:

- تفنيد "الشبهات والأفكار المستوردة" بطريقة أكاديمية علمية ومنهجية، وإظهار معاثرها وعيوبها، ونقد جذورها وسياقاتها.
- الكشف عن الدوافع السياسية والاقتصادية والاستعمارية التي تقف خلف محاولة الهيمنة الثقافية على مجتمعاتنا.
- تقديم إحصاءات علمية من داخل المجتمعات الغربية، ترصد النتائج التدميرية للثقافة المادية العلمانية على المجتمعات.
- تقديم رؤى أصيلة وبديلة عن النظريات الغربية من منطلق انساني عالمي، يتناسب ومقتضيات الفطرة البشرية، ويتأسس على الرؤية الكونية الميتافيزيقية للاجتماع البشري.

■ المشاركون في العدد:

● د. محمد محمود مرتضى (لبنان) ● د. أحمد البهنسي (مصر) ● نزهة بوعزة (المغرب)
● أ.د غيضان السيد علي (مصر) ● د. قاسم محمد دنش (لبنان) ● زينب فرحات (لبنان)
● أكرم حيدري (إيران) ● طاهره جوكار (إيران) ● د.عمار طرابلسي (الجزائر) ● ميرفت إبراهيم (لبنان).

مجلة «أمم للدراسات الإنسانية والاجتماعية»، مجلة علمية فصلية، تصدر كل ثلاثة أشــهر عن «مركز براثا للدراسات والبحوث». وتُعنى المجلة بنقد الرؤى الغربية في الإنســان والمجتمــع في مختلف المجالات والتحديات المعاصرة؛ في الفلســفة، والتاريخ، والاجتماع، والانثروبولوجيا، وتأصيلها من منطلق عقلاني ينســجم ومقتضيات الفطرة البشرية ومع الرؤية الكونية الميتافيزيقية الأصيلة للإجتماع البشري.

ترحب المجلة بمســاهمات الكتـــاب والباحثيـــن في المجالات المتعلقة باهتمامات المجلــة العلمية، ويمكـــن للراغبين مراســلة المجلة على العنوان التالي: مركز براثـــا للدراســات والبحوث - مجلة أمم: بيروت، بغداد.

في العدد المقبل:

وجوهٌ بَيضاءُ، قُلوبٌ سَوداءُ

بَعضُ منظماتِ المجتمعِ المدنيّ

موقع المركز:
www.barathacenter.com

موقع المجلة:
oumam.barathacenter.com

بريد المجلة:
Oumam.magazine@gmail.com

رئيس التحرير: 009613821638

مدير التحرير: 0096176949904

■ الهيئة العلمية:

● أ.د. حافظ عبد الرحيم. (علم اجتماع سياسي واقتصادي- جامعة قابس- تونس)
● أ.د. حسن بشير. (علم اجتماع التواصل الدولي والثقافي-جامعة الامام الصادق(ع)- ايران).
● أ.د. بن شرقي بن مزيان. (فلسفة-جامعة وهران(٢)- الجزائر).
● أ.د. حيدر حسن اليعقوبي.)علم نفس تربوي-جامعة الكوفة- العراق)
● أ.د. خنجر حميّة. (فلسفة غربيّة معاصرة- الجامعة اللبنانيّة- لبنان)
● أ.د. طالب عمران. (منطويات تفاضلية وفلك- جامعة دمشق- سورية).
● أ.د. عقيل صادق. (فلسفة-جامعة البصرة- العراق).
● أ.د. محسن صالح. (فلسفة-الجامعة اللبنانية-لبنان).
● أ.د. محمد شعلان الطيار. (علم آثار- جامعة دمشق- سورية).
● أ.د. معمر الهوارنة. (علم نفس- جامعة دمشق- كلية التربية-سورية).
● أ.د. ياسر مصطفى عبد الوهاب. (تاريخ عصور وسطى- جامعة كفر الشيخ- مصر).
● أ.د. يوسف طباجة. (علم اجتماع- الجامعة اللبنانية- لبنان).

■ هيئة التحرير:

● أ.د هنى الجزر. (فلسفة-جامعة دمشق-سورية).
● أ.د. سعد علي زاير. (فلسفة تربية ومناهج اللغة العربية-العراق).
● أ.د. عادل الوشاني (علم اجتماع الثقافة والاتصال- جامعة قابس-تونس).
● أ.مشارك. د نعمة حسن البكر. (تاريخ حديث ومعاصر-جامعة عين شمس-مصر).
● د. علي الحاج حسن. (فلسفة اسلامية-لبنان).
● الشيخ د. محمد نمر. (مناهج تربوية- لبنان).

المشرف العام:
الشيخ جلال الدين علي الصغير
(العراق)

رئيس التحرير:
د. محمد محمود مرتضى
(جامعة المعارف-لبنان)

مدير التحرير:
الشيخ د. محمد باقر كجك
(جامعة المعارف-لبنان)

المدير المسؤول:
أ. آية بيضون (لبنان)

المدير الفني:
أ. خالد معماري (سورية)

التدقيق اللغوي:
د. محمود الحسن (سورية)

ترجمة:
لينا السقر (**انكليزي**)
(إجازة في الترجمة الانكليزية-جامعة دمشق-سورية)
محمد فراس الحلباوي
(سوريا)

قواعـــد النشـــر في مجلّـــة "أُمم"

شروط النشر في المجلّة

- البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- عند قبول البحث يتعهد المؤلف بنقل حقوق ملكية البحث إلى المجلة، وعدم نشره في أية مجلة أخرى إلا بعد أخذ موافقة خطية من إدارة المجلة، ويكون من حق المجلة نشر البحث في كتاب جماعي؛ وفي حال أراد الباحث نشر بحثه في أي وسيلة نشر ورقية أو الكترونية، فيجب عليه أخذ موافقة خطية مسبقة من إدارة المجلة.
- تلتزم المجلة بإعلام المؤلف بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل، أو وفق تعديلات معينة بناءً على ما يرد من ملاحظات المقوّمين، أو الاعتذار عن عدم النشر في غضون مدة لا تتجاوز (٣٠) يوماً، إلّا في حال الاستكتاب المبكر، لكن يتم إعلام المؤلف بذلك.
- في مسألة رفض البحث فمن حق المجلة إعلام المؤلف بأسباب الرفض أو عدم إعلامه بذلك.
- ترتيب البحوث (المقالات) في داخل المجلة يخضع لأغراض فنيّة، ولا علاقة له بمكانة المؤلف (الباحث) وشهرته.
- تدفع المجلة مكافأة مالية لكل بحث يُنشر في المجلة، وتُعلِم المؤلف بقيمتها أو طريقة احتسابها مسبّقاً.
- المراسلات ترسل بإسم رئيس التحرير: الدكتور محمد مرتضى على العناوين التالية:

رقم الهاتف: ٠٠٩٦١٣٨٢١٦٣٨ أو على البريد الإلكتروني:
oumam.magazine@gmail.com

خُلُقيّات النشر

- تلتزم إدارة المجلة بالحفاظ على حقوق الملكية الفكرية للمؤلفين.
- تلتزم إدارة المجلة بمراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العِرق أو الجنس، بل الالتزام بقواعد التفكير العلمي ومناهجه، ولغته في عرض وتقديم الأفكار والاتجاهات والموضوعات ومناقشتها أو تحليلها.
- تلتزم إدارة المجلة بعدم الإفصاح عن أسماء المقوّمين (المُحكمين) للمؤلفين، كذلك تلتزم في الوقت نفسه بعدم الإفصاح عن أسماء المؤلفين للمقوّمين ويبقى هذا الأمر على نحو سري عند رئيس ومدير التحرير فقط.
- احترام حقوق الملكية الفكرية للبحوث المترجمة.
- يُشترط أن يكون البحث متوافقاً مع معايير الأمانة العلمية وأخلاقيات البحث العلمي.
- يشترط ألاّ يكون البحث المرسل للنشر في المجلة منشوراً سابقاً في مجلة أو في كتاب، أو مستلاً من رسالة أو أطروحة، وألاّ يكون تم تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى.

دليل المقوّمين

- **إن المهمة الرئيسة للمقوّم العلمي للبحوث المرسلة للنشر، هي أن يقرأ البحث الذي يقع ضمن تخصصه العلمي بعناية فائقة، وتقويمه وفق رؤية ومنظور علمي وأكاديمي لا يخضع لأية أهواء شخصية، ويقوم بتثبيت ملاحظاته البناءة والصادقة بشأن البحث المرسل إليه.**
- **قبل البدء بعملية التقويم يتأكد المقوّم إذا ما كان البحث المرسل إليه يقع ضمن تخصصه العلمي أم لا، فإن كان البحث ضمن تخصصه العلمي فعليه تقدير كونه يمتلك الوقت الكافي لإتمام عملية التقويم؛ ذلك أنَّ عملية التقويم يجب أن لا تتجاوز (١٥) يوماً.**
- **بعد موافقة المقوّم على إجراء عملية التقويم وإتمامها في المدة المحددة يلتزم بإجراء عملية التقويم على وفق المحددات الآتية:**
  - **أ. تحديد درجة الأمانة العلمية للبحث.**
  - **ب. تحديد درجة مطابقة عنوان البحث لمحتواه.**
  - **ت. تحديد درجة وضوح ملخص البحث.**

ث. تحديد درجة إيضاح مقدمة البحث لفكرة البحث.
ج. تحديد درجة تناسب العناوين الفرعية وترابطها.
ح. تحديد درجة المستوى العلمي للبحث.
خ. تحديد درجة المستوى اللغوي والأدبي.
د. تحديد درجة قيمة المصادر ودقة الاعتماد عليها.
ذ. تحديد درجة أهمية البحث وأصالته من حيث الآلية والنتائج.
ر. تحديد درجة حجم البحث.
ز. تحديد درجة صلاحية البحث للنشر.
س. يحدد المقوّم بشكل دقيق الفقرات التي تحتاج إلى تعديل من المؤلف.

- يحدد المقوّم أسباب الرفض في حال قرر عدم صلاحية البحث للنشر.
- تجري عملية التقويم على نحو سري.
- يتم تبليغ رئيس التحرير في حال أراد المقوّم الأول مناقشة البحث مع المقوّم الثاني.
- ترسل ملاحظات المقوّم العلمي إلى رئيس التحرير لإرسالها إلى المؤلف في حال وجود ملاحظات على البحث؛ لكي يأخذ المؤلف بها للموافقة على النشر، من دون أن يعرف المقوّم من هو المؤلف، ولا أن يعرف المؤلف من هو المقوّم.
- تعتمد ملاحظات المقوّمين وتوصياتهم في قرار اعتماد نشر البحث من عدمه.

دليل المؤلفين

- يجب أن يكون البحث جديداً في طرحه، ولم يسبق لأحد أن تناول الموضوع بالآلية نفسها ووصل إلى النتائج نفسها، وأن يتسم بالعمق والتحليل والنقد.
- يجب أن تكون لغة البحث خالية من الأخطاء اللغوية والطباعية، وأن تراعى في كتابتها علامات الترقيم.
- المعلومات الواردة في البحث يجب أن تكون موثقة من خلال المصادر والمراجع العلمية الدقيقة.
- على المؤلف مراعاة أن تكون عدد كلمات بحثه تتراوح ما بين (٤٥٠٠) إلى (٥٥٠٠) كلمة.

- سيتم استعمال برنامج فحص نسبة الاستلال (Plagiarism Check X).
- سيعرض البحث على برنامج الاستلال قبل تحويله للتقويم، وسيرفض البحث إذا تجاوزت نسبة الاستلال النسبة المقبولة عالمياً (٢٥٪).
- في تسجيل الهوامش المرتبطة بالحواشي المرجعية، فإن الكاتب سيستعمل نظام (شيكاغو المعدل)، ويُدرج الهوامش في أسفل الصفحة (Footnote) عبر الادراج التلقائي.
- مثال على نظام شيكاغو المعدّل:
  - في حال التوثيق من كتاب: اسم المؤلف: عنوان الكتاب، ذكر الجزء أو المجلد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من مجلة: اسم كاتب البحث أو المقال: عنوان البحث، اسم المجلة، العدد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من كتاب جماعي: اسم كاتب مع عبارة وآخرون: عنوان الكتاب أو البحث، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من رسالة أو أطروحة: اسم الباحث: عنوان الرسالة أو الأطروحة، الجامعة والكلية، رقم الصفحة.
  - توثّق الآيات في المتن عقب النص القرآني مباشرة بذكر السورة متبوعة بنقطتين، ثم رقم الآية داخل حاصرتين، هكذا: [الإنسان: ٢٥].
  - الآيات القرآنية تُدرج محرّكة وفق التشكيل القرآني، وتوضع بيم مقوسين خاصين، هكذا: ﴿بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾
  - ملاحظة: ما تم ذكره في أعلاه من مصادر إن كانت إلكترونية فيتم إدراج الرابط بعد رقم الصفحة في الأسفل.
- يُدرج في نهاية البحث ثبت بالمصادر والمراجع، وفق ما ذكرنا أعلاه مع اضافة باقي التفاصيل المرتبطة به: دار النشر، مكان النشر، تاريخ النشر، رقم الطبعة.
- يستعمل الكاتب في بحثه باللغة العربية خط (simplified Arabic) بحجم (١٤) في المتن، ونفس الخط بحجم (١٢) في الهامش.

- أما باللغة الإنجليزية فيستعمل (Times New Roman) بحجم (١٤) في المتن، وبحجم (١٢) في الهامش.
- يكتب في الصفحة الأولى الآتي:
  - عنوان البحث باللغة العربية.
  - اسم المؤلف باللغة العربية (اذا كان عربيا)، مع ادراج حاشية سفلية يذكر فيها: جنسيته، توصيفه العلمي، الدرجة العلمية والشهادة، وجهة الانتساب (الجامعة، الكلية)، أو (المؤسسة البحثية).
  - ملخص للبحث باللغة العربية على أن لا يتجاوز الملخص الواحد (١٠٠) كلمة.
  - الكلمات المفتاحية على أن لا تتجاوز (٧) كلمات.
  - تقوم المجلة بإجراء ترجمة الملخصات الى اللغات التي تراها مناسبة.

تعهد حقوق الملكية

أنا الموقع أدناه المؤلف (الباحث): .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بنقل حقوق الطبع والنشر والتوزيع إلى مجلة (أمم) ومركز براثا للدراسات والبحوث.

التاريخ:

التوقيع:

تعهد الملكية الفكرية

أنا الموقع أدناه المؤلف (الباحث): .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بأن البحث الذي أنجزته لم يتم نشره أو تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى، سواء أكانت داخل لبنان أو العراق أو أي دولة أخرى، وأرغب بنشره في مجلة (أمم).

التاريخ:

التوقيع:

المحتويات

أوّل الكلام

١٥ العُنصريّة والإرثُ «الحضاريُّ» للغَرب ■ د. محمد محمود مرتضى

المحور

٢٩ «العُنصريّة» في الفِكرَينِ اليَهوديِّ والصّهيوني ■ د. أحمد البهنسي

٥٣ جذور العُنصريّة في الثقافة الغربية ■ نزهة بوعزة

٧٥ العُنْصُريَّة الغربيَّة واستخداماتُها في الأدب والفنِّ وَالإعلام ■ أ.د غيضان السيد علي

٩٧ أثر الذَّكاء الاصطناعي في ترسيخ العنصريّة الغربيّة ■ د. قاسم محمد دنش

١١٥ آثار العُنصريّة في الغرب ■ زينب فرحات

تأصيل

١٤٩ نقدُ أُسس التَّمييز العُنصري بالرُّؤية القرآنيّة ■ أكرم حيدري
طاهره جوكار

دراسات وبحوث

١٦٥ موتُ الإنسان ومآلاتُ البنيوية من منظور روجيه غارودي ■ د.عمار طرابلسي

قراءة في كتاب

١٨٥ قِراءةٌ في كِتاب: العُنصريّة ■ مراجعة: ميرفت إبراهيم

العُنصريّة والإرثُ "الحضاريُّ" للغَرب

رئيس التحرير
■ د. محمد محمود مرتضى

مُنذُ وُجد الإنسانُ والظُّلمُ يُطاردُه في مناكبِ الأرضِ وشِعابِها، ولعلَّ أصعبَ أنواعِ الظُّلمِ أنْ يَجدَ المرءُ إخوةً له في الإنسانيّةِ يَجتهدونَ في إذلالِه واستعبادِه، غيرَ عابئينَ بأنَّه مثلَهُم يحملُ روحًا توّاقةً إلى العَدلِ، وقلبًا خفّاقًا بالمشاعرِ، وتَطلُّعًا عاشقًا للجمالِ الكامنِ في الموجودات، والأنوارِ المُنبعثةِ من وراءِ الحُجُبِ، التي تُخبرُه أنَّ اللهَ يَسمَعُ ويَرى.

لقد عانى الإنسانُ القديمُ والحديث من آفةِ العُنصريّةِ، التي حملَ لَهيبَها أباطرةٌ وملوكٌ وأُمم، وتزعَّمها في عصرنا الحاضرِ الغَربُ، فراحَ يُخفي خَلفَها تَناقُضاتِه وسُقوطَه الخُلُقيّ، ويتَّخِذُها سِلاحًا في وجهِ الضُّعفاء من الشُّعوبِ والأفراد.

ومع أنَّ الغربَ يَسعى إلى تَقديمِ نفسِه على أنَّه مَهدُ الدِّيمقراطيّةِ، والمُدافعُ الأوَّلُ عن الحرِّياتِ وحقوقِ الإنسان، لكنّ العُنصريَّةَ لا تزالُ واقعًا يوميًّا يَعيشُه الملايينُ من الأقليّاتِ العِرقيّةِ والمُهاجرينَ داخلَ المُجتمعاتِ الغَربيّة. فمنذُ إلغاءِ العبوديّةِ رسميًّا، مُرورًا بحركاتِ الحقوقِ المَدنيّةِ، وُصولاً إلى ما بعدَ الحَداثة، لم تَستطعِ المُجتمعاتُ الغربيّةُ التخلُّصَ من إرثِها العُنصريِّ، وإنَّما أعادَت إنتاجَه بطُرقٍ أكثرَ تَعقيدًا وأقلَّ وُضوحًا، ليَظهَرَ السُّؤالُ الأكثرُ إلحاحًا اليومَ وهو: لماذا لا تزالُ العُنصريّةُ مُتجذِّرةً في المُجتمعاتِ الغَربيّة رغمَ كلِّ الشِّعاراتِ التي ترفَعُها حولَ المُساواة والتعدُّديّة؟

يَدَّعي الخطابُ الغربيُّ أنَّ العُنصريّةَ مُجرَّدُ سُلوكيّاتٍ فَرديّةٍ نابعةٍ من التعصُّبِ الشَّخصيِّ، وأنَّه يمُكنُ القضاءُ عليها من خلالِ «التَّسامُح» و«التَّعليم» و«القوانين المُناهضةِ للتَّمييز». لكنَّ الواقعَ يكشفُ أنَّ العُنصريّةَ هي جزءٌ من نظامٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ وسياسيٍّ أوسعَ، يَعمل على إدامةِ الفَوارقِ العِرقيّةِ عبرَ قوانينَ بطريقةٍ ملتوية، ومُؤسَّساتٍ تَمييزيّةٍ، وإعلامٍ مُوجَّهٍ يُعيد إنتاجَ الصُّورِ النَّمطيّة.

وهذا ما يُؤكِّدُه المُفكِّرُ الأمريكيُّ (Cornel West-كورنيل ويست) بقوله: "العُنصريّةُ هي بنيةٌ اقتصاديّةٌ وسياسيّةٌ تُستخدَم للحفاظ على امتيازات فئة على حساب أُخرى".[1]

وبالفعل، حينَ ننظرُ إلى مُؤشِّرات الفَقر، والتَّعليم، وسوق العَمل، والنِّظام القَضائيِّ، والعُنف الشُّرطيِّ، والتَّمثيل السِّياسيِّ، نجدُ أنَّ الأقليّات العرقيّةَ—وخاصّةً السُّود، والمُسلمينَ، والمُهاجرينَ من أصول غير أوروبيّة—لا تزالُ تُعاني من تَمييزٍ مَنهجيٍّ يَجعلُها في أسفل الهَرَم الاجتماعيِّ، رغم الادِّعاءات بالمُساواة القانونيّة.

مِنْ شعارات حقوق الإنسان إلى واقع التَّمييز

من المُفارَقات الصّارخة أنَّ الغَربَ، الذي يَنتقد العُنصريّةَ في العالَم الثالث، ويتدخَّلُ في سياسات الدُّول الأخرى، تحتَ ذريعة الدِّفاع عن الحرِّيات، لا يَزال يُعاني داخليًّا من صور مُختلفة من التَّمييز العرقيِّ. فالولاياتُ المتَّحدة، التي تُقدِّمُ نفسَها باعتبارها «نموذجًا عالميًّا لحقوق الإنسان»، لا تزالُ تَشهد مُعدَّلات عاليةً من العُنف الشُّرطيِّ ضدَّ السُّود، وعدم المُساواة في العَدالة الجنائيّة، والفَجوة الاقتصاديّة بينَ الأعراق. أمّا في أوروبا، فالسِّياساتُ المُعاديةُ للمُهاجرينَ والإسلاموفوبيا المُتزايدةُ، والتَّمييزُ في سوق العَمل والإسكان، وتَنامي الأحزاب اليَمينيّة المُتطرِّفة، تَعكسُ نفاقًا سياسيًّا واضحًا بين الخطاب والمُمارسة.

"فالغَربُ يُواصِلُ تَقديمَ نفسه بوصفه حاملًا للحَداثة والتقدُّم، لكنَّه في الوقت ذاته يُعيدُ إنتاجَ عُنصريّته بطُرق أكثرَ تَعقيدًا، سواء من خلال سياسات الدَّولة أو عبرَ الخطاب الإعلاميِّ والثَّقافي".[2]

هذا ويُحاوِلُ بعضُ المُفكِّرينَ الغَربيِّينَ تَبريرَ العُنصريّة باعتبارها حالةً فرديّةً، وليسَت جُزءًا من النِّظام السِّياسيِّ والاقتصاديّ. لكنَّ الوقائعَ تُشير إلى أنَّ التَّمييزَ العُنصريَّ في الغرب عبارةٌ عن منظومة مُتكاملة تُعيد إنتاجَ الامتيازات لصالح الفئات البَيضاء، وتُحافظُ على إقصاء الأقليّات العرقيّة.

لكنْ، لماذا لا تَزال الأحياءُ ذاتُ الأغلبيّة السَّوداء واللاتينيّة في أمريكا تُعاني من الفَقر، وتَدنيِّ مُستوى التَّعليم، وارتفاع مُعدَّلات البَطالة؟

ولماذا يتعرَّضُ السُّودُ والمُهاجرونَ لتَوقيفات عَشوائيّة من قِبَلِ الشُّرطة أكثرَ من غيرِهم؟

1 - West, Cornel. Race Matters. Vintage Books, 1994, p. 3.

2 - Goldberg, David Theo. The Racial State. Blackwell Publishers, 2002, p. 6.

ولماذا نجدُ أنَّ التَّمثيلَ السِّـياسيَّ والاقتصاديَّ للأقليّاتِ العِرقيّـةِ ضَئيلٌ جدًّا في الحكوماتِ والشَّركاتِ الكُبرى؟

يُشير المُؤرِّخُ (إدواردو بونيلا سيلفا - Eduardo Bonilla-Silva) إلى أنَّ "العُنصريّةَ المُعاصرةَ أصبحَـت تَعمل عبرَ آليّـات خَفيّة، تَجعل التَّمييـزَ يَبدو وكأنَّه نتيجةٌ طبيعيّـةٌ لاختلافِ القُدراتِ الفَرديّة، على حين هو في الحَقيقةِ نتيجةُ بنيةٍ مُنهَجة".[1]

نحو قراءة أكثرَ عُمقًا للعُنصريّة الغَربيّة

إنَّ العُنصريَّةَ ليسَت ظاهرةً جديدةً في الغَرب، بل هي امتدادٌ تاريخيٌّ لمَنظومةٍ استعماريّة قائمةٍ على اسـتغلالِ الأعراقِ الأُخـرى. فالغَربُ، الذي بَنى ثَروتَه على العُبوديّة، والاسـتعمار، ونَهبِ المَـوارد، والتفـوُّقِ الأَبيضِ، لم يتخلَ عن إرثـه العُنصريِّ، وإنَّما أعادَ إنتاجَه بطُـرقٍ أكثرَ حَداثةً ومُؤسَّسية.

ذلك أنَّ "الاستعمارَ كان إعادةَ إنتاجٍ للعُنصريّة بوصفه أداةً للسَّيطرة على الشُّعوب، وحتّى بعدَ نهايةِ الاستعمار، استمرَّت البنيةُ العُنصريّةُ في المُجتمعاتِ الغَربيّة بطُرقٍ جَديدة".[2]

إنَّ فهـمَ العُنصريّةِ في الغَربِ اليومَ لا يُمكنُ أن يتمَّ بمَعزلٍ عن جذورها التّاريخيّة. فالعُنصريّةُ تَمتدُّ إلى قرونٍ من الاسـتعمارِ والعبوديّة والتفوُّقِ العرقيِّ الذي شكَّلَ البنيةَ الثَّقافيّةَ والاقتصاديّةَ والسِّياسـيّةَ للمُجتمعاتِ الغَربيّة. فمُنذُ بدايةِ التوسُّـعِ الأوروبيِّ في القرن الخامسَ عشرَ، وحتّى نهايةِ القرنِ العشرينَ، اعتمدَ الغربُ على إقصاءِ الآخَرِ واسـتغلالِه بوَصفِه inferior (أدنى مَنزلةً) وباعتباره جزءًا من مَشروعِه الإمبرياليِّ.

بدأتِ العُبوديّةُ العابرةُ للأطلسيِّ بوصفه أحدَ المَحاورِ المَركزيّة في بناء الاقتصادِ الغربيِّ. فمُنذُ القرنِ السّـادسَ عشرَ، تمَّ اختطافُ ملايينِ الأفارقةِ وبَيعُهم عبيدًا في أوروبّا والأمريكيَّتَين؛ حيثُ تمَّ اعتبارُهم أدواتِ إنتاجٍ لا أكثرَ. هذه العُبوديّةُ كانَت جزءًا من نظامٍ أيديولوجيٍّ يُشرِّعُ اسـتعبادَ الأعراقِ غيرِ الأوروبيّةِ باسم «تفوُّقِ العِرقِ الأبيض».

---

1 - Bonilla-Silva, Eduardo. Racism Without Racists: Color-Blind Racism and the Persistence of Racial Inequality in America. Rowman & Littlefield, 2017, p. 27.

2 - Fanon, Frantz. Black Skin, White Masks. Grove Press, 2008, p.69.

ولم يكنْ هذا التَّمييزُ مُقتصرًا على العُبوديّة، بل امتدَّ إلى الاستعمار الأوروبيِّ الذي احتلَّ معظمَ دول إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، مُستغلًا شعوبَها وأراضيها باعتبارها مصادرَ للمواد الخام والقُوى العاملة. وقد اعتمدَ الاستعمارُ على تَبريراتٍ عُنصريّة تقول إنَّ الشُّعوبَ غيرَ الأوروبية "مُتخلِّفةٌ" وتَحتاج إلى "تمَدين"، وهو ما سُمِّي بـ"عِبءِ الرَّجلِ الأبيضِ" الذي استخدمتْه الإمبراطورياتُ الأوروبيّةُ لتَبرير نَهبها للثَّروات وإخضاعِ الشُّعوب.

لم يكنِ التَّمييزُ العنصريُّ في الغربِ مُجرَّدَ مُمارسة سياسيّة واقتصاديّة، بل تمَّتْ شرعنتُه أيضًا من خلال العُلوم والفلسفة. ففي القرن التاسعَ عشرَ، ظهرَت نظريّاتٌ عنصريّةٌ علميّةٌ تدَّعي أنَّ بعضَ الأعراقِ مُتفوِّقةٌ بطبيعتِها، في مقابلِ أعراقٍ أخرى "أدنى مَنزلةً" على المُستوى البيولوجيّ.

في عام ١٨٥٣، نشرَ (جوزيف غوبينو - Joseph de Gobineau) كتابَه "مقال عن عَدمِ المُساواةِ بينَ الأجناسِ البَشريّة"، زعمَ فيه أنَّ العرقَ الأبيضَ هو الأعلى ذكاءً والأكثرَ قُدرةً على القِيادة، ووصفَ الأعراقَ الأخرى بأنَّها أقلُّ تطوُّرًا.

وفي عام ١٨٧١، نشرَ (تشارلز داروين - Charles Darwin) كتابَ "نشوء الإنسان والانتقاء الجنسيّ"، فاستغلَّ بعضُ علماءِ الأحياءِ أفكارَه لتَبريرِ فكرةِ "البقاء للأصلح" بوصفِها مُبرِّرًا للاستعمار.

وظهرتِ الحركةُ العلميّةُ لتَحسينِ النَّسلِ (Eugenics) التي سعَت إلى تقليلِ نسلِ الأعراقِ غيرِ البيض، باعتبارِها "غيرَ مُلائمة"، وهي الأفكارُ التي تبنّاها النّازيُّونَ لاحقًا.

فالعِلمُ "... كان أداةً لإضفاءِ الشَّرعيّةِ على التفوُّقِ العِرقيِّ الأوروبيِّ، وهذا ما ساعدَ على ترسيخِ سياساتِ الإقصاءِ والاستعباد".[1]

مع انتهاءِ الاستعمارِ العسكريّ، لم تتوقَّفْ العُنصريّةُ، وإنَّما أُعيدَ إنتاجُها في شكلِ قوانينَ تُكرِّسُ التَّمييزَ العِرقيَّ، من أبرزِها:

- نظامُ الفصلِ العُنصريِّ (الأبارتايد -Apartheid) في جنوب إفريقيا (١٩٤٨-١٩٩٤)، الذي بموجبِه منعُ السُّكانِ السُّودِ من حقوقِهم الأساس، وفرضُ قيودٍ على تحرُّكاتِهم وعملِهم.
- قوانينُ (جيم كرو - Jim Crow) في الولايات المتَّحدة (١٨٧٧-١٩٦٥)، التي فرضَت فصلًا عُنصريًّا في المَدارس، والمُواصلات، والمَرافقِ العامّة، وحصرَت السُّود في وظائفَ مُنخفضةِ الأجرِ.

1 - Gould, Stephen Jay. The Mismeasure of Man. W. W. Norton & Company, 1981, p. 54.

- السِّياساتُ التَّمييزيّةُ في أوروبا تجاهَ المُهاجرينَ، مثل قوانينِ الهجرةِ في فرنسا وبريطانيا، التي حَدَّت من فُرصِ اللاّجئينَ والأقليّاتِ في الحُصولِ على حقوقٍ مُتساوية.
- العُنصريّةُ في الكيانِ الصهيونيّ، ومُحاولاتُ تَهجيرِ الفلسطينيِّينَ من أرضهم، وحروبُ الإبادة التي تُشَنُّ عليهم.

في ستينيّاتِ القرنِ العشرينَ، شهدَ العالَمُ صعودَ حركاتِ الحُقوقِ المَدنيّة، التي قادَتها شخصيّاتٌ مثل (مارتن لوثر كينغ - Martin Luther King)، و(مالكوم إكس - Malcolm X)، و(نيلسون مانديلا - Nelson Mandela)، وطالبَتْ بإنهاءِ التَّمييزِ العُنصريِّ وإعطاءِ الأقليّاتِ حقوقَها السِّياسيّةَ والاجتماعيّة. وبالفعل، أُلغيت كثيرٌ من القوانينِ العُنصريّة، لكنَّ ذلكَ لم يَعنِ انتهاءَ العُنصريّة، بل تحوَّلَت من كونِها ظاهرةً قانونيّةً إلى كونِها بنيةً ثقافيّةً واقتصاديّةً خَفيّةً.

فلا تزالُ الأقليّاتُ العِرقيّةُ في الغربِ تُعاني من فَجوةٍ اقتصاديّةٍ كبيرةٍ مُقارنةً بالبيضِ، وتُشيرُ الإحصاءاتُ إلى أنَّ السُّودَ واللاتينيِّينَ يَحصلونَ على رواتبَ أقلَّ بنسبة ٢٠-٣٠٪ مُقارنةً بنُظرائِهم البيضِ الذينَ يعملونَ في الوظائف نفسها.[1]

ولا تزالُ الشُّرطةُ الغَربيّةُ تُمارسُ العُنفَ المُفرطَ ضدَّ السُّودِ والمُهاجرينَ، كما ظهرَ بوضوحٍ في قضيّةِ (جورج فلويد - George Floyd) (٢٠٢٠)، التي أثارت احتجاجاتٍ عالميّةً ضدَّ وَحشيّةِ الشُّرطة.

ولا يَزال الإعلامُ الغربيُّ يُعزِّزُ الصُّورَ النَّمطيّةَ عن المسلمينَ والأفارقةِ والمُهاجرينَ، التي تُرسِّخُ التَّصوُّراتِ السَّلبيّةَ تجاهَ هذه الفِئات.

العُنصريّة المُؤسَّسيّة باعتبارها جزءًا من النِّظام

يعمَلُ الغربُ في الظّاهرِ على الترَّويجِ، في خطاباته، لفكرة أنَّ العُنصريّةَ باتَت جُزءًا من الماضي، لكنّ الواقعَ يُشيرُ إلى أنَّ التَّمييزَ العِرقيَّ لا يَزالُ مُتجذِّرًا في مُؤسَّساتِ الدَّولةِ والسِّياساتِ الاقتصاديّة والاجتماعيّة. لقد أصبحَت عُنصريّةً غيرَ مَرئيّة، لكنَّها مُؤثِّرةٌ بوجه عميق في حياةِ الأقليّات. وهذا ما يُعرف اليومَ بالعُنصريّةِ المُؤسَّسيّة (Institutional Racism)، التي تعملُ للحفاظ على الامتيازاتِ التّاريخيّةِ لفئةٍ على حساب فئةٍ أُخرى.

تُسهِم القوانينُ والسِّياساتُ الحكوميّةُ في الغربِ في إدامةِ التَّمييزِ العِرقيِّ من خلال إجراءاتٍ

1 - U.S. Bureau of Labor Statistics, 2021.

تَبـدو على السَّـطحِ مُحايـدةً، لكنَّها في جوهرِهـا تُكرِّسُ الفَجـوةَ بينَ الأعراقِ. ومـن أبرزِ هذه السِّياساتِ:

- التَّمييزُ في الإسكان: كثيرٌ من المُدن الغَربيّة تَعتمدُ نظامًا غيرَ مُعلَن لفَصلِ الأحياءِ على أسُسٍ عِرقيّةٍ؛ بحيثُ تَبقى مُجتمعاتُ السُّودِ والمُهاجرينَ مَحصورةً في أحياءٍ فَقيرةٍ ذاتِ خَدماتٍ سيِّئة، وهذا الأمرُ يُعزِّزُ العُزلةَ الاجتماعيّةَ والاقتصاديّة.
- الفَجوةُ في التَّعليم: تُشير الدِّراساتُ إلى أنَّ المدارسَ في الأحياء الفقيرة، التي يَسكنُها غالبًا السُّـودُ والمُهاجرونَ، تَحصـلُ على تمويل أقلَّ وفُرصٍ تَعليميّـةٍ أضعفَ مُقارَنةً بالمدارسِ في المَناطقِ ذاتِ الأغلبيّةِ البيضاء.[١]
- التَّفاوُتُ في فُرصِ العَمل: تُظهرُ الإحصائيّاتُ أنَّ الأقليّاتِ تُواجهُ مُعدَّلاتِ بطالةٍ أعلى، وتَتقاضى أجورًا أقلَّ، وتَحظى بفُرصٍ أضعفَ للتَّرقيةِ مُقارنةً بالبيضِ، حتى عندَ تَساوي المُؤهِّلاتِ والخبرات.[٢]
- تلعـبُ الأنظمةُ القَضائيّةُ دورًا محوريًّا في تكريس العُنصريّةِ المؤسَّسـيّةِ؛ حيثُ تُطبّق القوانينِ بطريقةٍ غيرِ متكافئة على أساسِ العِرق. ومن أبرزِ الأمثلةِ على ذلك:
- التَّمييزُ في الأحكامِ القَضائيّة: تُشيرُ الدِّراساتُ إلى أنَّ السُّودَ واللاتينيِّينَ، في الولايات المتَّحدة، يَحصلونَ على أحكامٍ أشدَّ قسوةً من نُظرائِهم البيضِ عندَ ارتكابِهم الجرائم نفسها.[٣]
- الاسـتهدافُ الأمنيُّ للأقليّـات: تُواجهُ مُجتمعاتُ السُّـودِ والمُسـلمينَ والمُهاجرينَ مُعدَّلاتٍ أعلى من التَّوقيفِ والتَّفتيشِ العَشـوائيِّ مُقارنةً بالمُواطنينَ البيضِ، حتّى في الدُّولِ الأوروبيّةِ التي تدَّعي مُحاربةَ التَّمييزِ العُنصريّ.[٤]
- السَّجْنُ الجماعيُّ للأقليّاتِ: يُواجِهُ السُّودُ في الولاياتِ المتَّحدةِ مُعدَّلاتِ سَجْنٍ تَفوقُ

1 - Alexander, Michelle. The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colorblindness. The New Press, 2010, p.78.

2 - U.S. Equal Employment Opportunity Commission, 2021.

3 - Tonry, Michael. Malign Neglect: Race, Crime, and Punishment in America. Oxford University Press, 1995, p.113.

4 - European Network Against Racism, 2020.

البيضَ بخمسة أضعاف، ممّا جعلَ بعضَ المُفكّرينَ يَصفونَ النِّظامَ القَضائيَّ الأمريكيَّ بأنَّه استمرارٌ لقوانينِ الفَصلِ العُنصريِّ بطُرقٍ حَديثة.[1]

الإعلامُ وصناعة الصُّورة النَّمطيّة: كيف يتمُّ تَرسيخُ العُنصريّة في الثَّقافة الغَربيّة؟

يلعبُ الإعلامُ دورًا رئيسًا في إعادة إنتاجِ الصُّورِ النَّمطيّة عن الأقليّات العرقيّة، التي تُعزِّزُ المُمارَسات العُنصريّةَ المؤسَّسيّة. فمن خلال الأفلام، والبرامج التلفزيونيّة، والتَّغطيات الإخباريّة، يتمُّ تَصويرُ المُهاجرينَ والسُّودِ والمُسلمينَ على أنَّهم تَهديدٌ دائمٌ للمُجتمعات الغربيّة، وهذا السُّلوكُ يَخلُقُ بيئةً تُسهِّلُ استمرارَ التَّمييز. "فالإعلامُ الغربيُّ لا يَنقلُ الواقعَ كما هو، بل يُعيدُ إنتاجَ رُؤيةٍ تَخدمُ الطَّبقاتِ الحاكمةَ؛ حيثُ يُظهِرُ الأقليّاتِ باعتبارهم عالةً على المُجتمعِ أو خطرًا يَجبُ مُكافحتُه".[2]

الإسلاموفوبيا: وجهٌ جديدٌ للعُنصريّة في الغَرب

معَ تصاعُدِ الهجرةِ إلى أوروبا وأمريكا، وخصوصًا من الدُّول الإسلاميّة، أصبحَ الإسلامُ والمُسلمونَ محورًا جَديدًا للعُنصريّة المؤسَّسيّة والشَّعبيّة في الغَرب. لم تَعد العُنصريّةُ مُوجَّهةً فقط ضدَّ السُّودِ واللاّتينيِّينَ، بل أصبحَ الإسلاموفوبيا (الخَوفُ المَرضيُّ من الإسلام) أحدَ أبرزِ أشكالِ التَّمييزِ العِرقيِّ والثَّقافيّ. وقد تصاعدَت هذه الظّاهرةُ بعدَ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ حيثُ تحوَّلَ الإسلامُ في الخطاب السِّياسيِّ والإعلاميِّ الغربيِّ إلى «عَدوٍّ داخليٍّ» يُهدِّدُ القِيَمَ الدِّيمقراطيّةَ والحَداثةَ الغَربيّة.

لكنَّ السُّؤالَ هو: هل الإسلاموفوبيا مُجرَّدُ كراهيةٍ عَفويّة ضدَّ المُسلمينَ، أم أنَّه جُزءٌ من مشروع سياسيٍّ واقتصاديٍّ أوسعَ؟ وكيفَ وُظّفت لخدمة أهداف مُعيَّنة في الغَرب؟

لم تكنِ النَّظرةُ الغربيّةُ السَّلبيّةُ تجاهَ الإسلامِ وليدةَ اللَّحظة، بل هي امتدادٌ لقرونٍ من الاستشراق الاستعماريِّ، الذي سَعى إلى تقديم الإسلامِ على أنَّه دينٌ مُتخلِّفٌ، يَتعارضُ مع "الحضارة الغربيّة

1 - Alexander, The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colour-blindness, p. 123.

2 - Chomsky, Noam. Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media. Pantheon Books, 1988, p. 89.

المُتقدِّمة". فمنذُ الحَملات الصَّليبيّة، وحتّى الاستعمارِ الأوروبيِّ للعالَمِ الإسلاميِّ، كان الإسلامُ يُصوَّرُ دائمًا على أنَّه دينُ العُنفِ والتعصُّبِ والانغلاق.

واليوم، لا تزالُ هذه التصوُّراتُ تعملُ على تبرير السِّياساتِ الغربيّة تجاهَ المُسلمينَ، سواء في الدّاخلِ (التَّمييز ضدَّ المُسلمينَ المُهاجرينَ) أم في الخارجِ (الحروب والتدخُّلات العَسكريّة في الدُّول الإسلاميّة).

يتجلَّى الإسلاموفوبيا في الغربِ من خلال القوانينِ والسِّياساتِ الحكوميّةِ التي تضعُ المُسلمينَ في خانة "المُشتبَه بهم" بشكلٍ دائم. ومن أبرزِ هذه السِّياسات:

- قوانينُ حظرِ الحِجابِ والنِّقاب في فرنسا وبلجيكا وألمانيا، التي تَفرِضُ قُيودًا على حريّةِ اللِّباسِ الإسلاميِّ تحتَ ذريعة «حماية العلمانيّة».
- القوانينُ المُشدَّدةُ ضدَّ المُهاجرينَ المُسلمينَ، مثل سياساتِ الهجرةِ في الولايات المتَّحدة التي فرضَها الرئيسُ دونالد ترامب، والتي استهدفَت دُولًا إسلاميّةً بشكلٍ صَريح.
- المُراقبةُ الجماعيّةُ للمُسلمينَ؛ حيثُ تقومُ الحكوماتُ الغربيّةُ بالتجسُّسِ على المَساجدِ والمُنظَّماتِ الإسلاميّة تحتَ ذريعةِ "مكافحة الإرهاب"، ممّا يُرسِّخُ فكرةَ أنَّ المُسلمَ مُتَّهم حتى يَثبُتَ العَكسُ.[1]

ويَلعبُ الإعلامُ الغربيُّ دورًا محوريًّا في تعزيز الإسلاموفوبيا من خلال تصويرِ المسلمينَ بأنهم إرهابيون مُحتمَلونَ، أو مُتخلِّفونَ، أو غيرُ قادرين على الاندماج في المُجتمعاتِ الحَديثة. وتَشمل هذه الصُّورةُ النَّمطيّةُ العناصرَ الآتية:

- ربطُ الإسلامِ بالإرهاب: حيثُ يُركّز على الجرائمِ التي يَرتكِبُها مُسلمونَ، على حين تُتجاهل جرائمِ المُتطرِّفينَ البيضِ.
- إظهارُ الحجابِ بصفته رمزًا للقَهر: حيثُ تُقدَّمُ النِّساءُ المُسلماتُ على أنَّهنَّ "مُضطهداتٌ"، وبحاجةٍ إلى إنقاذٍ من ظُلمِ "المُجتمعاتِ المتُخلِّفة".
- الترَّويجُ لنظريّة "أسلمةِ أوروبا": حيثُ يُتلاعب بالإحصائيّاتِ لإظهارِ أنَّ المُسلمينَ يُكوّنون "تَهديدًا ديموغرافيًّا" للحَضارة الغربيّة.

1 - Kundnani, Arun. The Muslims Are Coming! Islamophobia, Extremism, and the Domestic War on Terror. Verso Books, 2014, p.47.

أصبحَ الإسـلاموفوبيا أداةً سياسـيّةً بيدِ الأحزابِ اليَمينيّةِ المُتطرِّفـةِ في أوروبا وأمريكا، التي تستغلُّ الخوفَ من الإسلام لحشـدِ التأييدِ الشَّعبيّ، وتقومُ بتقديمِ المُسلمينَ كخطرٍ على الهويّة الوطنيّةِ، ممّا يُبرِّرُ سياساتِ الهجرةِ الصّارمةِ، واستخدامَ الخطابِ الدِّينيِّ المَسيحيِّ ضدَّ الإسلامِ، كما في خطـاب «الحربِ على الإرهـاب». مضافًا الى تمويلِ الحَملاتِ المُعاديةِ للإسـلام من قِبَلِ مجموعاتِ الضَّغطِ الصهيونيّةِ، التي تَرى في نشرِ العَداءِ للإسـلامِ وسـيلةً لدَعمِ السِّياساتِ الإسرائيليّةِ ضدَّ الفلسطينيِّينَ.

إذًا، الإسلاموفوبيا هو مشروعٌ سياسيٌّ واقتصاديٌّ يَخدم أهدافًا مُحدَّدةً، من بينها تبريرُ التدخُّلاتِ العَسكريّةِ الغربيّةِ في الدُّولِ الإسلاميّة، من خلال تصويرِ المسلمينَ بأنّهم "تهديد عالميّ" يَحتاج إلى مواجهةٍ عسكريّةٍ، وتوجيهِ غضبِ الطَّبقاتِ الفقيرةِ في الغربِ نحوَ "العدوّ الإسلاميّ" بَدلاً من التَّركيزِ على السِّياساتِ الاقتصاديّةِ الظّالمة. مضافًا إلى دعمِ الاقتصادِ العَسكريِّ؛ حيثُ يُستخدم "الخطرِ الإسـلاميّ" بوصفه مبرِّرًا لزيادةِ ميزانياتِ الدِّفاعِ والاسـتخبارات، دون أن نَنسى تعزيزَ التَّحالُفاتِ السِّياسيةِ معَ الأنظمةِ الدِّيكتاتوريّةِ في الشَّرقِ الأوسَط، من خلال تقديمِها كـ«حُلفاء في الحربِ ضدَّ الإرهاب».

ومهما يكنْ من أمرٍ فإذا كان القرنُ العشرونَ قد شهدَ تراجُعًا في الخطابِ العُنصريِّ الصريح، فإنَّ القرن الحادي والعشرينَ شـهدَ تحـوُّلاً في أنماطِ العُنصريّة؛ بحيـثُ أصبحَت أكثرَ ذكاءً، وأكـثرَ قدرةً على التكيُّفِ مـعَ المناخِ السِّـياسيِّ والاجتماعيِّ الجَديد. لم تعـدِ العُنصريّةُ تُعبِّرُ عن نفسـها بصراحةٍ كما كان يَحدث في زمنِ قوانينِ الفَصلِ العُنصريِّ، لكنَّها عادَت من خلال خطاباتِ التفوُّقِ الأبيضِ، وصُعودِ الحَركاتِ الشَّعبويّةِ، والتَّلاعُبِ السِّياسيِّ بالمَخاوفِ الثَّقافيّةِ والاقتصاديّة.

لكنْ، ما الـذي أدَّى إلى إعادةِ إنتاجِ العُنصريّةِ في ثوبها الجَديد؟ وكيفَ أصبحَتِ الشَّـعبويّةُ اليَمينيّةُ الواجهةَ الجديدةَ للتَّمييزِ العِرقيِّ في الغرب؟

في المـاضي، كانتِ العُنصريّةُ في الغربِ تتجلَّى بوضوحٍ في سياسـاتٍ قانونيّةٍ واضحة، مثل العُبوديّـة، والفَصلِ العُنصريِّ، والاسـتعمار. لكنَّ هذه المُمارسـاتِ أصبَحـتْ مرفوضةً خُلُقيًّا بعد الحربِ العالميّةِ الثانية، ومعَ تصاعُدِ خطابِ حقوقِ الإنسـانِ والمُسـاواة، وهذا أجبرَ أنصارَ العُنصريّةِ على تبنِّي أساليبَ جديدةٍ، وأكثرَ مُرونةً للحفاظِ على الامتيازاتِ العِرقيّة.

هذا التحوُّلُ جعلَ من المُمكنِ استمرارَ العُنصريّةِ داخلَ الأنظمةِ الدِّيمقراطيّة؛ حيث لم يعدْ يُنظر إلى الأقليّاتِ العرقيّةِ باعتبارِها "أدنى"، بل باعتبارِها "تَهديدًا" للمُجتمعِ الغربيِّ، سواء من الناحيّةِ الاقتصاديّةِ أو الثَّقافيّةِ أو الأمنيّة.

ومع تصاعُدِ الأزَماتِ الاقتصاديّةِ والهجراتِ الجَماعيّةِ، وجدَتِ الأحزابُ اليَمينيّةُ المُتطرِّفةُ في أوروبا وأمريكا فرصةً لاستغلالِ العُنصريّةِ سياسيًّا، من خلال تبنِّي خطاباتٍ قوميّةٍ مُتشدِّدةٍ تدَّعي أنَّها تُدافعُ عن "الهويّةِ الوطنيّة" ضدَّ "الغَزوِ الثَّقافيّ" الذي تُمثِّلُه الأقليّاتُ والمُهاجرونَ.

ويُعتبرُ صُعودُ دونالد ترامب إلى الرِّئاسةِ الأمريكيّةِ عام ٢٠١٦ ثم عودتُه عام ٢٠٢٤ نقطةَ تَحوُّلٍ في الخطابِ العُنصريِّ الجديدِ؛ حيثُ استندَت حملتُه الانتخابيّةُ على تحريضٍ صريحٍ ضدَّ المُهاجرينَ والمُسلمينَ والسُّودِ، مُستخدمًا شعاراتٍ مثل: "أمريكا أولاً"، التي أعادَت إنتاجَ فكرةِ أنَّ "الأمريكيَّ الأبيضَ" هو المُواطنُ الحَقيقيُّ، على حين أنَّ الآخَرينَ مُجرَّدُ "ضيوفٍ غيرِ مُرحَّبٍ بهم».

أوروبا واليَمين المُتطرِّف: عندما أصبحَ الخطابُ العُنصريُّ سياسةً حكوميّة

لم يكنْ ترامب وحدَه مَن أعادَ إحياءَ الخطابِ العُنصريِّ، بل شهدَت أوروبا أيضًا صُعودًا غيرَ مَسبوقٍ لليَمينِ المُتطرِّف؛ حيثُ دخلَت أحزابٌ مثل:

- حزب التجمُّعِ الوَطني في فرنسا (مارين لوبان).
- حزب البَديل لألمانيا (AfD).
- حزب الحرِّية في النّمسا.

وجميعُ هذه الأحزابِ استخدمَت خطابَ الخَوفِ من المُهاجرينَ والمُسلمينَ لحَشدِ الأصواتِ، وقدَّمَت نفسَها على أنَّها تُدافعُ عن «القِيَمِ الأوروبيّةِ في مُواجَهةِ الغَزوِ الإسلاميّ».

هل نحن أمام "فصلٍ عُنصريٍّ ناعم"؟

إذا كان الفصلُ العُنصريُّ في الماضي يَعتمد على القوانينِ الصَّريحةِ للتَّمييزِ، فإنَّ العُنصريّةَ الجديدةَ تَعتمد على سياساتٍ ناعمةٍ تُعيدُ إنتاجَ التَّمييزِ بطُرقٍ خَفيّةٍ، من خلال الإعلامِ، والسِّياسة، والاقتصاد.

لكنَّ السُّؤالَ المَطروحَ هو: هل تَستطيعُ المُجتمعاتُ الغربيّةُ أن تتحرَّرَ من خطاب التفوُّقِ

الأبيضِ والشَّعبويّة، أم أنَّ هذه النِّزعاتِ ستَظلُّ جُزءًا بنيويًّا من ثقافتها السِّياسيّة؟

الإجابةُ تكمُنُ في آلياتِ الخِطابِ التي تُوظّف لتبرير العُنصريّة، وإعادةِ إنتاجها بطُرقٍ أكثرَ نُعومةً وأقلَّ وُضوحًا. فبَدلًا من استخدام المُصطلحاتِ العُنصريّة الصريحة، أصبحَ الخطابُ الغربيُّ يَعتمِدُ على مَفاهيمَ مثـلِ "الهويّة الوطنيّة"، و"حماية القِيَم الدِّيمقراطيّـة"، و"الأمن القَوميّ"، و"الاندماج الاجتماعيّ"، وهي مُصطلحاتٌ تَبدو بريئةً ظاهريًّا، لكنَّها تُخفي وراءَها مَشروعًا عُنصريًّا.

هل يمُكن الغربَ أن يتحرَّرَ من إرثِه العُنصريّ؟

إنَّ الحديثَ عن العُنصريّة في الغرب هو استكشافٌ لمُعضلة قائمة في الحاضر، تُهدِّدُ المُستقبلَ أيضًا. لقد حاولَت المُجتمعاتُ الغربيّةُ أن تُقدِّمَ نفسَها باعتبارها نموذجًا للمُساواة والعَدالة، لكنَّها في الواقع ما زالَت عالقةً في إرثها الاستعماريِّ، ونظرتها المُتفوِّقة إلى الأعراق والثَّقافات الأخرى. فحتّـى عندَما يَبدو أنَّ القوانـينَ تتغيَّرُ، أو أنَّ هناك مُحاولاتٍ لإصلاح الأوضـاعِ، فإنَّ العُنصريّةَ تَستمرُّ في إعادة إنتاجِ نفسِها بطُرقٍ أكثرَ تَعقيدًا وأقلَّ وُضوحًا.

لا يمُكـنُ فَهمُ العُنصريّـةِ في الغرب بمَعزلٍ عـن التّاريخِ الطَّويلِ للعُبوديّة والاسـتعمار، ولا يمُكـنُ إنكارُ دَورِ القُوى الاقتصاديّة والسِّياسـيّة في الإبقاء على الفَجـوات العرقيّة. فالأمرُ ليس مُجرَّدَ تَحيُّزاتٍ شَـخصيّة أو ثقافيّة، بل هو نظامٌ مُتكاملٌ يَخدم مصالحَ مُحدَّدةً، ويَضمنُ استمرارَ الامتيازاتِ لفئةٍ على حساب فئاتٍ أخرى.

لقد كشفَت المُمارساتُ كيف أنَّ العُنصريّةَ لم تقتصرْ على الماضي، وإنَّما عادَت اليومَ بصور جديدة، مَدعومةً بأيديولوجيات اليَمينِ الشَّـعبويِّ، ومن خلال سياسـاتٍ حُكوميّة ومُؤسَّساتٍ إعلاميّة واقتصاديّة تُكرِّسُ الفَجوةَ العرقيّةَ. فسَواءٌ في التَّمييزِ داخلَ سوقِ العَمل، أو في الخطابِ الإعلامـيِّ الذي يُشـيطِنُ المُهاجريـنَ والمُسـلمينَ، أو في السِّياسـاتِ الأمنيّة التي تَسـتهدفُ الأقلِّيات، نجدُ أنَّ العُنصريّةَ ليسَـت مُجرَّدَ مُشكلةِ سُلوكيّاتٍ فرديةٍ، بل هي إطارٌ هَيكليٌّ يَخترِقُ كلَّ المُستوياتِ الاجتماعيّة والسِّياسيّة.

ففي المُجتمعاتِ الغَربيّة، هناكَ أصواتٌ تَرتفعُ اليومَ ضدَّ العُنصريّة، وهناكَ مُحاولاتٌ إصلاحيّةٌ لخَلقِ بيئةٍ أكثرَ عَدالةً. لكنَّ هذه المُحاولاتِ تظلُّ مَحدودةً، وغالبًا ما تُواجَهُ بردُودِ فِعلٍ عَنيفةٍ من التيّاراتِ اليَمينيّة، التي تَرى في أيِّ تَغييرٍ تَهديدًا لهويّتِها.

إنَّ المستقبَلَ سيَحملُ الإجابةَ عن كثيرٍ من الأسئلة، لكنَّ المؤكَّدَ هو أنَّ العُنصريّةَ لن تَختفي من تلقاءِ نفسها، إذا لم تكنْ هناك إصلاحاتٌ جَذريّةٌ في الفكرِ والسِّياسةِ والاقتصادِ والإعلامِ؛ لأنَّ العُنصريّةَ ستَستمرُّ في التلوُّنِ بصُوَرٍ جَديدة، وستَبقى المُجتمعاتُ الغربيّةُ تَعيشُ في وَهمِ المُساواة، بينما تستمرُّ الفَجواتُ العِرقيّةُ في الاتِّساع.

ربمَّا يكونُ التحدِّي الأكبرُ اليومَ ليس فقط في محاربة العُنصريّة، بل في امتلاكِ الشَّجاعة للاعترافِ بحَجمها الحَقيقيِّ، والاستعدادِ لدَفعِ الثَّمنِ من أجل القَضاء عليها. ومن دون ذلك، سيَظلُّ الغربُ يتحدَّثُ عن المُساواة، لكنَّه لن يكونَ قادرًا على تَحقيقها حقًّا.

وقد احتوى هذا العددُ من "أُمم" جملةً من الأبحاث المُهمّة، التي سلَّطَت الضَّوءَ على عدّةِ مَواضيعَ هامّة ومُتكاملة، تَناولَت العُنصريّةَ بوصفها إحدى دعاماتِ المَشروعِ الحضاريِّ الغربيِّ. فعالَجَت الجُذورَ الثَّقافيّةَ والفلسفيّةَ للعُنصريّة في تاريخ الفكرِ الأوروبيِّ، وابتناءَ الحَضارةِ الأوروبيّةِ على مركزيّةِ الذّاتِ الأوروبيّة بوصفها محورًا حصريًّا للتقدُّمِ والتفوُّق. ثمّ عرضَت للعُنصريّةِ في التُّراثَينِ اليَهوديِّ، والصهيونيِّ، من خلال السَّبرِ في النُّصوصِ والرُّؤى المؤسِّسة لهما، والكشفِ عن هذا الاتِّجاه المُفرِطِ في القسوةِ والبَطشِ والتحيُّزِ العِرقيِّ والدِّينيِّ والفِكريِّ الذي تكتنفُه الصّهيونيّةُ واليهوديّةُ في مقابلِ بقيّةِ البشرِ بمُختلفِ أديانهم ومُعتقداتهم وأعراقِهم.

وقد تُعرِّض إلى أحدِ المَجالات المُحدَثة في الميدانِ التُّكنولوجيِّ، وهو الذَّكاءُ الاصطناعيُّ، ودورُه في تَعزيزِ العُنصريّةِ وخطابِ الكراهية، والتحيُّزِ ضدَّ فئاتٍ عِرقيّةٍ ودينيّةٍ وثقافيّةٍ مُغايرةٍ للدَّوائرِ السِّياسيّةِ والثَّقافيّةِ المُؤثِّرةِ في إدارة كافّةِ مَجالاتِ التُّكنولوجيا المُعاصرة.

وقد تناولَت الأبحاثُ كذلك تجلِّيات العُنصريّةِ الغربيّةِ في مَجالِ الأدبِ والفنونِ والإعلامِ والسِّينما الغربيّة، التي كانَت ولا تزالُ أداةً مُتفوِّقةً في إبراز الأورومركزيّةِ والاستعلاءِ الغربيِّ بوجهِه الأميركيِّ والصّهيونيِّ، وفي المُساهمةِ في التَّطبيعِ الثَّقافيِّ والسِّياسيِّ عبرَ هذه الأداةِ بالغةِ التأثير.

فيما أكَّدَتْ هذه الأبحاثُ على أسبقيّةِ الخطابِ القرآنيِّ في التأسيسِ لخطابٍ مَعرفيٍّ مُتكاملٍ، نابذٍ للعُنصريّةِ والعِرقيّة، ويُقدِّمُ عِوَضَ ذلكَ إطارًا إنسانيًّا جامعًا للاختلافاتِ العِرقيّةِ والدِّينيّةِ والثَّقافيّةِ والمَناطقيّةِ كافّةً، قائمًا على الأخُوّةِ الإنسانيّةِ والإيمانيّةِ، والعَدالةِ الاجتماعيّةِ المُطلَقةِ بينَ الناس.

وقد عرَّجَتِ المَقالاتُ أيضًا على دراسةٍ إحصائيّةٍ تناولَتِ التَّمييزَ العُنصريَّ ضدَّ الأقليّاتِ، لا

سيَّما المسـلمينَ والأفارقةِ والآسـيويِّينَ واللاتينيِّينَ، في الولاياتِ المتَّحدة الأميركيّة وعدّة دُول أوروبيّة كـفرنسـا وألمانيا وبريطانيا؛ حيثُ تُظهر الإحصاءاتُ أنَّ العنصريّةَ تتَّخذُ مَسارًا تصاعُديًّا في الدُّول المَذكورةِ لأسبابٍ سياسيّةٍ ودينيّةٍ، وأنَّها سياسةٌ مُمنهجةٌ ومُعتمَدةٌ في مفاصلِ الدَّولة.

إنَّنا إذ نُقدِّمُ هذا العددَ للقُرّاءِ الكِرامِ، فإنَّنا نأملُ أن يَنالَ الاستحسانَ والقَبولَ عندَهم، وقبلَ ذلك وبعدَه، أن يَنالَ القَبولَ عندَ اللهِ -سبحانه وتعالى-، باعتباره عملاً نَضعُهُ في سياق جهادِ التَّبيينِ.

والحمدُ لله أوَّلًا وآخِرًا.

"العُنصريّة" في الفِكرَينِ اليَهوديِّ والصّهيونيّ
-دراسة تحليليّة-

د. أحمد البهنسي[1]

ملخّص

تُعـدُّ «العُنصريّـة» مـن الظَّواهـر البَشريّة المَقيتـة، فقد تَسـبَّبَت بكثيرٍ مـن الصِّراعات والإشـكاليّات بـين الأُمم والمُجتمعـات؛ لذلك لم يكنْ من المبالغة وصفُهـا بأنَّها ظاهرةٌ إنسـانيّةٌ بالأسـاس، لكنّها ارتبطَت ببعض الجماعات والأُمم التي رأتْ في نفسِها، انطلاقًا من خَلفيّات دينيّة وتاريخيّة وفِكريّة، أنَّها من نوعٍ فائق وأعلى من بقيّة الأجناسِ البَشريّة.

كانَت الجماعاتُ اليَهوديّةُ من أبرزِ تلك الجمعيّات وأهمّها، لاعتناقِها فكرةَ «شعب الله المُختار»، وهي الفكرةُ الدِّينيّةُ اليَهوديّة التي طوَّرتْها الصّهيونيّةُ للتَّسـويغ لضرورةِ أن يكونَ لهـم وطنٌ قوميٌّ خاصٌّ يَحفظ نقاوةَ جِنسـهم الدِّينيِّ المائز؛ وهو ما أصَّلَ له هذا البحثُ، وشرحَ خَلفيّاته ومَصادرَه المُختلفة، سواء الدِّينيّة أو الفِكريّة أو حتّى التّاريخيّة.

كما شرح البحثُ أهمّ سـمات هذه العنصريّـة اليهوديّة وتجلّياتها وحلّلها، التي امتدَّتْ إلى الفِكر الصّهيونيِّ أيضًا، وانحصَرَتْ في الانعزاليّةِ والعُداونيّةِ ومَظاهرَ أُخرى كانَت نتاجًا لفكرٍ عنصريٍّ تمَييزيٍّ شاذّ.

الكلمات المفتاحية:

عنصريّة، يهود، صهيونيّة، النَّازي، التَّوراة، التّلمود.

1 - باحث مصري، دكتوراه بالفكر الديني اليهودي وتاريخ الأديان، جامعة القاهرة.

مُقدِّمة

تَعدَّدَت المَفاهيمُ والتَّعريفاتُ للعُنصريّةِ وما يتَّصلُ بها من مظاهرِ العُدوانيّةِ والتَّمييز وكراهيّةِ الآخَـر. كما أنَّها اتَّخذَت كثيراً من الصـور، منها الفَرديّةُ أو الدّاخليّـةُ، والتي تكونُ داخلَ الفردِ مُتمثِّلةً فيما يَحملُه من مشـاعرَ سَلبيّةٍ تجاهَ الآخَر، وكذا العُنصريّةُ الشَّخصيّةُ، التي تَحدُثُ فيما بينَ الأفرادِ.

وهناكَ العُنصريّةُ المُؤسَّسيّةُ، التي تُمارسُها مُؤسَّسةٌ مُعيّنةٌ تجاهَ مَجموعاتٍ عرقيّةٍ أو إثنيّة. علاوةً على العُنصريّةِ الهَيكليّة، التي تتَّخذُ شـكلَ هياكلَ مُعيَّنةٍ داخلَ نمطٍ مُؤسَّـسيٍّ. وأخيراً العُنصريّةُ التَّمثيليّةُ، التي تَظهر في وسائلِ الإعلامِ على شكلِ تمَثيلٍ أو تَصويرِ أشخاصٍ أو جماعاتٍ مُعيَّنةٍ وَفقَ صُوَرٍ نمَطيّةٍ عُنصريّة.

ورغم أنَّ العُنصريّةَ هي بالأسـاس ظاهرةٌ إنسـانيّةٌ، بمعنى أنَّها ارتبطَت بالجماعاتِ والأعراقِ الإنسـانيّةِ على اختلاف أنواعِها، وعلى مرِّ عصورٍ مُختلفة، لكن هناك عدّةَ جماعاتٍ أو عِرقيّاتٍ ارتبطَـت بهم هذه الظّاهـرةُ نتيجةَ خَلفيّاتٍ دينيّةٍ وتاريخيّةٍ وفِكريّـة، وكان من أبرزِها الجماعاتُ اليَهوديّة على مرِّ تاريخِها الذي اشتهرَ بتشتُّتِهم في جميع بقاعِ الأرضِ، وتكوُّنِهم في شكلِ أقليّاتٍ عِرقيّةٍ أو إثنيّةٍ في الشَّرقِ والغَرب، ما أدَّى إلى تكوُّنِ إحساسِ الأقليّةِ لديهم بصورة عميقة، زادَت منه الأفكارُ الدِّينيةُ العُنصريّةُ والتأثُّرُ بأفكارٍ قوميّةٍ تَمييزيّةٍ وعُنصريّة، علاوةً على أسـبابٍ أخرى؛ بحيثُ أصبحَت العُنصريّةُ سـمةً مُلازمةً لأفرادِ هذه الجَماعاتِ أينَما وُجدوا، بل واحدةً من أبرزِ ما ارتبطَ بهم من صِفاتٍ وسُلوكيّات.

تَهدف هذه الدِّراسـةُ إلى التَّعريف بهذه العُنصريّة، سـواء في إطارها العـامِّ أو العُنصريّةِ اليَهوديّـةِ تَحديداً، والوقوفِ عـلى أهمِّ الجُذورِ أو المَصادر أو المُسـبِّبات لهـا، ومُحاولةِ تَحليلِهـا، والتي انحصرَت في مصادرِ دِينيّةٍ بالأسَـاسِ، وُجدت في العَهد القديم والتّلمود،

باعتبارِهما أهــمَّ مَصدرَين دينيَّين يَهوديَّين، اكتظّا بالأفكار والدَّعَــوات العُنصريّة التَّمييزيّة، عــلاوةً على مصادرَ تاريخيّــة وفِكريّة مُختلفة عائــدة لأحداث سياســيّة وتاريخيّة مرَّت بها الجماعاتُ اليَهوديّةُ، ومن أهمِّها ظاهرةُ الشَّــتات أو الدياســبورا التي سيطرَت على التّاريخِ اليَهوديِّ العامِّ.

كما تَحصُرُ هذه الدِّراســةُ بالوَصف والتَّحليل أبرزَ سِمات هذه العنصريّة اليهوديّة وتجلّياتها، التي كان من أبرزِها الانعزاليّةُ الناتجةُ عن إحســاس اليَهود بالتَّميُّــز والتَّفوُّق على غَيرِهم، وأنَّهم شعبُ الله المُختار، وكذا الاستعلاء على الآخَر ومُمارسة شتَّى أنواعِ العُدوانيّة ضِدَّهُ، باعتبارِه من الأغيار الذينَ هم أقلُّ درجةً من اليَهود، ولا يَرقَونَ إلى نَقاوةِ عِرقِهم وتَميُّزِهم.

أولا: المَدلولاتُ والمَفهوم

المُتتبِّعُ للمَدلول اللُّغويِّ لمُصطلــح «العُنصريّة» يَجدُ أنَّه من المُصطلحات الحَديثة، فلم يَرِدْ بهذه الصِّيغة في المَعاجم اللُّغويّة القَديمة، وإنَّما الذي وردَ لفظةٌ تُنسَبُ إليه وهي «العُنصر» على اختلافِ تَشكيلِ حُروفِها ومَعانيها[1].

١ - المَدلول الاصطلاحيُّ واللُّغويّ

بالنِّسبة لـ«المَدلول الاصطلاحيِّ» للفظة «عنصريّة»، فهناك كثيرٌ من المَدلولات التي اختلفَ الباحثونَ فيها، كلٌّ حسبَ تَخصُّصه ورُؤيته لهذا المُصطلَح، لكنّ أكثرَ ما يأتي مُتوافقًا مع المَدلول اللُّغويِّ للمُصطلَح هو ما يَحمل مَعنى الاعتداد، ســواء من قِبَلِ المَرء أو الجَماعة، وســواء كان الاعتدادُ بالأصل أو بالنَّســب أو بالإثنيّة[2]، ومن مَعانيه الشّــائعة أيضًا أنَّه أيديولوجيا تَســتندُ إلى أســطورة مُناقضة للعلم عن تَفوُّق أو نَقص هذه الأجناس أو تلك، مُحاولةً بذلك تَبريرَ أو إثباتَ سياســة الحِقد العُدوانيّة ضدَّ الكائــنِ البَشريِّ، التي تَقومُ على اغتصــابِ أراضي الآخر وإرهابِه وقَهرِه[3].

١ - أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي: العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، ص٥٨.
٢ - انظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص٤٣٧.
٣ - أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي: العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، ص٦٠.

٢ - المَفهوم والتَّعريفات

رغمَ كثرةِ التَّعريفاتِ لهذا المُصطلَحِ لكن هناك شبهَ إجماعٍ على أنَّه انتشرَ في العالَمِ الغربيِّ في ثلاثينيّاتِ القرنِ الماضي، عندَما استُخدِمَ لوَصفِ الأيديولوجيا الاجتماعيّةِ والسِّياسيةِ لـ«النَّازية»، التي تعاملَتْ معَ «العِرقِ» باعتباره وحدةً سياسـيّةً كاملة. واتِّصـالاً بذلك ربطَتْ كلُّ التَّعريفاتِ الإسرائيليّـةِ بينَ مُصطلَحَي «العُنصريّة» و«النَّازية»[١] وهو ما يَقودنا إلى القولِ بمَركزيّةِ الأحداثِ التي عُرِفَت بـ«الهولوكوسـت»، وتُشير إلى اضطهادِ يَهودِ أوروبا على أيدي النازيِّين في الفِكرَينِ اليَهوديِّ والصّهيونيِّ، ودَورِها في تكوين كثيرٍ من الرُّؤى اليَهوديّةِ المُعاصِرة، وكذا الصّهيونيّة، لا سيَّما المُتعلِّقة بالعَلاقة معَ الآخَرِ وكيفيّةِ التَّعامُلِ معَه.

وفي اللُّغةِ العِبريّةِ تَحديدًا يُقابِـلُ «العُنصريّةَ» مُصطلَح גִּזְעָנוּת، الذي ردَّهُ اللُّغويُّ الإسرائيليُّ الشَّهيرُ אבן שושן (إيفن شوشان) إلى الجَذرِ اللُّغويّ גֶּזַע، بمَعنى جِذع، جِنس، عِرق، أصل، سُـلالة، عُنصر. كما ذكر «شوشـان» أنَّ شعوبَ العالَمِ تَنقسِـمُ إلى أعراقٍ خاصّة، عِرقِ الأسياد، وأعراقٍ أُخرى أقلَّ شـأنًا. وأنَّ العُنصريّةَ واحدةٌ من المَبادئِ الرَّئيسـةِ للنّازيِّينَ في ألمانيا، وكانَت بمَثابةِ الأساسِ لمُعاداةِ السّاميّةِ المُتوحِّشة وإبادةِ اليَهود.[٢]

أمّا «العُنصريّةُ اليَهوديّة» تَحديدًا، فتُعرَّفُ على أنَّها «عقيدةٌ تَسـتندُ إلى فلسـفةٍ مُناقضةٍ للدِّينِ والعِلم، عن أفضليّةِ العُنصرِ اليَهوديِّ على سِـواهُ من العَناصرِ البَشريةِ الأخرى، وهي مُستوحاةٌ من الدِّينِ اليَهوديّ[٣]»؛ وانطلاقًا من ذلك قال الدُّكتور (حسن ظاظا)، المُتخصِّصُ في الدِّراساتِ اليَهوديّة: إنَّ «الدِّينَ اليَهوديَّ هو عصبُ العُنصريّةِ اليَهوديّة»[٤]، وهنا يَجب التَّفريقُ بصورة دقيقة بـينَ العَقيـدةِ التَّوحيديّةِ، التي نادَى بهـا (مُوسى) -عليه السلام-، كما جاءَت في القـرآن الكريم، وبينَ اليَهوديّـةِ التَّحريفيّةِ الطّارئـةِ على تلكَ التَّعاليمِ المُنطويةِ على العُنصريّـةِ الصّهيونيّةِ في أبعادِها العقديّة.

---

١ - نصير كريم كاظم: العنصرية اليهودية، قراءة تحليلية في الأسس الفكرية، ص٢٢٠.

٢ - ياسر علي خالد فراج: الاستعلاء العنصري في الفكر اليهودي، ص.ص٩٩١-٩٩٢.

3 - דוד שגיב, מילון עברי– ערבי לשפה העברית בת זמננו, כרך ראשון, מהדורה שלישית, הוצאת שוקן ירושלים ותל–אביב, נדפס בישראל, תשנ"א. ע' גִּזְעָנוּת. אברהם אבן שושן, המלון החדש, בשבעה כרכים, הוצאת קרית-ספר, ירושלים, 3891 , ע' גִּזְעָנוּת.

٤ - حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، أطواره ومذاهبه، ص٢٥.

ويَرى بعضُهم أنَّ الحركةَ الصّهيونيّةَ ظهرَت نتيجةَ هذه العُنصريّة اليَهوديّة؛ إذ ظهرَت في ثوبِ الفَقيرِ المُتديِّنِ، في أواسط القرنِ السّادسَ عشرَ الميلاديّ، وفي ثوبِ الباحثِ عن المَلجأ من الاضطهادِ في القرنَينِ الثامنَ عشرَ والتّاسعَ عشرَ، وفي ثوبِ الطّامعِ في وطنٍ قَوميٍّ في أوائل القرنِ العِشرينَ، وفي ثوب الجنديِّ المُدجَّجِ بالسِّلاح، الذي يَصول ويَجول، يَزأرُ ويُهدِّدُ، في النِّصف الثّاني من هذا القرن[1].

ثانيًا: المَصادرُ الدِّينيّةُ والفكريّةُ والتّاريخيّة

لَمّا كانتِ النَّزعةُ العُنصريّةُ تُمثِّلُ أَحدَ المُكوِّناتِ الرئيسة للفكرِ الدِّينيِّ اليَهوديِّ وللأيديولوجيّةِ الصّهيونيّة في آنٍ؛ فقد صار مَبدأُ مُحاربةِ اندماجِ اليَهودِ في المُجتمعات الأخرى صلبَ عملِ الحركةِ الصّهيونيّةِ، التي روَّجَت لكلِّ ما من شأنه عزلُ اليَهودِ عن الآخَرينَ، واتَّخَذت من مَقولةِ «شعب الله المُختار» أساسًا أيديولوجيًّا لها باعتبارها من المَفاهيم الرَّئيسة في اليَهوديّة، والتي كوّنت أداةً لربطِ اليَهودِ بعضهم ببعضٍ، وتحديدِ عَلاقتهم بالآخَرينَ، مضافًا إلى إبرازِ مسألةِ اضطهادِ اليَهود أو مُعاداةِ السّاميّة؛ بحيثُ جعلَت اليهودَ الجنسَ الساميَّ الوَحيدَ من بين الأُمم السّاميّة؛ لذلك لم يكنْ غريبًا- على سبيلِ المثال - أن تكونَ من أهمِّ القَضايا، التي سَعى الأدبُ العبريُّ الحديثُ إلى تَرسيخها في وجدانِ اليَهود، هي قضيّة « تَرسيخ التَّميُّز اليَهوديّ»، وتفوُّق العَقليّة اليَهوديّة، انطلاقًا من مَقولةٍ واردةٍ في العَهد القَديم « وَتَكُونُونَ لِي قِدِّيسِينَ لأَنِّي قُدُّوسٌ أَنَا الرَّبُّ، وَقَدْ مَيَّزْتُكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ لِتَكُونُوا لِي» (اللاويين: ٢٠:٢٦)[2].

ولا شكَّ أنَّ العُنصريّةَ التي يَقوم عليها الفِكرُ الصّهيونيُّ مُعقَّدةٌ ومُركَّبةٌ وجزءٌ لا يَتجزَّأ من الحياة الإسرائيليّةِ ونِظامِها الفِكريِّ والأدبيِّ والسِّياسيِّ؛ بحيثُ صارَ المجتمعُ في إسرائيل[3] يتكوَّنُ من

---

١ - يعني القرن العشرين. محمد مدبولي عبد الرازق حسن: العنصرية في التعاليم الدينية اليهودية، دراسة تأصيلية، ص٢٤٤.

٢ - موفق كامل خلف المحمدي: أمثولات العنصرية اليهودية وتجلياتها في الأدب العبري الحديث، ص٩٣٤.

٣ - فضَّلنا استخدام مصطلح « المجتمع في إسرائيل» بدلًا من «المجتمع الإسرائيلي» ذلك أن المجتمع في إسرائيل لم يُولد بشكل طبيعي ووفق ظروف ديمغرافية وتاريخية طبيعية كأيٍّ من المجتمعات الأخرى، بل تولَّد نتيجة هجرات وكتل سكانية هجينة ومتنافرة، لا يَجمعها سوى وحدةِ المصير المشترك من الناحية الأمنية وحسب، وللمزيد حول هذه الفكرة يمكنك العود إلى:

- أحمد صلاح البهنسي: المتصوفة اليهود بين العقيدة والجيش، ص.ص٣-٧.

فئاتٍ وشَرائحَ سُكّانيّةٍ مُصنَّفة تَصنيفًا عُنصريًّا يَعكس بنيتَه الاجتماعيّةَ؛ إذ يَنقسمُ إلى يَهودٍ شَرقيِّينَ «سفارديم» ويَهودٍ غَربيِّينَ «إشكناز»، علاوةً على يهودِ مُهاجري دولِ الاتِّحادِ السُّوفييتي السّابق، ويَهودِ «الفلاشا» وهم المُهاجرونَ بالأساس من إثيوبيا، علاوةً على فئاتٍ وطوائفَ أُخرى مُقسَّمةٍ تَقسيمًا عرقيًّا وإثنيًّا مثلِ العربِ والأرمنِ والدُّروزِ والبَدوِ والشَّركسِ.. وغيرِهم[1].

تتألَّفُ هذه العُنصريّةُ اليَهوديّةُ/الصّهيونيّةُ من شقَّينِ، عُنصريّةٍ داخليّةٍ مُوجَّهة من مَذهبٍ تجاهَ الآخَرِ، وعُنصريّةٍ خارجيّةٍ مُوجَّهةٍ ضدَّ الآخَرِ غيرِ اليَهوديِّ، وقد أفرزَت تكتُّلات بشريّةً وآراءً مُختلفةً[2] داخلَ المُجتمع في إسرائيل، جعلَت منه مُجتمعًا يَعيش على الصرّاعِ المُجتمعيِّ والطَّبقيِّ[3]، والفِكريِّ والدِّينيِّ، علاوةً على السِّياسيِّ أيضًا.

١ - المصادر الدِّينية

هناكَ مَن يُرجعُ تَحريفَ اليهوديّةِ إلى سببٍ عُنصريٍّ، وهو أنَّ اليَهودَ حينَ رأوا أثناءَ السَّبي في بابل إدبارَ الدُّنيا عَنهم بزَوالِ مُلكِهم[4]، تفجَّرَت العُنصريّةُ عندهم، ومِن هنا رأوا أنْ يَحتفظوا بكيان مستقلٍّ إلى الأبد؛ حيثُ أسّسوا لجنةً من العلماء، ابتدأتْ تَحريفَ التَّوراةِ إبّانَ السَّبي البابليِّ، ونتيجةً لهذا التَّحريفِ المُتعمَّد، الذي انعكسَ على التُّراثِ الدِّينيِّ اليَهوديِّ؛ فقد اصطبغَت أكثرُ أسفارِ العَهدِ القَديمِ بصبغةٍ عُنصريّةٍ بَغيضة، بدَت في أغلبِ أسفاره، وبينَ نصوصه؛ حيثُ عبثَ الكَتَبةُ اليَهودُ بتَعاليمِ التَّوراةِ زيادةً وتَشويهًا في صفاتِ الإله - جلَّ وعَلا- وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، وسائرِ عقائدِ الدِّينِ؛ كلُّ ذلك ليَنحتوا دينًا يَعتمدُ على المَبادئِ العُنصريّة، التي تَرمي في النِّهايةِ إلى تمَجيدِ الجِنسِ اليَهوديِّ دونَ سِواهُ من الأجناس البَشريّةِ الأُخرى، وأحقِّيته في السَّيطرةِ على الأرض[5].

لا شكَّ أنَّ عقيدةَ «شعب الله المُختار» تُعدُّ من أهمِّ جذورِ العُنصريّةِ في الفِكرِ الدِّينيِّ اليَهوديِّ،

---

١ - للاستزادة حول التقسيمات المختلفة لـ«المجتمع في إسرائيل» يمكنك العودة للمرجع السابق، الصفحات نفسها.

٢ - موفق كامل خلف المحمدي: أمثولات العنصرية اليهودية وتجلياتها في الأدب العبري الحديث، ص٩٤٢.

٣ - أحمد صلاح البهنسي: المتصوفة اليهود بين العقيدة والجيش، المرجع السابق، ص.ص٣-١٠.

٤ - حسن الباش: العنصرية الصهيونية، الأنا والآخر والأسس العقيدية، ص٥٨.

٥ - حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، أطواره ومذاهبه، ص٢٦.

وقد امتدَّتْ إلى الفكرِ الصّهيونيِّ كذلك، وهي الفكرةُ التي تتلخَّصُ في اختيار بَني إسرائيلَ دونَ غيرِهم من بينِ الأُمَم والشُّعوب، وتُميِّزُهم عن سائرِ هذه الأُمم، وهذا أدَّى إلى تَغلغُلِ هذه الفكرة في أعماقِ النَّفسيّة اليَهوديّة، وباتَت جزءًا من العَقيدة اليَهوديّة؛ بحيثُ لم تَعُدْ تَقفُ عندَ حدِّ تَمجيد الذّات، بل تَتعدّاهُ إلى احتقار مَن عَداهُم من الشُّعوب، ووصلَت إلى حدِّ أنْ رأوا أنفسَهم أنَّهم روحُ اللهِ وعُنصرٌ من عُنصره، وأنَّهم كانوا من أبناء الله الأطهار[1].

من غير المبالغة القولُ إنَّ فكرة الشَّعبِ المُختار تُعدُّ المُرتكَزَ الأساسَ لولادة الاستعلاء والتَّعصُّب والعُنصريّة في الفكرِ الصّهيونيِّ المُعاصر؛ إذ تمكَّنَت الصّهيونيّةُ من تَحوير هذا المَفهوم واعتبار اليَهود شعبًا أزليًّا، وأنَّ بقيّةَ الشُّعوبِ גויים أو أغيارٌ، وهي كلمةٌ في أصلِها اللُّغويِّ والدِّينيِّ تَحملُ معانيَ عُنصريّةً حَقيرةً جدًّا، فهي تَعني القَذارةَ الماديّةَ والرُّوحيّةَ، وتُشير كذلك إلى الأغلَفِ غيرِ المُختَتِن، وكانوا يُطلقونَها على النَّصارى، في إشارة إلى بَدائيّتهم وقَذارتِهم وكُفرِهم في آنٍ واحد[2].

وكما تردَّدَت هذه الفكرةُ في التَّوارة تردَّدَت أيضًا في التلمود، وممّا جاءَ فيه عنها (والشَّعبُ المُختارُ فقط يَستحقُّ الحياةَ الأبديّةَ)، ويُقصَدُ بالشَّعبِ المُختارِ هنا بنو إسرائيلَ بطَبيعةِ الحال[3].

٢ - المصادر الفكريّة

يُمكن وصفُ المصادر الفكريّة للعُنصريّة اليَهوديّة بـ«المصادر الخارجيّة»، في حين يَنطبق وصفُ «المصادر الداخليّة» على المصادر الدِّينيّة اليَهوديّة، وقد وصفْنا المصادرَ الفكريّةَ بالخارجيّة؛ لأنَّها نتيجة تأثيرات خارجيّة تعرَّضَت لها الجماعاتُ اليهوديّة، لا سيَّما في أوروبا الشَّرقية التي عَرفت تناميًا كبيرًا للفكر القوميِّ والعُنصريِّ اليهوديِّ، ومن ثَمَّ الصّهيونيّ، في حين كانت المصادرُ الدِّينيّةُ داخليّة؛ لأنَّها من داخل المَصادر اليهوديّة الأساسيّة (العهد القديم، التلمود، الكتب الدِّينية اليهوديّة غير القانونيّة «الأبوكريفا»، المَرويّات الشَّفويّة الدِّينيّة اليهوديّة الأخرى).

ويَعزو البعضُ أهمَّ المَصادرِ الفكريّةِ للعُنصريّةِ اليهوديّةِ للفكرِ الألمانيِّ لا سيَّما النَّازيّ، الذي

١ - سعد الدين صالح: العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية، ص٢٨٥.
٢ - حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، أطواره ومذاهبه، ص٢٥.
٣ - أوغست روهلنج: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ص١٥٧.

غـذَّى النَّزعةَ العُنصريّـةَ في الفكرين اليهوديّ والصّهيونيِّ على حدٍّ سـواء؛ إذ يُقدِّسُ هذا الفكرُ العُنصريُّ الألمانيُّ فكرةَ روح الشَّعبِ وحقوقِه المُطلَقة، انطلاقًا من فلسفة «نيتشه» التي اجتذبَت كبارَ قادةِ الفكرِ الصّهيونيِّ. الأمر حَـدا بـ«آحاد هاعام» زعيمِ تيّارِ الصّهيونيّة الرُّوحية[1] إلى نشر مقالٍ بعنوان «إعادة تقويم القِيَم» لإعادةِ صياغةِ الفكرة النِّيتشوية الرئيسة، المعروفةِ بانقلاب القِيَمِ وإعطائها قالبًا يهوديًّا[2].

ورأى «هاعام» في مقاله أنَّه كي يَنبعثَ هذا العرقُ المُتفوِّقُ لا بدَّ له من مكان ثابت ومستقرٍّ، أي مَركزٍ رُوحيّ، حتى تُتاح له الفرصةُ ثانيةً لتطوير عَبقريّته وإبلاغِ رسالته كاملةً ومُوثَّقةً[3].

ومثلَما نادى الفكرُ الألمانيُّ، ولا سيَّما النَّازيُّ، بالشَّعبِ الآريِّ وتفوُّقِه على غيرِه من الشُّعوب، فإنَّ الصّهيونيّةَ نادَت بالشَّعب اليَهوديِّ وتفوُّقِه على غيره من الشُّعوب، وبالتالي تطوَّرَت فكرةُ أنَّ تاريخَ بَني إسرائيلَ الطَّويلَ، وتنقُّلَهم بينَ البُلدان، هو لأنَّهم أصحابُ دم نَقيٍّ، وأنَّهم شعبٌ مُميَّزٌ عن بقيّة الشُّعوب، مُنفصلٌ عن الجنس البشريِّ، ولا يَخضع للقِيَم الخَلَّاقة التي تَخضع لها سائرُ الشُّـعوب[4]. ومن ثَمَّ نَرى أن فكرةَ نقاءِ العِرقِ اليَهوديِّ تأتي متَّسقةً ومُتناسبةً مع فكرة شعب الله المُختار الدِّينيّة اليَهوديّة، اللَّتين تَسـبَّبتا في تَزكيةِ فكرِ الاسـتعلاءِ العنصريِّ اليَهوديِّ، ومَثَّلتا أهمَّ مصادره الدِّينية والفكريّة على حدٍّ سواء.

تَنحـصِرُ فكرةُ نقاءِ العُنصرِ أو العِرقِ اليَهوديِّ في أنَّ أفـرادَ جماعةٍ مُعيَّنة يَختلفونَ عن غيرِهم مـن أفرادِ الجَماعاتِ الأُخـرى، من حيثُ نقاؤُهم وراثيًّا؛ أي إنّ جميعَهـم لم يُواجِهُوا ما واجَهَه غيرُهم من تداخُلٍ بينَ السُّـلالاتِ المُختلفة[5]، وهي الفكرة التي تردَّدَت كذلك في فكرِ (مُوسى هس)، عالمِ الاجتماعِ اليَهوديِّ الألمانيِّ وأحدِ مُؤسِّسي الفِكرِ الصّهيونيِّ، والذي يُعدُّ أوَّلَ مَن قدَّمَ

---

١ - انقسمت الصهيونية في بداياتها إلى ثلاثة تيارات رئيسة، وهي «الصهيونية السياسية» بزعامة الصحفي النمساوي تيودورهرتزل، والتي ترى ضرورة قيام كيان سياسي لليهود، و«الصهيونية الروحية» بزعامة الأديب آحاد هاعام، والتي ترى بضرورة أن يكون لليهود مركزًا روحيًّا في فلسطين، وليس شرطًا أن يكون كيانًا سياسيًّا أو دولة، و«الصهيونة الدِّينية» بزعامة الحاخام موشيه ليلنبلوم، والتي ترى أن الصهيونية فكرة دينية بحتة.

- انظر: محمد خليفة حسن: الصهيونية طبيعتها وعلاقاتها بالتراث الديني اليهودي، ص.ص١٥-٢٥.

٢ - خالد القشطيني: الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية، ص٧٩.

٣ - هشام محمد أبو حاكمة: الأساطير المؤسِّسة للتاريخ الإسرائيلي القديم، ص٢٥٧.

٤ - ياسر علي خالد فراج: الاستعلاء العنصري في الفكر اليهودي، ص١٠١٥.

٥ - قدري حفني: الإسرائيليون من هم؟، ص١٧٩.

تَعريفًا لليَهود على أساسٍ عُنصريٍّ حينَ قال: إنَّ «العرقَ اليَهوديَّ من الأعراق الرَّئيسة في الجنس البَشري، وإنَّ هذا العِرقَ حافظَ عـلى وحدته مع التأثيرات المُناخيّة فيه، فحافظَت اليهوديّةُ على نقاوتها عبرَ العصور، كما رأى أنَّ هذا الاسـتقلالَ ليس مُزوَّدًا بقوة الإله، ولكنَّه اكتسـبَ صفاته وخُصوصيّتَه المُقدَّسـةَ، فهو شمسُ الشُّـعوب الذي أُنيطَت به مهمّةُ إنقاذ العالَم وإرشاد النّاس إلى الخير والسَّلام». فهو يَنتمي لعِرق يَسعى لإقامة مَملكة فوقَ هذه الأرضِ، مَملكةٍ ستَفوقُ كلَّ المَمالك، ويُصبحُ لمدينة أورشليم السِّيادةُ على العالم[١].

لم تغب كذلك هذه الفكرة عن ذهن (تيودور هرتزل - Theodor Herzl) زعيم الصّهيونيّة؛ إذ حاول بدوره تبني فكرة «هُوية عنصريّة جماعية لليهود» من خلال ترديده لعبارات العنصر اليهوديّ وارتقاء هذا العنصر ليؤكد معتقده حول الحتميه البيولوجية المتفوّقة في اليهود[٢].

من جانبه وصف العالم الصّهيونيّ (إغناتز زولتشان - Ignaz Zolchan) (١٨٧٧-١٩٤٨) اليهود خلال محاولته إثبات فكرة النَّقاء العرقي لهم بأنهم أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال الخُلقي الناجمة عن عدم النقاء[٣]. أما عالم الاجتماع الصّهيونيّ (آرثر روبين - Arthur Rubin) فقد قدم تعريفًا عرقيًا لليهود بيَّن فيه أنَّهم بالرغم من كونهم قد استوعبوا عناصر عرقية أجنبية بدرجة محدودة لكنهم في أكثرهم يمثلون جنسًا متميزًا على عكس ما هو سائدٌ في وسط أوروبا[٤].

ويَبدو أنَّ فكرةَ النَّقاء العِرقيِّ لليهود قد قادَت بدَورها إلى الإيمان بفكرة التَّفوُّق اليَهوديّ، الأمر الذي حَدا بالمُفكِّرينَ الصَّهاينة إلى تَصوير النّاس الذين هُم من أصلٍ يهوديٍّ بأنَّهم شعبٌ متفوِّقٌ يَمتلكُ مَزايا خُلُقيّة وذِهنيّةً ورُوحيّةً لا يُمكن أن تَصل إليها البشريّةُ[٥].

٣ - المصادر التاريخيّة

تُعدُّ ظاهرةُ الشَّـتات أو الدياسـبورا من أهمِّ الظّواهر التي أثَّرَت في العقلِ الجَمعيِّ اليهوديِّ، وقـادَت إلى ظهور كثيرٍ من المَفاهيم والأفكار، والسِّياسـات، إلى حدِّ ظهـورِ مصطلح «عَقليّة

١ - ياسرعلي خالد فراج: الاستعلاء العنصري في الفكر اليهودي، ص١٠٢٦.
٢ - عبير سهام مهدي: التعصب في الفكر الصهيوني، ص٧٩.
٣ - نقلا عن ياسرعلي خالد فراج: الاستعلاء العنصري في الفكر اليهودي، ص١٠٢٧.
٤ - ياسرعلي خالد فراج: الاستعلاء العنصري في الفكر اليهودي، ص١٠٢٧.
٥ - معتز سيد عبد الله: الاتجاهات التعصبية، ص.ص٢٤١-٢٤٢.

الشَّتات» في الأدبيّات اليَهوديّة[١]، وعلى مرِّ التاريخ اليهوديِّ، منذُ السَّبي البابليِّ إلى اليوم، كانَت ظاهرةُ الشَّتاتِ هي الظّاهرة الأبرَز في التاريخ اليَهوديّ، وبالتَّالي من غير المُبالغةِ القولُ إنَّ الظَّاهرةَ اليهوديّةَ هي ظاهرةُ شتات[٢].

ولا شـكَّ أنَّ ظاهرةَ العُنصريّةِ في الفكرين اليَهوديِّ والصّهيونيِّ قد تطوَّرَت مع مرور الأجيال والأحـداث التّاريخيّة المُختلفة بشـكل تدريجيٍّ، ومن وجهة نظرنا أنَّ عامل الشَّـتات أو ظاهرة الدياسـبورا كان له دورٌ كبير في ذلك. فنظرًا لأنَّ الجماعات اليهوديّة تعرَّضَت للسَّبي أو الشَّتات أكـثرَ من مرّةٍ على أيدي البابليِّينَ والآشـوريِّينَ والرُّومان، فقد تفرَّقُوا في كثـيرٍ من بلدان العالَم، وعاشـوا بينَ ظَهراني العَديد من الأُمم، سـواء الوثنيّة أو حتَّى الكتابيّة، علاوةً على عيشـهم في بلدان إسـلاميّة، إلا أنَّ إحساسَـهم بالتفوُّق العُنصريِّ نتيجةَ أفكار دينيّة، من أهمِّها فكرةُ شـعب الله المُختار، أدَّى بهم إلى النَّظر بشكلٍ استعلائيٍّ أو عُنصريٍّ للشُّعوب الأخرى، حتَّى تلك التي حَظُوا بحالة كبيرة من التَّسامُح في كَنَفِها.

نسـتدلُّ على ذلك من خلال عدّة مَظاهرَ، لعلَّ من أهمِّها حالةُ العَداء أو الاستعلاء الموجودة تجاهَ الآخَر في التّلمود، الذي كُتب في مراحلِ شـتات مُختلفة للجماعات اليَهوديّة، لا سيَّما في بابل وفلسطين، وتأثَّرَ بأفكار عنصريّة نتيجةَ ظاهرة الشَّتات، ومن أمثلتها ما وردَ في التلمود أنْ ليسَ للأغيار أيَّةُ حقوق قانونيّة، مثال ما وردَ في كتاب (العُقوبات، باب دار القضاء الأعلى سـنهدرين الفصل التاسع، التَّشريع الثاني)، والذي يتحدَّثُ عن عقوبة القِصاص في القَتلى، ويَستثني الأغيارَ من ذلـك !! بل لا يَذكر أيَّ عقوبة لليَهوديِّ الذي يَقتل غيرَ يَهـوديٍّ!! فيقول التَّشريع «إذا قصدَ يَهوديٌّ قتلَ أحد الأغيار، فقتلَ يَهوديًّا آخَر عن طريق الخَطأ، يُعفى من أيِّ عقوبة، وكأنَّه قتلَ أحدَ الأغيار!!» هذا التَّشريعُ العُنصريُّ يَنطوي على تَحريض بَيِّن على سفك دماء غيرِ اليَهود بدمٍ باردٍ، ودونَ الإحساس بأدنى ذنب، على الرَّغم من توفُّر القَصد الجنائيّ[٣].

كما أبـاح التّلمودُ صراحةً الغِـشَّ مع الأغيار في (الباب الأوسـط، الفصـل الرابع، التَّشريع التاسـع)، بل حدَّد لليَهوديِّ المِقدارَ المَسـموحَ به في غِشِّ الأغيار عندَ البَيع والشِّراء، وهو ثُلثُ

١ - فهد مطلق العتيبي: فلسفة الشتات في العقل الجمعي اليهودي، صحيفة الجزيرة، ٢١ يناير ٢٠٠٨.
٢ - مطلق العتيبي: فلسفة الشتات في العقل الجمعي اليهودي، صحيفة الجزيرة، ٢١ يناير ٢٠٠٨
٣ - كامل العجلوني: قبول الآخر في اليهودية «حقيقة أم سراب»، ص.ص٧٥-٧٦.

الشَّيءِ المَبيعِ، كما أباحَ في البابِ نفسِه التَّعامُلاتِ الرَّبويةَ معَ الأغيارِ، ونصَّ على تَحريمِها بينَ اليَهود[1].

وقد فسَّرَتِ اليَهوديّةُ الأرثوذكسيّةُ[2] هذه الظّاهرةَ التي نشأتْ نتيجةَ عواملَ تاريخيّةٍ بالأساسِ تَفسيراً عُنصريًّا بحتًا؛ فقد رأتْ أنَّها من علاماتِ اختيارِ الإلهِ لليَهود، أي إنّهم شُتّتوا لنَشرِ قِيَمِ التَّوحيدِ الإلهيّةِ بين الشُّعوب، وهو ما يَتناقضُ بالأساسِ معَ عدمِ وجودِ قِيَمٍ أو عُنصرِ التَّبشيرِ أو الدَّعوةِ في اليَهوديّة ورُؤيتِها بأنَّ اليَهودَ جماعةٌ مُختارةٌ، ولا تَهتمُّ بضمِّ عناصرَ جديدةٍ لها[3].

من وجهةِ نظرِنا أنَّ هذه الظّاهرةَ المُسيطرةَ على تاريخِ الجماعاتِ اليَهوديّةِ، والمُؤثِّرةَ في اليَهوديّةِ وتاريخِها، كانَت هي العاملَ التَّاريخيّ الأساسيّ للعُنصريّةِ اليَهوديّةِ، ومن بعدِها العُنصريّةِ الصّهيونيّة؛ ففي فترةِ السَّبي البابليِّ، التي امتدَّت من ٥٨٦ إلى ٥٣٨ قبلَ الميلاد، ظهرَتْ تقسيماتُ اليَهودِ للبشرِ إلى اليَهودِ وما عَداهم، واعتبرَ البعضُ أنَّ هذه الرُّؤيةَ أو الفلسفةَ اليَهوديّةَ تجاهَ الأُمم الأخرى بمَثابةِ نظرةٍ شَيئيّة، كأنَّ هذه الأُممَ جامدةٌ لا حسَّ لها ولا إرادة، ولا فَهم لها، فليسَ لها أدنى حظٍّ من كرامةٍ أو حقٍّ، وهذه النَّظرةُ أو الفلسفةُ الشَّيئيّةُ تَهدرُ حرمةَ الإنسانيّة، وأنَّها أحطُّ من نظرةِ الإنسانِ إلى الحيوانات؛ لأنَّ نظرتَنا إليها خُلُقيّة، أمّا نظرةُ اليهودِ لغَيرِهم فغَيرُ خُلُقيّة[4].

من جانبه، يَرى (مالكُ بنُ نبي) في كتابه عن «المسألة اليهوديّة» أنَّ الشَّتاتَ لعبَ دَورًا في عدّةِ أفكارٍ عُنصريّةٍ لدى اليَهود، دفعتْهم ووجَّهَتْهم لمَساراتٍ مَعيشيّةٍ وتاريخيّةٍ مُعيَّنة، ومنها توجُّهُهم للغَربِ ولأوروبا بدلاً من الشَّرق، الذي عانَوا فيه نحوَ ألفِ عامٍ من الشَّتات، نتيجةَ عدمِ تَخلُّصِهم من فكرة أنَّهم كانوا عبيدًا في العَصرَينِ الفرعونيِّ والآشوريِّ، فوَجدوا في أوروبا المَسيحيّةِ عَجينةً رخوةً يُمكنُهم العيشُ فيها، إلا أنَّهم حرصوا على إخفاءِ انتمائِهم وأفكارِهم الدِّينيةِ بسببِ الكراهيةِ الصّامتةِ والغَريزيةِ التي كانَت تُحيطُ بهم.

---

١ - كامل العجلوني: قبول الآخر في اليهودية «حقيقة أم سراب»، ص٧٦.

٢ - المذهب التقليدي الرسمي في اليهودية، الذي لا يُقدس العهد القديم فقط بل التلمود أيضًا مصدرًا للتشريع والفكر اليهودي.

٣ - أحمد البهنسي: القراؤون والإصلاحيون اليهود، ص٣٦.

٤ - محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، ص.ص٩١-٩٣.

كما لَفت «مالك بن نبي» إلى أنَّ أُولى مظاهرِ العُنصريّةِ اليَهوديّة في أوروبا كانَت عَيشُـهم في جيتوهات (جمع جيتو، وهو المجتمع الانعزالي اليهوديّ في أوروبا)، لكنّ هذا الجيتو تَحوَّلَ إلى عقـلِ أوروبا وروحِها بعدَ ألفَي عـامٍ من ذلك[1]. ما دفعَ «مالك بن نبي» إلى أن يَذهبَ لأبعدَ من ذلكَ بالقول إنَّ «الحضارةَ الغربيّةَ أنتجَت عُنصريّةً بفعلِ تَهوُّدِها، بعدَ أن تحوَّلَ الجيتو اليهوديُّ، وهـو نموذجٌ انعزاليٌّ عنصريٌّ ناتجٌ عن تطوُّراتٍ تاريخيّةٍ ونَفسـيّةٍ ونَزعاتٍ دينيّةٍ، إلى عقل الأمّةِ الأوروبيّةِ النّاشئة»[2].

أدَّى هذا الشَّتاتُ كذلك إلى أن يكون اليَهودُ دائمًا أقلِّيةً أو أقليّات في البلدان ووسطَ الشُّعوبِ التي يَعيشـون بين ظَهرانيها، وبالتالي ارتبطَ بذلك شـعورُهم الدّائمُ بالاضطهـادِ، وأنَّهم أقلِّيةٌ أو جماعةٌ مُطارَدةٌ ومُعرَّضةٌ لخَطرِ الاندثار، وهذا كوَّنَ لديهم ما يُمكنُ أن نُسمِّيَه بـ«عقدة الاضطهاد»، ورغم أنَّها نفسيّةٌ لكن جذورَها أو مسبِّباتها تاريخيّةٌ، ومن أهمِّها الشَّتات.

وقد وظَّفَ آباءُ الصّهيونيّةِ الأوائلِ هذه العُقدةَ النَّفسيّةَ لصالحِ تَرسيخِ الفكرِ العُنصريِّ في نفوسِ اليَهود؛ إذْ أجمعوا على أنَّ الاضطهادَ، لا سيَّما النَّازيّ، للجماعاتِ اليَهوديّة لا بدَّ أن يُقابَلَ بوجودِ وطنٍ يَحمي اليَهودَ، ويَجتمعونَ فيه من شـتاتِهم، وهذا الوطنُ لا يُمكنُ أن يقوم إلا بالاسـتعلاءِ عـلى الأغيارِ من اليَهود؛ فاليَهوديُّ يَعيشُ ولدَيه شـعورٌ بالاضطهاد، وتخيُّـلٍ بأنَّ ما يَحلُّ به من مشكلات في علاقته بالأُمم الأخرى إنَّما يَرجع إلى أنَّه يَهوديٌّ، وأنَّ الأشخاصَ الآخرينَ يَكرهونَه لهذا السَّبب، ويَسعَون دائمًا لإيذائه[3].

ثالثًا: المَظاهر والتجلِّيات

لم تكـنِ العُنصريّـةُ اليَهوديّةُ، التـي امتدَّت إلى الفكـر الصّهيونيِّ، ووظَّفَهـا لخدمة أغراضِه الاحتلاليّة والعُدوانيّة البَغيضة، مُجرَّدَ فكرةٍ أو أيديولوجيّةٍ حَبيسةٍ في الكُتب، وظهرَت على ألسنة المُفكِّرينَ اليهودِ والصَّهاينةِ وفي كتاباتِهم وحسب. بل كانَت لها عدّةُ تجلِّياتٍ ومَظاهرَ واضحةٍ تمَّتْ مُمارستُها في الواقع، ويُمكِنُ أن نَحصرَ أبرزَها في الآتي:

١ - بدران بن لحسن: المسألة اليهودية من منظور بن نبي، دراسة تحليلية، ص.ص١٢١-١٢٢.
٢ - بدران بن لحسن: المسألة اليهودية من منظور بن نبي، دراسة تحليلية، ص١٣٥.
٣ - ياسر علي خالد فراج: الاستعلاء العنصري في الفكر اليهودي، ص١٠٤٠.

١ - الاستعلاء

في ضوء ما جرى سردُه مُسبقًا من مصادر ومُسبّبات العُنصريّة في الفِكرَين اليَهوديِّ والصّهيونيِّ، فإنَّه لم يكنْ من الغريب أن يكون «الاستعلاء» هو المَظهر الرَّئيس من مظاهر العُنصريّة في الفِكرَين اليَهوديِّ والصّهيونيِّ، انطلاقًا من اعتقاد اليَهود الدِّينيِّ الرّاسخ أنَّهم «شعب الله المُختار» وأنَّهم شعبٌ مُتميِّزٌ عن بقيّة الشُّعوب، وله من الخصائص المُتفرِّدة الكثيرُ؛ لذا فهو يَحمل من القداسة والتميُّز ما يَجعلُه يَستعلي على بقيّة الشُّعوب[١]، وهو ما أكسبَهُم غُرورًا وغَطرسةً، رغمَ أنَّه سبقَهم إليها شعوبٌ وأممٌ أخرى مثل الرُّومان واليونان والفُرس[٢]، غير أنَّ اليهودَ جعلوا من هذا الاستعلاء والغُرور ومن هذه الغَطرسة عقيدةً ودِينًا، ونَسبوه إلى الاختيار الإلهيِّ لهم، واعتبروهُ حقيقةً مُقرَّرةً وغيرَ مَشروطة.

يَقودُنا ذلك إلى تَحليل مفهوم «القداسة» في الفكر الدِّينيِّ اليَهوديِّ تَحديدًا. فاليَهود يُطلِقونَ على أنفسهم עַם קָדוֹש أي «شعب مقدَّس»، كما يُطلِقونَ على لغتهم العبريّة השפה הקדושה أي «اللُّغة المقدَّسة». وبالنِّسبة لمصطلح «شعب مقدَّس» تحديدًا فقد تكرَّرَ في سفر واحد ثلاثَ مرّات، وهو سفر التَّثنية[٣]. وهو ما يُفسِّرُ جَليًّا ذلك الاستعلاءَ العنصريَّ على بقيَّة الشُّعوب والأُمم التي نُعِتَت في الفكر الدِّينيِّ اليَهوديِّ بـ«الأغيار»، وبناءً عليه أمرَهُمُ الرَّبُّ بالاحتفاظ بنَقاء العُنصر والعِرق، بأنْ جعلَ الهلاكَ مَصيرَ كلِّ مَن يُخالِفُ شَرعَه ويَتزوَّجُ من الشُّعوب الأخرى غيرِ اليَهوديّة.

٢ - الانعزاليّة

عُرف عن «الجماعات اليهوديّة» على مرِّ عصورها أنَّها عاشَت في مجتمعات انعزاليّة في الشَّرق والغَرب، وهي التجمُّعاتُ التي أخذَت تَسميات عدّةَ مُختلفةً، كان أشهرُها «الجيتَّو» في أوروبا، وكذا «المِلاّح» في المغرب، و«حارة اليهود» في مصر والشّام وغيرها[٤]، ورغمَ أنَّ هذه التجمُّعات اليهوديّةَ الانعزاليّةَ هي بالأساس نتيجةَ شتات اليَهود في شتَّى بقاع الأرض، غيرَ أنَّها وسمَتْهم بسِمة «الانعزالية»، ليسَت الدِّينية وحسب، بل «المُجتمعيّة» و«الاثنيّة» أيضًا، والتي

---

١ - محمد مدبولي عبد الرازق حسن: العنصرية في التعاليم الدينية اليهودية، دراسة تأصيلية، ص٢٤٩.

٢ - محمد مدبولي عبد الرازق حسن: العنصرية في التعاليم الدينية اليهودية، دراسة تأصيلية، ص٢٤٩.

3 - انظر، אברהם אבן שושן, שם ,ע' עַם קָדוֹש.

٤ - سناء عبد اللطيف حسين صبري: الجيتو اليهودي دراسة للأصول الفكرية والثقافية والنفسية للمجتمع الإسرائيلي، ص.ص٢٥-٤٥.

انطلقَت كذلك من أفكارٍ دينيّة يَهوديّة أهمُّها العُنصريّةُ والاستعلاءُ على غيرِ اليهودِ، وأدَّتْ إلى ميل اليهودِ أينَما حلُّوا للانعزالِ عن غيرِهم، والتكتُّلِ في تجمُّعاتٍ خاصّةٍ بهم.

وقد يقولُ بعضهم إنَّ هذه العُزلةَ كانَت إجباريّةً على اليَهودِ، ولم يَختارُوها بأنفسِهم، ورَدُّنا على ذلك أنَّه كانَت في حالاتٍ مُعيَّنة «إجبارية»، لا سيَّما في أوروبا المَسيحيّةِ، نظرًا لأسبابٍ دينيّة وتاريخيّة، تتمثَّلُ أبرزُها في العَداءِ بين النَّصرانيّةِ واليَهودِ، وكذا ظهور النَّازيّةِ والفكرِ القَوميِّ الأوروبيِّ في عقدَي الثَّلاثينيّاتِ والأربعينيّاتِ من القرن التّاسعَ عشر، وموقفه العَدائيّ من اليهودِ، واضطهادهم في معظمِ أنحاءِ أوروبا، غير أنَّها كانَت «اختيارية» في حالاتٍ أُخرى، ولا سيَّما في العالمَينِ العربيِّ والإسلاميِّ؛ فقد تمتَّعَ اليهودُ بكامل الحريّةِ، وعاشوا في ظلِّ تَسامُحٍ إسلاميٍّ في معظمِ الفتراتِ التّاريخية، اعترَفُوا بها في أدبيّاتِهم الفكريّةِ المُختلفةِ، لدرجةِ أنَّهم أطلَقوا على فترة وجودِهم في الأندلس تحتَ الحكمِ الإسلاميِّ بـתור הזהב العَصر الذهبيّ[1].

ولم تكنْ هذه الانعزاليّةُ اليَهوديّةُ نتاجَ تعاليمَ دينيّةٍ وحسب، بل كانَت لها، من وجهةِ نظرِنا، أسبابٌ اقتصاديّةٌ وسياسيّةٌ ومُجتمعيّةٌ أيضًا؛ فعلى سبيل المثال «الملّاح» اليهوديُّ في المَغربِ في بعضِ مُدُنه تكوَّنَ نتيجةَ أسبابٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ بَحتة، فمَثلًا في مدينة «الصويرة» جنوبيَّ المَغربِ كان يُطلَق عليه «ملّاح السَّلاطين»؛ نظرًا لأنَّ اليهودَ في المدينة كانوا يتولَّونَ شأنَ تجارةِ سَلاطينِ المَغربِ، لمَهارتهم في هذا الشَّأن، وتمكُّنهم من التَّفاهُمِ والاتِّجارِ مع أربابِ السُّفنِ التِّجاريّةِ الأوروبيّةِ وغيرِها، التي كانَت تَرسو على شَواطئِ هذه المَدينة[2].

في ضوءِ ما سبقَ، لم يكنْ غريبًا أنْ يكونَ الملّاحُ عادةً، في المَغربِ، قريبًا من قصورِ السَّلاطينِ أو المُلوكِ، ليس بسببِ اشتهارِهم بتَوليِّ شُؤونِ تجارةِ السَّلاطينِ وحسب، بل أيضًا لإحساسِهم الدّائمِ والمُصاحبِ لهم بالخَوفِ والتَّهديدِ، نتيجةَ تقلُّباتٍ اجتماعيّةٍ أو سياسيّةٍ أو أمنيّة، فكانوا لا يَجدُونَ مَأمنًا سوى في مجتمعٍ انعزاليٍّ قريبٍ من قصورِ السَّلاطينِ، الذين سيَحمونَهم؛ لأنَّهم يتولَّونَ أمورَ تجارتهم، أو اللُّجوء للتكتُّلِ في مجتمعٍ انعزاليٍّ له ترتيباتٌ واستعداداتٌ دفاعيّةٌ مُعيَّنة[3].

---

١ - للاستزادة يمكنك العودة لـ: عبد الرازق أحمد قنديل: أثر الشعر العربي في الشعر العبري الأندلسي.

٢ - أحمد البهنسي: «الملاح»، المجتمع اليهودي في المغرب، مقال منشور على موقع «إضاءات» بتاريخ ٨ يوليو ٢٠١٩ على الرابط https، //www.ida٢at.com/almallah-jewish-community-morocco/

٣ - على سبيل المثال: الملاح في مدينة تطوان شمال المغرب، توجد دائمًا به غرفة صغيرة تحت الأرض بها نافذة صغيرة تُستخدم للمراقبة في حال اقتراب أي عدو، أو تهديد من خارج الملاح، على اليهود.

كما لعبَ الحاخاماتُ وأثرياءُ اليَهود، لا سيَّما مَن اعتنقوا الفكرَ الصّهيونيَّ منهم، دورًا مُهمًّا في تكريس هذه العُزلة، وتعميق الشُّعور بالانتماء إلى عِرقٍ مُتميِّزٍ ومُتفوِّقٍ، وإعطاء ذلك صبغةً دينيّةً من خلال رَدِّ هذه الفكرة إلى تعاليمَ دينيّة تَوراتيّة وتلموديّة[١].

كما رأى بعضهم أنَّ الأساطيرَ التَّوارتيّةَ والتلموديّةَ، التي كُتبت في عصر السَّبي البابليِّ وما بعدَه، أسهمَت في تمسُّك اليهود بنظريّات الأفضليّة والعِرق المُتميِّز وغير ذلك من الأفكار العُنصريّة، التي حفَّزَت كراهيّةَ بقيّة الشُّعوب والأُمم ضدَّهُم، واضطهادَها لهم، ومحاولتَها التخلُّصَ منهم أو عَزلَهم في أحياءٍ خاصّةٍ بهم مثل الجيتو وحارات اليهود[٢]. فقد شدَّدَت التَّوراةُ في المُبالغة بعدم الاختلاط بغير اليَهود، وعدم الشَّفقة عليهم، وتحذير اليَهوديِّ ألا يَحذوَ حذوَ غير اليَهود، فجاء في سفر التثنية (٧: ١-٣) «١. مَتى أتى بكَ الربُّ إلهُكَ إلى الأرض التي أنتَ داخلٌ إليها لتَمتلكَها، وطردَ شعوبًا كثيرةً من أمامكَ: الحثِّيين والجرجاشيِّين والأموريِّين والكنعانيِّين والفرزيِّين والحوِّيين واليبوسيِّين، سبعَ شعوب أكثرَ وأعظَمَ منكَ، ٢. ودفعَهم الربُّ إلهُكَ أمامَك، وضربْتَهم، فإنَّكَ تَحرمُهم. لا تقطَعْ لهم عهدًا، ولا تُشفِقْ عليهم، ٣. ولا تُصاهِرْهُم. بِنتُكَ لا تُعطِ لابنه، وبِنتُه لا تأخُذْ لابنكَ».

في ضوء ذلك لم يكنْ غريبًا أن نجدَ أنَّ التَّعليمَ الدِّينيَّ اليَهوديَّ يُدرِّبُ على الاحتراز من الأغيار وعدم مُخالطتهم، وزَرعِ فكرة القَداسة والاختيار في العقل الباطن للدّارس أو الطّالب اليَهوديِّ[٣].

كما جاء في الموسوعة العبريّة العامّة عن مُسبّبات الانعزاليّة لدى الجماعات اليَهوديّة أنَّها بسبب واقعهم وطابعهم الذي دفعَهم للعيش في شارعٍ واحد، أو في حيٍّ واحد، للمُحافظة على شرائعهم الدِّينيّة ومَقابرِهم، والمُساعدة فيما بينَهم للمُضطهدينَ، لكونهم غُرباءَ ومَكروهينَ من قِبَلِ الشُّعوب التي يَعيشونَ بينَ ظَهرانيهم[٤].

وإذا انتقلْنا إلى هذا المَظهر العُنصريِّ في الفكر الصّهيونيِّ تحديدًا؛ فقد وظَّفَت الصّهيونيّةُ هذه

---

١ - محمد مدبولي عبد الرازق حسن: العنصرية في التعاليم الدينية اليهودية، دراسة تأصيلية، ص٢٥٧.

٢ - سناء عبد اللطيف حسين صبري، الجيتو اليهودي دراسة للأصول الفكرية والثقافية والنفسية للمجتمع الإسرائيلي، ص١٣٢.

٣ - علي خليل: اليهودية بين النظرية والتطبيق، مقتطفات من التلمود والتوراة، ص٤٦.

4 - האנציקלופדיה העברית, כללית, יהודית וארצישראלית, חברה להוצאת אנציקלופדיות בע»מ, ירושלים תשי»ד - תל- אביב. עמ› 585-586.

الأفكارَ الدِّينيّةَ والمُسبّباتِ الاجتماعيّةَ والسِّياسيّةَ سالفةَ الذِّكرِ لمَنعِ اندماجِ اليهودِ في أوساطِ الشُّعوبِ التي يَعيشون بين ظَهرانيها، وعَملوا على إقناعِ عمومِ اليهودِ بأنَّ أمانَهم الوحيدَ يَكمن في دولةٍ يَهوديّةٍ تَحميهم، في حين أنَّ بعضَ مُنظِّري الفلسفةِ الدِّينيّةِ الصّهيونيّةِ انطلقوا من فكرةِ أنَّ التَّوراةَ هي روحُ الأُمةِ اليَهوديّة، وأنَّ اليَهوديّةَ لا يُمكنُ أن تَزدهرَ إلا في دولةٍ يَهوديّةٍ؛ لذلك استندَ الفِكرُ الصّهيونيُّ إلى رُؤيةٍ أنَّ اليهودَ يؤلّفون كيانًا دينيًّا قوميًّا وعِرقيًّا غيرَ قابلٍ للاندماجِ أو الانصهارِ في الشُّعوبِ الأخرى[١].

إنَّ قيامَ إسرائيلَ على فكرةِ الاستيطانِ، التي تتمحورُ حولَ بناءِ بُؤَرٍ استيطانيّةٍ، مُحصَّنةٍ بتَحصيناتٍ دفاعيّةٍ، تَعزلُها عن مُحيطِها، جعلَ من إسرائيل «جيتو كبير مَعزول»، وهو ما لخَّصَه عالِمُ النَّفسِ الإسرائيليُّ (جورج تاماريـن - George Tamarin) بقوله: «إنَّ جَعْلَ إسرائيلَ قلعةً عسكريّةً حصينةً بالنِّسبة إلى جيرانها العرب قد أدَّى إلى عَزلها حضاريًّا وتَحويلِها إلى جيتو كبير، تَسودُه اتِّجاهاتٌ حضاريّةٌ انعزاليّةٌ ورَجعيّةٌ، وتَنمو فيه الأفكارُ العُنصريّةُ، وكانَت النَّتيجةُ قطعَ أواصرِ الاتِّصالِ بينَ الشَّبابِ الإسرائيليِّ والعالَمِ؛ ممّا ساعدَ على سيادةِ مشاعرَ مَرَضيّةٍ إزاءَ أيِّ نقدٍ يُوَجَّهُ إلى المُمارسةِ السِّياسيّةِ والاجتماعيّةِ في إسرائيل»[٢].

٣ - العُدوانيّة

نتجَ عن تمييزِ اليَهودِ لأنفسِهم عن بقيّةِ الشُّعوبِ والأُممِ رُوحٌ عدوانيّةٌ يَهوديّةٌ تجاهَهُم؛ بدَعوى أنَّها أوامرُ يَهوديّةٌ وتعاليمُ دِينيّةٌ صَوَّرتها التَّوراةُ على أنَّها بطولاتٌ قامَ بها قادةُ اليَهودِ بأوامرَ من الربِّ؛ فعَلى سبيلِ المثالِ في سفرِ التكوين تُوجد هذه الصُّورُ الفِكريّةُ التي تَعكس هذه الرُّوحَ العُدوانيّةَ، ومن أبرزِها اعتداءُ أبناءِ «يعقوب التَّوراتي[٣]» على سُكّانِ مَنطقةِ شكيم (نابلس حاليًّا)، التي كانوا يَسكنونَ فيها، ويَحظَونَ بكلِّ احترامٍ وتقديرٍ من أهلِ المنطقةِ المُحِبّةِ ليَعقوبَ وأولادِه[٤].

---

١ - محمد خليفة حسن: الصهيونية طبيعتها وعلاقاتها بالتراث الديني اليهودي، ص.ص١٠٢-١٠٣.

٢ - أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي: العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، ص١٦١.

٣ - فضَّلنا استخدام مصطلح «يعقوب التوراتي» نظرًا لأن صورته – عليه السلام- وطبيعة شخصيته في التوراة مختلفة تمامًا عنها في القرآن الكريم، وذلك لاختلاف مفهوم وطبيعة النبوة بين اليهودية والإسلام، وللمزيد حول هذا الموضوع يمكنك العودة لـ: محمد خليفة حسن: ظاهرة النبوة الإسرائيلية، طبيعتها تاريخها.

٤ - انظر سفر التكوين ٣٤، ٨-١٠، ١٢-١٦، ٢٤-٢٩.

أمّا في سـفر (حزقيال) فنَجدُ الأمرَ بمُمارسـة العُنف وعَدم الشَّـفقة، فقد صدرَ الأمرُ الإلهيُّ بالتأديب لغير اليَهود، والنَّهي عن الشَّفقة، لا فرقَ بينَ الشّابِّ والشَّيخ والأطفال والنِّساء، (حزقيال: ٩: ٥-٧) «٥ وقال لأولئكَ في سَـمعي: اعبرُوا في المَدينة وراءَه واضْربُوا. لا تُشـفِقْ أعينُكُم ولا تَعفو. ٦ الشَّـيخُ والشَّـابُّ والعَذراءُ والطِّفلُ والنِّسـاءُ، اقْتُلوا للهَلاك. ولا تَقربوا من إنسان عليه السِّـمةُ، وابتدئُوا من مُقدَّسي. فابتدَؤوا بالرِّجال الشُّـيوخ الذينَ أمامَ البَيت. ٧ وقالَ لهم: نجِّسُوا البيتَ، واملؤُوا الدُّورَ قَتلى. اخرُجوا. فخَرجُوا وقَتلوا في المَدينة».

وكذا الأمرُ في سـفر التَّثنية؛ حيثُ يَردُ الأمرُ بإبادة أُمم وشُـعوب كاملة، والأمرُ بضرب جميع الذُّكور بحدِّ السَّـيف، وسَبي الأطفال والنِّسـاء، بدَعوى أنَّ هذا أمرٌ إلهيٌّ (سفر التثنية ٢٠: ١٠-١٧) «١٠ حينَ تَقْرُبُ منْ مَدينة لكيْ تُحاربَها اسْتَدْعها إلىَ الصُّلْح، ١١ فإنْ أجابَتْكَ إلى الصُّلْح وفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْب المَوْجُود فيها يَكُونُ لَكَ للتَّسْخير ويُستَعبَدُ لَكَ. ١٢ وإنْ لَمْ تُسالمْكَ، بَلْ عَملَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فحاصِرْها. ١٣ وإذا دَفَعَها الرَّبُّ إلهُكَ إلى يَدكَ فاضْربْ جَميعَ ذُكُورها بحَدِّ السَّـيف. ١٤ وأمّا النِّسـاءُ والأطفالُ والبَهائمُ وكُلُّ ما في المَدينة، كُلُّ غَنيمَتها، فتَغْتَنمُها لنَفْسكَ، وتَأكُلُ غَنيمـةَ أعدائكَ الَّتي أعطاكَ الرَّبُّ إلهُكَ. ١٥ هكَذا تَفْعَلُ بجَميع المُدُن البَعيدة منكَ جدًّا الَّتي لَيسَـتْ من مُدُن هؤُلاء الأُمم هُنا. ١٦ وأمّا مُدُنُ هؤُلاء الشُّـعُوب الَّتـي يُعْطيكَ الرَّبُّ إلهُكَ نَصيبًا فلا تَسْتَبْق منْها نَسَمةً ما، ١٧ بَلْ تُحَرِّمُها تَحْريمًا: الحِثِّيِّينَ والأمُوريِّينَ والكَنعانيِّينَ والفرِزِّيِّينَ والحِوِّيِّينَ واليَبُوسيِّينَ، كَما أمركَ الرَّبُّ إلهُكَ».

امتدَّ الأمـرُ فيما يتعلَّقُ بالعُدوانيّة على الآخَر غير اليَهـوديِّ إلى الاعتداء على أرضه والزَّعم بملكيّتها اسـتنادًا إلى تعاليم التَّوراة التي وردَ فيها أنَّ الربَّ قطعَ عهدًا لإبراهيمَ التَّوراتيَّ بملكيّة أرض كنعـان، وأنَّ هذا العَهدَ له ولنَسـله مـن بعده ملكًا أبديًّا (التكويـن ١٧: ٧-٨) «٧ وأُقيمُ عَهْدي بَيْني وبَينَكَ، وبَينَ نَسـلكَ من بَعدكَ في أجيالهم، عَهدًا أبَديًّا، لأكُونَ إلهًا لَكَ ولنَسلكَ من بَعدكَ. ٨ وأُعطي لَكَ ولنَسلكَ من بَعدكَ أرضَ غُربتكَ، كُلَّ أرضِ كَنعانَ مُلْكًا أبَديًّا. وأكُونُ إلهَهُم».

إنَّ مثلَ هـذه الفقرات التَّوراتيّة وغيرها وظَّفَتْها الصّهيونيّةُ والجماعـاتُ اليهوديّةُ، التي تَعتنقُ الفكرَ القوميَّ، مُبرِّرًا لطَرد الفلسطينيِّينَ من أراضيهم، والاستيلاء عليها واستيطانها، ومنها انطلقَت المَقولةُ الصّهيونيّةُ الشَّـهيرةُ عن أرض فلطسينَ والدَّعوة لاستيطانها «أرضٌ بلا شعبٍ لشَعبٍ بلا

أرضٍ»[1]. ومن وُجهة نظري إنَّ هذه المَقولةَ الصّهيونيّةَ ذاتَ الخَلفيّةِ الدِّينيّةِ اليَهوديّةِ هي التجليِّ العُنصريُّ الأبرزُ والأكثرُ عدوانيّةً تجاهَ الآخَر وأرضِه.

الخاتمة والنَّتائج

استعرضَتْ هذه الدِّراسةُ «العُنصريّة في الفِكرَين اليَهوديِّ والصّهيونيِّ»، وناقشَت تَعريفاتِ العُنصريّةِ ومَدلولاتِها المُختلفةَ، لا سيَّما في اليهوديّة والصّهيونيّة، وكذا سماتها وتجلِّياتها. وقد خلصَتْ إلى عدّة نتائجَ يمُكن حصرُ أبرزِها في الآتي:

- ارتباطُ مفهومِ العُنصريّة في اليَهوديّة بعَقيدة تَستندُ إلى فلسفة مُناقضة للدِّين والعلم عن أفضليّة العُنصر اليَهوديِّ على سِواهُ من البَشر، ونظرًا لأنَّها مُستوحاةٌ من الدِّين اليَهوديِّ بشكلٍ أساس فقد قال البعضُ إنَّ «الدِّينَ اليهوديَّ هو عصبُ العُنصريّة اليَهوديّة».
- ظهورُ الحركة الصّهيونيّة كانَ نتيجةَ هذه العُنصريّة اليَهوديّة، لاستنادِها إلى ديباجاتٍ وأفكارٍ دينيّة عُنصريّة تَمييزيّة يَهوديّة، كان من أبرزِها فكرةُ «شعب الله المُختار»، التي مثَّلَت فكرةً رئيسةً ومَركزيّةً في الفِكرِ الدِّينيِّ اليهوديِّ.
- مثَّلَت المَصادرُ الدِّينيةُ اليَهوديّةُ المنبعَ الرَّئيسَ للعُنصريّة في اليَهوديّة؛ ومن ثَمَّ في الفكرِ الصّهيونيِّ الذي وَظَّفَ أفكارًا عُنصريّةً يَهوديّةً لتأصيلِ فكرةِ العَداءِ ضدَّ الأغيارِ، وحَثِّ الجماعاتِ اليهوديّة على البحث عن موطنٍ يَجتمعونَ فيه ليَحميَهم.
- نظرًا لظهور الصهيونية في شرق أوروبا بالأساس؛ فقد تأثَّرَت بأفكار قوميّة عُنصريّة أوروبيّة، لا سيَّما الفكر النَّازيّ، الذي يُقدِّسُ العُنصرَ الألمانيَّ، فأخذَ آباءُ الصّهيونيّة هذه الفكرةَ وطوَّروها بشكل يَحثُّ جموعَ اليهود على الاقتناع بفكرة أنَّهم شعبٌ مُتميِّزٌ، وله روحٌ مُتفرِّدةٌ، ويجبُ أن يَجتمع في وطنٍ رُوحيٍّ يَحفظُ نَقاءَهُ العِرقيَّ وتَميُّزَه الدِّينيَّ.
- كانَت ظاهرةُ الشَّتاتِ أو الدياسبورا، التي سيطرَت على التاريخ اليهوديِّ العامِّ، المُسبِّبَ

١ - حول هذه المقولة وما يتعلق بها يمكنك العودة لـ، "الحقيقة الفلسطينية الضائعة (٢) أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". palinfo.com. ٢٧ ديسمبر ٢٠٢٠. مؤرشف من الأصل في ٢٣-١١-٢٠٢٣. اطلع عليه بتاريخ ٢٣-١١-٢٠٢٣.

التاريخـيَّ الرَّئيسَ في تفاقُـم الفِكرِ العُنصريِّ لدى الجماعاتِ اليهوديّة، بسـبب أنَّها جعلَتْهم أقلِّيات في بلداتٍ وجماعاتٍ مُختلفةٍ، بوجهٍ زادَ لدَيهم من الإحساسِ بالتميُّزِ العُنصريِّ تجاهَ غيرِ اليهودِ والاستعلاء عليهم.

- كان الاسـتعلاءُ هو المَظهرُ الرَّئيسُ من مظاهر العُنصريّة اليَهوديّة؛ لاعتقادِهم الرّاسخِ بأنَّهم شـعبُ الله المُختار، يَحملُ من القداسـةِ والتميُّزِ ما يَجعلُه يَسـتعلي على بقيّةِ الشُّعوبِ، ويُمارِسُ عليهم الغُرورَ والغَطرسة.
- تسـبَّبَت العُنصريّة في عزلة الجَماعاتِ اليَهوديّة، سـواء بصـورة اختياريّة أم إجباريّة، والتي كانَت نتاجَ تعاليمَ دينيّةٍ يَهوديّة، ووَظَّفَها الفكرُ الصّهيونيُّ لمنع اندماجِ اليهودِ في المُجتمعاتِ التي يَعيشون فيها، وبالتالي التَّمهيد لنَقلِهم أو تَهجيرِهم لأرض فلسطينَ واحتلالها.
- كان من الطَّبيعيِّ أن تكونَ العُدوانيّةُ سـمةً رئيسةً من سمات العُنصريّة اليَهوديّة، فهي ذاتُ مُنطلقـاتٍ دينيّة يَهوديّـة، وامتدَّتْ للفكرِ الصّهيونيِّ، الـذي تمَركَزَ حولَ مُعاداةِ الآخَرِ، والاستيلاءِ على أرضِه ووَطنِه، والتَّنكيلِ به بشَتَّى الوجوه والطُّرق.

المصادر والمراجع

أولاً: العربية

المصادر:

- المعجم الوجيـز، إعداد مجمع اللغـة العربية، طبعة المركز العـربي للثقافة والعلوم والطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.
- المراجع
- أحمد البهنسي، القراؤون والإصلاحيون اليهود، مركز نماء، بيروت، ٢٠١٩.
- أحمـد بن عبد الله بـن إبراهيـم الزغيبي، العنصريّـة اليهوديّة وآثارهـا في المجتمع الإسلامي، مطبعة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨.
- أحمد صلاح البهنسي، المتصوفة اليهود بين العقيدة والجيش، مركز اللغات الشرقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨.
- أوغسـت روهلنج، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة/ يوسف حنا نصر الله، بيروت، الطبعة الأولى، بدون ناشر، ١٩٦٨.
- حسـن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، أطواره ومذاهبه، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٧٠.
- خالد القشطيني، الجذور التاريخية للعنصريّة الصّهيونيّة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١.
- سـعد الدين صالح، العقيدة اليهوديّـة وخطرها على الإنسـانية، دار الصفا، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٠.
- سناء عبد اللطيف حسـين صبري، الجيتو اليهوديّ دراسة للأصول الفكرية والثقافية والنفسية للمجتمع الإسرائيلي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩.
- عبـد الـرازق أحمد قنديـل، أثر الشـعر العربي في الشـعر العـبري الأندلسي، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ٢٠٠١.
- عبير سهام مهدي، التعصب في الفكر الصّهيونيّ، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٢.

- علي خليل، اليهوديّة بين النظرية والتطبيق، مقتطفات من التلمود والتوراة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٧.
- قدري حفني، الإسرائيليون من هم؟ سلسلة دراسات نفسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٣.
- كامل العجلوني، قبول الآخر في اليهوديّة «حقيقة أم سراب»، وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠١٠.
- محمد خليفة التونسي، الخطر اليهوديّ، بروتوكولات حكماء صهيون، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.
- محمد خليفة حسن، الصّهيونيّة طبيعتها وعلاقاتها بالتراث الديني اليهوديّ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٢.
- محمد خليفة حسن، ظاهرة النبوة الإسرائيلية، طبيعتها تاريخها، الموقف الإسلامي منها، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٩١.
- معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٩.
- هشام محمد أبو حاكمة، الأساطير المؤسسة للتاريخ الإسرائيلي القديم، دار الجليل للنشر والأبحاث الفلسطينية، القدس، ٢٠٠٧.

الدوريات والمجلات

- بدران بن لحسن، المسألة اليهوديّة من منظور بن نبي: دراسة تحليلية، مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قطر، مجلة رؤية تركية، شتاء ٢٠٢٤.
- حسن الباش: العنصريّة الصّهيونيّة: الأنا والآخر والأسس العقيدية، مجلة المسار، اتحاد الكتاب التونسيين، العدد ٥٣، أكتوبر ٢٠٠١.
- فهد مطلق العتيبي، فلسفة الشتات في العقل الجمعي اليهوديّ، صحيفة الجزيرة، ٢١ يناير ٢٠٠٨.
- محمد مدبولي عبد الرازق حسن، العنصريّة في التعاليم الدينية اليهوديّة، دراسة

تأصيليــة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنســانية، جامعة الأزهر، العدد ٤٢، الجزء ٣، ٢٠٢٢.

- موفق كامل خلف المحمدي، أمثولات العنصريّة اليهوديّة وتجلياتها في الأدب العبري الحديث، «لارك» للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، الجزء الأول، العدد ٣٢، ٢٠١٨/١١/٢٨.
- نصير كريــم كاظم: العنصريّــة اليهوديّة: قــراءة تحليلية في الأســس الفكرية، مجلة الأطروحة- الدراســات الدينية وعلوم القــرآن، دار الأطروحة للنشر العلمي، المجلد الثالث، العدد السادس، أكتوبر ٢٠٠٦.
- ياسر علي خالد فراج، الاستعلاء العنصري في الفكر اليهوديّ، عرض ومناقشة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية للبنين بأسوان، العدد الرابع، يونيو ٢٠٢١.

المواقع الالكترونية

- أحمــد البهنسي، «الملاح»، المجتمع اليهوديّ في المغرب، مقال منشــور على موقع «إضــاءات» بتاريــخ ٨ يوليــو ٢٠١٩ عــلى الرابــط https://www.ida2at.com/almallah-jewish-community-morocco/
- دينــا مصطفى، ما هــي العنصريّة، موقع «موضوع» بتاريــخ ٢٠٢٣/٨/٩ على الرابط https://mawdoo3.com/%D98A_%D8%87%D9%85%D8%A7_%D9%8A%D8%A9%86%D8%B5%D8%B1%D9%84%D8%B9%D9%%A7%D9
- «الحقيقة الفلسطينية الضائعة (٢) أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». palinfo.com. ٢٧ ديســمبر ٢٠٢٠. مؤرشــف من الأصل في ٢٠٢٣-١١-٢٣. اطلــع عليه بتاريخ ٢٠٢٣-١١-٢٣.

ثانيا: المراجع العبرية

- אברהם אבן שושן,: המלון החדש, בשבעה כרכים, הוצאת קרית-ספר, ירושלים, ע' גִזְעָנוּת , 3891.

- דוד שגיב,: מילון עברי– ערבי לשפה העברית בת זמננו, כרך ראשון, מהדורה שלישית, הוצאת שוקן ירושלים ותל–אביב, נדפס בישראל, תשנ"א. ע' גְּזָעָנוּת.
- האנציקלופדיה העברית, כללית, יהודית וארצישראלית, חברה להוצאת אנציקלופדיות בע"מ, ירושלים - תשי"ד - תל- אביב.

جذور العُنصريّة في الثقافة الغربية
قراءة تحليليّة نقديّة في نَمذجة تاريخ الفِكر الغربيّ

نزهة بوعزة[1]

ملخّص

يرتبـطُ الحضورُ الثقافيُّ الغربيُّ بالتَّفـوُّق والنَّمذجة الكونيّة، التـي تُصنِّفُه بوصفه عتبةً تاريخيّةً تتجاوزُ جلَّ الحضاراتِ السّـابقة، هذا الحضورُ غطَّى على إمكانيّة تَحقيق تَثاقُف بـين ثقافاتٍ مختلفة، قد تَحوز المرتبة التصنيفيّة نفسـها في المَسـار التاريخيِّ، الذي يتمُّ تأطـيرُ النَّموذجِ الغربيِّ وَفقه، ممّا أكسـبَ المَركزيّـةَ الغربيّةَ رداءَ العُنصريّـةِ الثَّقافيّة، التي تسـتمدُّ جذورَهـا من الاعتقادِ بالتَّفـوُّق النّاتجِ عن الطّابـعِ الأوروبيِّ والعَقيدةِ المَسـيحيّةِ والسَّلَف الإغريقيِّ.

هـذا التصوُّرُ العُنصريُّ، الذي يُؤسِّـسُ لبنيـةِ الثَّقافة الغربيّة، يتغـذَّى على الأيديولوجيا الأوربيّة، التي تكشَّـفَت خلالَ النَّهضة، وما زالَـت مُمتدّةً إلى يَومنا، والتي تَنحو إلى إبداعِ سَرديّةٍ غَربيّةٍ تَنتعش على الاستمراريّةِ والامتدادِ التّاريخيِّ، وتَقطعُ الصِّلةَ بالتأثيراتِ الثَّقافيّةِ الأخـرى. وبالتالي نُصبـحُ أمامَ طرفٍ مُعاكسٍ لهـذا الغَربِ، وهو الـشَّرقُ، كلُّ هذا أوجدَ وحدانيّـةً ثقافيّةً تتغذَّى بالعنصريّة وإقصـاء المُختلفِ بدَعوى التَّخلُّـف، وهو ما يُعاكسُ جوهرَ الكونيّةِ ذاتَه، الذي يَقوم على مبدأ قَبولِ الاختلافِ، الذي تمَّ طمسُه لصالحِ أن يكون الكلُّ مُحدَّثًا بوجهٍ غربيّ.

الكلمات المفتاحية: العُنصريّة الثَّقافية، التَّمركُز الغربيُّ، التقدُّم، أيديولوجيا.

1 - نزهة بوعزة، أستاذة فسلفة بأكاديمية الشرق/المغرب.

مُقدّمة

تَنطوي كلُّ ثقافة على درجة مُعيَّنة من درجات التَّمركُز على الذّات، ممّا يَعمل على خلق تَراتُبيّة تَنطلقُ من الذّات باتّجاه الآخَر، ورغم ذلك قد يظلُّ هذا التَّمركُزُ في إطار المَقبول، « إذ إنَّ التَّمركُزَ في الثَّقافات يَرتبطُ دائمًا بفترات التَّفوُّق الحضاريِّ، التي تُقدِّمُ لحاملي هذه الثَّقافات إحساسًا بالتميُّز والاختلاف والتَّعالي على بقيّة الأُمم، باعتبارها المُؤهَّلة تاريخيًّا وإنسانيًّا لبناء حضارة».[1]

إذًا قد يكونُ التَّمركُزُ الثَّقافيُّ مسألةً مُسلَّمًا بها، غير أنَّها قد تكون أيضًا مطيّةً لبلورة توجُّه عنصريٍّ مُحرِّكُه وَهْمُ التَّفوُّق الثَّقافيِّ. هذه العُنصريّةُ الثَّقافيّةُ التي تتغذَّى بالأساس على هذه المَركزيّة، فتَصيرُ هي المِنظارَ المُشكِّلَ لرُؤيتها، وقد تكون هذه الرُّؤيةُ المُتمركزةُ على التَّفوُّق الثَّقافيِّ الغربيِّ نَموذجًا لتوضيح هذه العلاقة ما بينَ الرُّؤية الذّاتيّة والعُنصريّة، ومن ثمَّةَ «يَنتمي التمركُزُ الأوروبيُّ إلى مجموعة الرُّؤى الثَّقافويّة الطّابع، إذ إنّه يَقوم على افتراض تواجُد مَسالك تَطوُّر خاصّة لمُختلف الشُّعوب لا يُمكنُ إرجاعُها إلى فعل قوانينَ عامّة تَنطبقُ على الجميع. فله، إذًا، طابعُ مَذهب مُضادٍّ للعالميّة».[2]

يَبدو أنَّ مفهومَ العُنصريّة قد وَجد شرعيّةً جديدةً تحت اصطلاح العُنصريّة الثَّقافيّة، الأمرُ الذي سمحَ بقبول الفكرة التي مَفادُها أنَّ إظهار العَداء تجاهَ الجَمع الثَّقافيِّ الخارجيِّ (الآخَرين) أمرٌ مقبولٌ ومَعقول[3]، وهي مَعقوليّةٌ مُؤسَّسةٌ على رُؤية فوقيّة تَقومُ على إعلاء هويّة مُعيَّنة وَفقَ تَصنيف حدِّيٍّ يُموضعُ الأنا في مُقابل الآخَر.

بالتالي يَصيرُ هذا التَّصنيفُ إشكالاً عندَما يتحوَّلُ إلى رؤية شُموليّة تَحكمُ مُجملَ التَّوجُّهات

١ - عبد الحق بلقيدوم: الذات والآخر من خلال المركزيات الثقافية، ص٣٧.

٢ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، نقد التمركز الأوروبي والتمركز الأوروبي المعكوس، ص٧٥.

3 - Anne Claire Orban: peut-on encore parler de racisme, P4.

الخاصّــة بتَوجيه وقيادة العالَم، بدَعوى اصطفاء وُجوديٍّ، ممّا يَخلق نوعًا من التشــوُّه الثَّقافويِّ الذي يَخلقُ تراتُبيّةً ثقافيّةً على أســاسٍ عُنصريٍّ يُناقضُ جَوهرَ المُقارَبة الحَضاريّة، ومن هنا «في اطار تأسيسه لذاته كمحور للعالَم، وكمعيار لتَطوُّره ومَركزيّته، يُنكرُ الغَربُ مَفهومَ النِّسبيّة الثَّقافية التــي تُفضي إلى ضرورة احترام الفَوارق الثَّقافية السّــائدة بينَ الشُّــعوب والأُمم، وهذا ما يُعرَفُ بمَفهوم المُثاقفة في إطار حدود الهَيمنة».[1]

ففي محاولة بســيطة لرصد التّاريخ الثَّقافيِّ الإنســانيِّ يَتبيَّنُ أنَّ ما حقَّقَه الغربُ، قد جاءَ وَفقَ عمليّة التَّثاقُــف بينَ مختلف المَعارف المُســتمدّة من الحضارات الأخــرى، وخاصّةً الحضارة الهيليلنيّة والصِّينيّة والشَّرقية والإسلاميّة، لكنَّه يَنسج حجابًا وَهميًّا يُخفي عمليّةَ التَّثاقُفُ هذه.

وهو ما أثارَه لــ(برنارد مارتن - Martin Bernard)، مُشــيرًا إلى أنَّ النِّظامَ السِّــياسيَّ والعِلميَّ والفلسفيَّ والدِّينيَّ في اليونان القَديمة لم يكنْ بأيِّ معنًى أصليًّا نقيًّا عن باقي الحضارات، ولكنَّه نشــأ عن تَفاعُله مع الحضارة الفينيقيّة في الشَّرق الأدنى من آســيا، وخاصّــةً الحضارة المصريّة القَديمة، ونفسُ الأمر ينطبقُ على الفلســفة الوَســيطيّة الغربيّة، التي بُنيت على أســاس الفلسفة الإسلاميّة والعربيّة، وعلى أساسها شكَّلَت تَنويرَها.

أولًا: التَّأصيلُ التّاريخيُّ للعُنصريّة الثَّقافيّة في الغرب

إنَّ العُنصريّةَ الثَّقافيّــةَ، ويُطلَقُ عليها أيضًا العُنصريّةُ ما بعدَ الحَديثة أو التَّفاضُليّةُ، وتَعني بناءَ التَّصنيف الثَّقافيِّ على أســاس التَّفاضُل الثَّقافيِّ، لقد تتطوّر هذا المَفهوم خلال ثمانينيّات القرن العشرين على يدِ مَجموعة من الباحثينَ، على رأســهم (مارتن باركر - Martin Barker) و(إتيان باليبــار - Etienne Balibar)، حيث بدأتْ تظهرُ بــوادرُ ودعواتٌ تحملُ توجُّهاتٍ عُنصريّةً تجاهَ المُهاجرينَ والمُختلفينَ ثقافيًّا.

وهذه العُنصريّةُ، التي فتحَت إشكاليّةً أكبرَ، تتغذَّى بالعنصريّة تجاهَ الثَّقافات الأخرى، بدَعوى دُونيّتهــا، ممّا منحَها دورًا إقصائيًّا، فقــد «مارسَ الغَربُ إقصاءً مُنقطعَ النَّظير على كلِّ ما هو ليس غَربيًّا، دافعًا به إلى خارج الفَلكِ التّاريخيِّ، الذي أصبحَ الغربُ مركزَه، وأباحَ لنفسه حقَّ استغلاله

١ - بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجًا، ص٨١.

والسَّيطرةِ عليه».[1] وقد يكون الفضلُ لإثارة هذا التوجُّه العُنصريِّ في السِّياق العربيِّ يَعودُ لـ(إدوارد سعيد)، إثر نشره لكتابه «الاستشراق» عام ١٩٧٨م، مُسلِّطًا الضَّوءَ على المَأسسةِ العُنصريّةِ التي حدَّدَت الخطاباتِ الغَربيّةَ.

إنَّ الحديثَ عن التأصيلِ التّاريخيِّ لمَفهومِ العُنصريّةِ الثَّقافيّةِ الغَربيّةِ هو حديثٌ عن الجذور الأولى، وقد يكون مُفيدًا هنا التَّمييزُ ما بينَ التأصيل التّاريخيِّ لمَفهومِ العُنصريّةِ الثَّقافيّةِ والتَّجذيرِ الفلسفيِّ لمأسسة هذا المَفهومِ وَفقَ الرُّؤيةِ الاستعلائيّةِ الغَربيّة، فالمَنحى الأوَّلُ رافقَ المَسارَ التّاريخيَّ منذُ تَحالُفِ الكنيسة مع الإمبراطويّةِ الرُّومانيّة، أمّا المَنحى الثاني فقد ارتبطَ بالوعي الحَداثيِّ الذي تَرجَمَهُ مَفهومُ التقدُّم، فتَحالُفُ كلٍّ من التأطير السِّياسيِّ والاقتصاديِّ والوَعي التقدُّميِّ مَنحَ هذه الهويّةَ مِشعلَ رفعِ الكونيّةِ على باقي الحضاراتِ، لترَفعَ الثَّقافةَ الغربيّةَ في المَصافِّ المُوجِّه للتّاريخِ الإنسانيِّ.

لهذا يُمكنُ القولُ إنَّ عمليةَ التأصيلِ للعُنصريةِ الثَّقافيّةِ الغربيّةِ ارتبطَت بالبدايةِ بالسُّموِّ التأمُّليِّ للفكرِ اليُونانيِّ، ثم تعاظَمَ مع تحالُفِ الإمبراطوريّةِ الرُّومانيّةِ والمَسيحيّة، التي "أمسَتْ قُوّةً سياسيّةً حينَما اندمجَت في بناء مُؤسَّسة الدَّولة، وفيما بعدُ في ثقافةِ الغَرب".[2] هذا التَّحالُفُ الذي فتحَ أفقَ التَّوسُّعِ المَسيحيِّ بآليات الدَّولةِ الرُّومانيّة، وأوحى بنوعٍ من الاستمراريّةِ في رسمِ التَّجاربِ التّاريخيّة، ومن هنا تمَّ الادِّعاءُ بالاستمراريّةِ في تاريخ القارّةِ الأوروبيّةِ وإبداعِ جذورٍ قَديمةٍ وَهْميّة.

قد يَرتبط مفهومُ العُنصريّةِ الثَّقافيةِ أيضًا بجذورٍ بلورةِ مفهومِ «الغَرب» ذاته، فالمَفهومُ يَعكسُ خصائصَ عِرقيّةً ودينيّةً وحضاريّةً وسياسيّةً تَرتبطُ بالتّاريخِ الغَربيِّ، وقد تقوَّى هذا التوجُّهُ خلال العَصرِ الوَسيط؛ حيثُ رُبطَ المَفهومُ بقَصديّةٍ تَمييزيّةٍ تُعلي من الذّات الغَربيّة، انطلاقًا من التَّجذيرِ لها بشكلٍ أُحاديٍّ. وهو ما يُحيل إلى سياقٍ زمنيٍّ توسُّعيٍّ تعاظمَ فيه الوَعيُ بالعَقلِ الغربيِّ وتَفوُّقِه على باقي الشُّعوب.

وقد تقوَّى هذا المَنحى بفعل التَّحوُّلاتِ التي أطَّرَت فعلَ العَلمنةِ السِّياسيةِ، وفكرةَ امتداديّةِ أوروبا اعتبارًا من القرن الثامنَ عشرَ، ثم الحركة الاستعماريّة، وأيضًا الحملات الاستكشافيّة التي قادَها الغربُ نحو عوالِمَ الآخَرِ، مُحقِّقًا توسُّعَه الجغرافيَّ والثَّقافيَّ، ومُستحوِذًا على مواردَ جديدةٍ،

١ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص ٣٥.
٢ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٣٦.

ممّا غذَّى الفكرَ الاقتصاديَّ والتَّشكلَ الأوَّليَّ للنِّظامِ الرّأسماليِّ، واستوطنَت أُولى المَعالِمِ التي تُحدِّدُ الفكرَ الغربيَّ الجديدَ.

يمُكنُ القولُ إنَّ هذه النَّظرةَ المُخصَّصةَ للعالَم، والتي تَقوم على أساس التَّقسيم الثنائيّ، أوروبي/لا أوروبي، ومُتمدِّن/مُتخلِّف، ومُتقدِّم/ماضي، تَخدم المُخطَّطات الكولونياليّةَ الأوروبيّةَ،[1] وهو ما يُذكِّرُنا بمَفهوم الاستشراق عندَ (إدوارد سعيد)، أو موقف العالَم الغَربيِّ من الشَّرق بدايةً من اليابان وُصولاً إلى مصر، بأنَّه توجُّهٌ يَفتقرُ للفكر وكذا الفَضائل الخُلُقيّة الرَّفيعة.

إنَّ مفهومَ العُنصريّةِ الثَّقافيّةِ يَرتبط بوجه مُتشابك مع مَفهوم مَركزيّة الذّات، هذا المَفهومُ الذي يَعود لـ(سمير أمين) من خلال كتابه «نحو نظريّةٍ للثَّقافة نقدُ التَّمركُز الأوروبيِّ والتَّمركُز الأوروبيِّ المَعكوس» الصادر عام ١٩٨٨م، وهو كتابٌ يَتناول الفَهمَ المادِّيَّ للرَّأسماليّة والإمبرياليّة الغربيّة. إنَّ هذا التوجُّهَ العُنصريَّ، الذي يَرسم للتّاريخ الغَربيِّ المُمتَدِّ إلى الفلسفة اليونانيّة، يَسعى لتَقديم الحضارة اليُونانيّة بأنّها أصلُ العلم والمَعرفة، ومن هنا بدأ التَّمييزُ بينَ الشُّعوب بناءً على ثيمة العَقل، وإضفاء نوعٍ من الأسطرة على نَموذج التَّفكير اليُونانيِّ والمَسيحيِّ؛ فعلى سبيل المثال تقديمُ (سانت أوغسطين - St. Augustine) في بعض اللَّوحات والرُّسومات الحَداثيّة وما بعدَ الحَداثيّة بمَلامح رجلٍ ذي بشرةٍ بيضاءَ، في محاولة لطَمس أصوله الإفريقيّة، والتَّنصُّل ممّا قد يُؤكِّدُ تلاقُحَ الحَضارات، وهو إقصاءٌ مقصودٌ ومُمنهج، إقصاءٌ يُحاولُ أن يؤسّس التّاريخَ الإنسانيَّ انطلاقًا من اليونان القديمة وُصولاً لما نحن عليه.

ويمُكنُ رصدُ أوج هذه العَمليّة من أواخر القرن الثامنَ عشرَ، وأوائل القرن التّاسعَ عشرَ، هذا المَنحى الذي رافقَه تَشوُّهٌ ثقافيّ لجلِّ العدّة الحَداثيّة الغَربيّة في عمليّة تَصديرها إلى باقي الشُّعوب. لهذا تمَّ تَسطيرُ آليات تَطوير الدُّول انطلاقًا من النَّموذج الغربيِّ، و«قد حَذا العالَمُ حَذوَ الغَرب في ذلك أو أُشعِرَ، على الأقلِّ، بالضَّغط من أجل أن يَفعلَه. فليس هناك بالفعل أيُّ تاريخٍ آخرَ غير التّاريخ الأوروبيِّ-الأمريكيِّ، بل ليس ثمّةَ تاريخٌ أوروبيٌّ قبلَ عصر التَّنوير».[2]

توجَّهَت أغلبُ الكتابات التي تُؤرِّخُ للفكر الفلسفيِّ إلى رسم صَيرورة للتّاريخ باتِّجاه خَطِّيٍّ تقدُّميٍّ تَقودُه وتُنهيه الغَربُ، ونجدُ هذه التوجُّهات العُنصريّةَ عندَ كبار الفلاسفة مثل: (كانط -

1 - Anne Claire Orban: peut-on encore parler de racisme, p31.

٢ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة، ص٣٣.

Kan)و (هيجل - Hegel)و (دريدا - Derrida)و، فحتى هذا الأخيرُ قد تعاملَ مع مسألة الأعراق بتراتُبيّةٍ عُنصريّةٍ، هذا التَّصنيفُ سمحَ له بإدراج النَّموذج الغربيِّ في أعلى قمّة التَّرتيب العالَميِّ. وبهذا يكونُ «كانط قد تنكَّرَ لمبَادئه الأخلاقيّة، وغَرقَ في النَّزعة العرقيّة الشُّوفينيّة التي تُؤمن بتفوُّق الرَّجل الأبيض، وصنَّفَ البشرَ بحسب المَعايير العرقيّة وفقَ سُلَّم سيكولوجيٍّ وفيزيائيٍّ، احتلَّ فيه أصحابُ البشرة البَيضاء (الأوروبيُّون) المكانةَ العُليا في مراتب التَّفوُّق والذَّكاء».[1]

إنَّ عمليّةَ الفَرز الثَّقافيِّ الغَربيِّ عملَت على الرَّفع من الخُصوصيّة العرقيّة والدِّينيّة تحتَ شعار الإنسانيّة، وهي عُنصريّةٌ تَسمحُ بخلق تَراتُبيّةٍ بناءً على الاصطفاء الثَّقافيِّ، فـ «عُنصريّةُ التَّفاوت هي الإيمانُ بوجود تمَايُز ثقافيٍّ بينَ الأجناس، وبأنَّ هذا التَّمايُزَ له أساسٌ ماديٌّ (بيولوجيّ-بيئيّ-وراثيّ)، ثم الانتصار للجنس الذي يَنتمي إليه الفردُ أو المجتمعُ باعتباره جنسًا مُتفوِّقًا، وهو ما يمَنح عُضوًا من هذا الجنس المُتفوِّق حُقوقًا ومَزايا ومكانةً لا تُمنَحُ لأعضاء الأجناس الأخرى».[2]

هذا السِّجالُ يَعود اليومَ إثرَ ما نَشهدُه من تراجُع في الأمر الخُلُقيّ، أبرزَ تهافُتَ المَركزيّة الغربيّة التي استساغَت ربطَ التخلُّف بالانتماء الهويّتي إلى غير الغرب.

ثانيًا: أهمُّ النَّظريات الفلسفيّة التي تُؤرِّخُ للعُنصريّة الثَّقافيّة

إنَّ الإطارَ المُحدِّدَ لطبيعة التَّعايُش الدَّوليِّ يَقوم على أساس القوّة والهَيمنة، وهو ما تُؤكِّدُه مُجرياتُ الواقع العالميِّ الرّاهن، الذي يَعيشُ على تغوُّل الدُّول الغربيّة بشكلٍ لم يَسبق له مَثيلٌ، وهو مَنطقٌ يُؤسِّسُ قيادةَ العالَم وفقَ مَنطق امتلاك القوّة؛ هذا الامتلاكُ أسهَمَت في دَعمه التِّقنيّةُ والعلمُ، فقد «تضمَّنَت الأدبياتُ الغربيّةُ مُتغيِّرَ القُوّة على أساس أنَّه القُدرةُ على التأثير في الآخَر في سلوكاته وتحرُّكاته وتوجُّهاته، مما يَجعلُه تحتَ هيمنة الطرف الآخر وسيطرته، خصوصًا إذا امتلكَ الطَّرفُ الأوَّلُ عناصرَ القوّة العَسكريّة والاقتصاديّة، وهو ما يَحدثُ حاليًّا في الواقع الدَّولي».[3]؛ حيثُ برزَ تحالُفٌ غربيٌّ في مواجهة باقي الشُّعوب غير الغربيّة، هذه المُواجهةُ أخذَت أنماطًا تَتراوحُ بينَ المُواجَهة أو المُراوغة أو الانصياع بوجه تامٍّ. لهذا فـ«إنَّ الخطاباتِ الأدبيّةَ والفكريّةَ

١ - د.غيظان السيد علي: الفلسفة الإفريقية: البحث عن الهوية ومناهضة المركزية الغربية، ص٤٢.
٢ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٨٠.
٣ - دحمان عبد الحق: تجليات ظاهرة القوة في الفلسفة الغربية والإسلامية، ص١٦.

والسِّياسيةَ الغَربيّةَ مَثَّلَت الذّاتَ والآخَرَ تَمثيلاً مُتحيِّزًا، حيثُ مَوضَعَت الذّاتَ في إطارٍ من التَّعالي والفَوقيّة، في حين مَوضعَت الآخَرَ في إطارٍ من الانتقاصِ والدُّونيّة، واستخدمَت في ذلك آلياتٍ خطابيّةً عديدةً، مُمتثلةً للمَرجعيّات السياسيّة والاجتماعيّة والثَّقافية».[1]

إنَّ الحديثَ عن العُنصريّة الثَّقافيّة الغَربيّة المُمتدّة في التّاريخ إلى الرّاهن العالميِّ تَستمدُّ تَوجُّهاتها الأساس عبرَ عدّة نَماذجَ لتَوجُّهاتٍ فكريّة، منها فلسفةُ القوّة، والفلسفةُ الماديَّةُ، والفلسفةُ التَّحليليّة، والفلسفةُ الأنجلوسكسونيّة،...فكيفَ تمَّ مأسسةُ هذه التَّفاضُليّة الثَّقافيّة في ظلِّ هذه المَدارس؟

جرى تشكيل العنصرية الثقافية الغربية نظريًّا، بمعنًى ما، وفقَ مجموعةٍ من المَدارس، من أبرزها فلسفةُ القوّة، التي قد نجدُ جذورًا لها في الفلسفة اليونانيّة والمَسيحيّة، لكنّ بذورَها الواضحةَ تجلَّت خلال حركة النَّهضة، وهي فلسفةٌ جاءَت ترجمةً لردِّ فعلٍ تجاهَ سياق الحروب الأهليّة آنذاكَ، ويُمثِّلُ كلٌّ من (ميكافلي - Machiavelli) و(هوبز - Hobbes) و(هيجل) الثُّلاثيَّ الرَّئيس لمأسسة القوّة باعتبارها مخرجًا ثابتًا في بناء النُّظُم السياسية المُطلَقة، إنَّ مفهومَ الدَّولة الوَطنيّة المُؤسَّسة على إطلاقيّة سُلطويّة امتدَّ إلى مستوى العلاقات الدَّولية، طبعًا في إطار كانَ فيه دورٌ فعّالٌ لكلٍّ من الهويّة والثَّقافة والدِّين الغَربيِّ. يُمكنُ القولُ إنَّ فلسفةَ القوّة يُحرِّكُها مَطلبُ المَصلحة بالدَّرجة الأولى، وأيضًا الازدواجيّةُ في المَعايير وتَغيُّرُ ميزان القوّة والمَصلحة، بينَ التوجُّه الدّاخليِّ والتوجُّه الخارجيّ.

ففي ظلِّ الفلسفة الماديّة تشكَّلَت الأرضيّةُ التأسيسيّةُ للعَديد من الفلسفات الحَديثة: منها الماركسيّة والبرجماتية والداروينيّة. فهي، بمعنًى ما، الإطارُ المَرجعيُّ لرُؤيتنا للتّاريخ والتقدُّم وللعلاقات الدَّولية، وهي بالأغلب تَرتبطُ في كثير من الأحيان بالتوجُّه الحَداثي العَقلانيِّ والمَسار التّاريخيِّ التقدُّميِّ التَّصاعديّ. فيَصيرُ التاريخُ مرهونًا بالغرب على أنَّه مَهدُ الحضارة ومُنتهاها، كأنَّنا أمامَ حلقة تاريخيّة مَعزولة عن العالَم، تَسير في مسارٍ غربيٍّ وتَنتهي عندَه، لقد استفادَت كثيرًا الفلسفةُ الماديّةُ من النَّظريّة الدّاروينيّة، في إطار استلهام مَفهوم الانتقاء الطَّبيعيِّ، وهو ما أطَّرَ الفكرَ الغربيَّ في عمليّة توجُّهه نحوَ باقي الشُّعوب، فهو يُمثِّلُ قمّةَ التطوُّر الذي يَمنحُه أمرَين قيادةَ العالَم ورَسمَ مَسارٍ ثقافيٍّ على غِرارِ مَساره.

١ - غزلان هاشمي: التحيز الأيديولوجي في التمثلات الخطابية الغربية.

وهذه التَّصوُّراتُ أسهمَت في اختزال الكائن البشريِّ في المادة-الطَّبيعة، يَسري عليه ما يَسري على الطَّبيعة في انفصال عن الخُلُقيّات والقيَم الإنسانيّة، لهذا يتوجَّهُ الإنسانُ نحوَ خدمة مَصالحه ومَنافعه المادِّيّة وبَقائه، حتَّى وإن لَبس رداءَ الوِصاية الإنسانيّة التي تَسعى لنَشر الحضارة والتقدُّم، فخلفَ الشِّعارات الجذّابة للحضارة الإنسانيّة تَنوي مُبرِّراتُ الاستغلال للإنسان ومَواردِه التي تَقوم على أساس مَبادئَ تعسُّفيّة.[1]

لقد اعتُبر العالَمُ امتدادًا توسُّعيًّا لأوروبا، وهو امتدادٌ يجبُ أن يَخدم أوروبا دون غيرها؛ إذ تمثِّلُ النّازيةُ والاستيطانُ الصّهيونيُّ أوجَ الفلسفة المادِّيّة الغَربيّة؛ لأنَّها تَرجمةٌ للإنسان بوصفها مادةً منزوعةَ القيَم الإنسانيّة، وبالتالي تُترجمُ توجُّهًا إمبرياليًّا ماديًّا توسُّعيًّا استيطانيًّا بوجهٍ كاسحٍ ومُتجدِّد، فالقوّةُ هي المعيارُ الخُلُقيّ للمادِّيّة المؤسِّسة للتوجُّهات الامبرياليّة.

إنَّ سطوةَ المادِّيّة انتقلَت إلى مفهوم اللُّغة في ظلِّ الفلسفة التَّحليليّة، فقد ركَّزَت على وحدة العلم التَّجريبيِّ، على اعتبار أنَّه مُحدِّدٌ للحقائق، الأمر الذي أفقدَ البُعدَ الميتافيزيقيَّ والخُلُقيّ دورَه، لهذا جرى حصرُه وفقَ مبادئَ مَنطقيّة تُسيِّجُ عمليّةَ التَّواصل وفقَ الارتباط بالواقع، فلم تعدْ مُجرَّدَ تصوُّر يُبنى على افتراضات تَجريبيّة، كما كان الأمرُ خلال الأزمنة الحَديثة، بل أصبحْنا أمامَ عالَم مفاهيميٍّ وسُلوكيٍّ يُبنى على الاستخدام اللُّغويِّ المُتعارَف عليه؛ لأنَّ خارجَ هذا المُعطى لا يُوجد شيءٌ قد يُفيدُ في فَهم العالَم أكثرَ من مُكوِّناته الكائنة فيه.

عمليّةُ التَّركيز على العالَم الذي يَنضوي تحتَه الإنسانُ والطَّبيعةُ، هي عمليّةٌ قَصديّةٌ مُحدَّدةٌ، تتَّجهُ نحوَ الدَّلالة المادِّيّة والواقعيّة؛ لأنَّ السِّياقَ البرغماتيَّ للمُجتمعات الدِّيموقراطيّة ما بعدَ الحَداثيّة استوجبَت التَّقليلَ من أهمِّيّة التأمُّل الفلسفيِّ لصالح الرَّفع من واقعيّة التَّواصُل اللُّغويِّ، إذ لا حاجةَ لعالَم يَعيشُ على التَّفوُّق العلميِّ والتِّقنيِّ بالميتافيزيقا، فـ"المنهجُ التَّحليليُّ لم يكنْ يَكتفي بالتَّحليل اللُّغويِّ فقط، بل تجاوزَ ذلك إلى البحث في ماهيّة العُلوم من حيثُ تَطابُقُها مع الواقع، إذ مقياسُ نجاح النَّظريّات والأفكار مُرتبطٌ بمَدى تَطبيقها في الواقع".[2] إنَّ التوجُّهَ المادِّيَّ قد امتدَّ إلى مُكوِّنات اللُّغة، ممّا يَعني السَّعيَ نحوَ عالَم يَتطابقُ معَ العالَم دونَ الانزياح خارجَه؛ إذ كانَ هناكَ مَيلٌ خصوصًا في المدرسة التَّحليليّة المَنطقيّة نحوَ التَّكامُل معَ العالَم المادِّيّ.

1 - Anne Claire Orban: peut-on encore parler de racisme, p31.

٢ - شريف حسني خليل: منهج التحليل الفلسفي بين هدم الميتافيزيقا وإرساء اللغة العلمية، ص٢٦.

في حين تمُثِّلُ الفلسـفةُ الأنجلوسكسونيّة انتفاضةً كُبرى في وجه الفلسفة القارية، فقد جرى بفَضلها إحلالُ الوظيفة محلَّ مفهوم الجَوهر، صحيحٌ أنَّ امتدادَها تكوّن منذ القرن السّـابعَ عشرَ مـعَ (بيكون - Bacon)، ممّا يَدلُّ على الامتداد التأسـيسيِّ للفكـر الأوروبيِّ في ثَنايا هذا الفكر، لكنّه استطاعَ أن يُؤسِّسَ توجُّهًا عمليًّا وضعيًّا لا يَبتعدُ عن الفكر الواقعيِّ، على خلاف الفلسفات التأمُّليّة، التي "تَبتعدُ عن التأمُّلات والشَّـطحات الفلسـفيّة، وتَنفر من الأنظمة الفكريّة الشُّموليّة التي تُفسِّرُ كلَّ شيءٍ وتتحدَّثُ عن كلِّ شيءٍ، وتُفضِّلُ غالبًا الفلسفةَ المُتواضعةَ التي تَبحثُ فيما هو كائنٌ في الواقع".[1] لقد جرى الانتقالُ من رسـم ما يَنبغي أن يكونَ إلى التوجُّه بطريقة مركّزة إلى مـا هو كائنٌ، ممّا أفقدَ الأمرَ الخُلُقيّ والدِّينـيَّ فائدتَه، فجرى ترتيبُ الوجودِ والمَوجودِ وفقَ التوجُّه الأيديولوجيِّ الغربيِّ.

إنَّ المُلاحَظَ أنَّ المُشتركَ ما بينَ كلِّ هذه المدارس هو التخلِّي عن الوازع الدِّينيِّ أو الخُلُقيّ، واسـتحضارُ الوازع المادِّيّ النَّفعيِّ الذي يَخدم استكمالَ المسـار التّاريخيِّ الغربيِّ، خصوصًا التوجُّه الإمبرياليِّ الرّأسماليِّ، وهو الأمرُ الذي يَضع غير الغربيّ أمامَ انجراف هويّتي ليسَ له مَثيل.

تَجدرُ الاشارةُ إلى أنَّ العُنصريّةَ الثَّقافيةَ التي يَنهجُها الكائنُ الغربيُّ تتغذَّى ببنيةٍ مُعقَّدة تَجعلُ كلفةَ تَجاوُزها أو الوقوف في وجهها مُسـتحيلةَ الدَّفع، أو على الأقلِّ بعيدةَ المَنال، لهذا يَبدو أنَّ الطَّريـقَ الأيسَرَ نحو الخلاص هو الانخراطُ ضمنَ هذا المَسـار؛ لأنَّنا نتكلَّمُ عن منطق عُنصريٍّ مَدعوم بالتَّفوُّق العلميِّ والاقتصاديِّ والعسـكريِّ، وبما أنَّ الكفَّةَ غيرُ مُتوازنة، والقيادةَ مَحسومُ أمرُها، فإنَّنا إنْ راهَنَّا على أن نَعيشَ على أنماط مُحايثة للواقع السِّياسيِّ العالميِّ، ومنها الرَّأسماليّةُ واللِّيبراليّةُ والقُطبيّةُ الدَّوليّةُ، التي تَقودُها الولاياتُ المتَّحدةُ الأمريكيّة، فإنَّنا سننتقلُ من المَركزيّة الأوروبيّة إلى أمركة العالَم.

ثالثًا: المَنهج التاريخيُّ الحداثيُّ دعامةٌ لترَسيخ العُنصريّة الثَّقافية

لم تتكوّن العُنصريّةُ الثَّقافيةُ الغربيّةُ دفعةً واحدةً، بل رسـمَت نمطًا لمَسـارها التّاريخيِّ الذي عـبَّرت عنه بالمسـار التَّصاعديِّ نحوَ الهـدف النِّهائيِّ، وهـذه الصَّيرورةُ ارتبطَـت بنمط تأويلِ الأحـداث وتَضمينها معنًـى يَرتبطُ بفعاليّة العقلِ الغربيِّ، «فالهويّـةُ الغربيّةُ تَقوم في تفوُّقِها على

١ - زروقي ثامر: الفلسفة الأنجلوسكسونية: المفهوم والخصائص، ص٧٣.

غيرها، منذ العصر الإغريقيِّ إلى اليوم، على التميُّز في مُكوِّنَين: تفوُّق الشَّعب(=العرق) وتفوُّق الثَّقافة (=الحضارة). وباندماج هذَين المُكوِّنَين بفعل التّاريخ، بدأ الوَعيُ الغربيُّ يَكشِفُ عن نفسه، ليُقدَّمَ إلى الآخَر، مُتمركزًا على ذاته عرقيًّا وثقافيًّا».[1]

إنَّ عمليّةَ تجلِّي العُنصريّة الثَّقافيّة الغربيّة أخذَت مَسارًا تاريخيًّا خطِّيًّا نحو تَعظيم العَقل الغربيِّ وإخراجه عن المَسار التّاريخيِّ الاعتياديِّ، ليَحوزَ بالمُقابل على السَّبق في تَحقيق التقدُّم التّاريخيِّ، وهو الأمر الذي تجلَّى بصورة واضحة معَ فلسفات التّاريخ خلالَ القرن الثامنَ عشرَ.

واللاّفتُ في الأمر هو الشُّحنةُ الإيجابيّةُ التي رافقَت الأحداثَ التّاريخيةَ الغربيّةَ لإبراز ارتباطها- بشكلٍ حصريٍّ- بأهمِّ العَتبات التّاريخيّة المُحدِّدة لهذا المَسار النَّموذجيِّ، مثل (حركة الإصلاح الدِّينيِّ، النَّهضة، والأنوار، والثَّورة الفرنسيّة، والحَداثة، والعَقلانيّة، والفردانيّة، والذّات..)، كأنَّنا أمامَ آليّة لبناء الأحداث حتى تُحيلَ إلى معنًى تاريخيٍّ يَرسمُ فعاليّةً بَشريّةً غربيّةً دونَ سِواها، لهذا جرى إبرازُ الأزمنة الحَديثة بماهيّة أزمنة تقدُّميّة، تَحملُ آفاقًا مُنتظَرةً واعدةً، ممّا أسهَمَ في تَسطير آليات التحكُّم في الحاضر، ومُحاولات لاستباق فَرَض استمرار هذه السَّيطرة في المُستقبل، ومن هنا جرى تحديدُ غاية عرقيّة/دينيّة نَموذجيّة ضمنَ مَسار التّاريخ، فصرنا نُوالي أيَّ مسار تراكميٍّ يَنمو وفقَ رُؤية تقدُّمية، لهذا فالتاريخُ البشريُّ جرى حصرُه بوجه تعسُّفيٍّ في عاملَين، عامل الخَطِّ التّاريخيِّ الغربيِّ المتَّصل، وكذا طبيعة هذا التّاريخ الذي يتَّسم بالضَّرورة بالتقدُّم. هذان العاملان يَعملان بالمُقابل على تَغييب أيِّ تاريخ خارجَ التّاريخ الغربيِّ، فقد أعلنَ (تورغو - Turgot) عام ١٧٥٠ بالسوربون، من خلال سلسلة مُحاضراته الشَّهيرة حولَ مَفهوم التقدُّم، عن ثقته المَمنوحة من طرف عَصر الأنوار للقُدرة الإنسانيّة في السَّيطرة على الطَّبيعة، وفي قدرته على تَحسين الشُّروط الإنسانيّة بشكلٍ جذريٍّ[2]، لهذا وجبَ على باقي الشُّعوب التَّخليِّ عن تاريخها لإمكانيّة تَحقيق تقدُّم على غرار التقدُّم الغربيِّ.

إنَّ التاريخَ الغربيَّ جرى رسمُه في إطار مُترابط لكلِّ عناصره التي تَنهلُ من المَركزيّة الذّاتية المُكتفية بذاتها، بغيةَ تَحقيق تاريخ غربيٍّ صاف مُمتدٍّ من وإلى الذّات الغربيّة، فلم يتوقّف الأمرُ فقط على رسم صورة تاريخيّة غربيّة تقدُّميّة، بل إنَّ هذا التّاريخَ يَخصُّ العرقَ الأبيضَ الذي يَملكُ

١ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٨.

2 - Jerzy A. Wojciechowski: La modernité et le progrès du savoir, l'écologie du savoir.

سـمات تَتجاوَزُ الآخَرينَ. فرَبطُ إمكانيّة التقدُّم بالتّاريخ الغربيِّ، وجعلُه الإمكانَ الأبرزَ لنُهوض باقي الشُّـعوب، يَحمل رؤيةً تَصنيفيّةً، جوهرُها تقويم المَسـار التّاريخيِّ وفـقَ رُؤية ذاتيّة تمُجِّدُ الذّاتَ وتَحتقرُ باقي الحَضارات، وتَنهجُ مَسارًا إرشاديًّا يُقدِّمُ العدّةَ المَفهوميّةَ لمَعايير بناء التَّجارب التّاريخيّة، قابلةً للاسـتلهام من طرف باقي الشُّعوب، مقابلَ إزاحة ماضيهم جانبًا، فتُصغي لرُؤية وَحدويّـة للعالَم، و«هذا أيضًا يُشـبهُ رأيَ جاك دريدا، ففي إحدى زياراتـه للصِّين ٢٠٠١ فاجأ مُضيفَه الأستاذَ في قسم الفلسفة الصِّينيّة بتَصريح في أحد اللِّقاءات قائلاً: لا وجودَ للفلسفة خارجَ الغرب، وما سوى ذلك هو فِكرٌ غيرُ فَلسفيٍّ».[1] وبهذا أُضفي على الوَعي التّاريخيِّ، وبالأخصِّ الحَداثيِّ، نوعًا من الخُصوصيّة التي تَعزلُه عن باقي العَتبات التّاريخيّة.

لقد واجهَ المأمولَ الحَداثيَّ في مستقبلٍ أفضلَ، كما رُوِّجَ له في عمليّات امتداده الثَّقافي، أزمةٌ سياسـيّةٌ مُعاصرةٌ، كسرَت الآمالَ الحَداثيّةَ بواقعٍ غربيٍّ يَعيـشُ على عدّة أزمات، وواقعٍ لا غربيٍّ يَعيش على الانحباس التّاريخيِّ النّاتج عن الانقطاع عن ماضيه ومُحاولة تَنزيل النَّموذج الغربيِّ، فالوعيُ التّاريخيُّ ما بعدَ الحداثيِّ سيأخذُ نمطًا مُختلفًا عمّا كان خلال الأزمنة الحديثة، فالوعيُ التّاريخيُّ ليس بالضَّرورة تقدُّميٌّ تصاعديٌّ، والتقدُّمُ ليس بالضَّرورة حكرًا على النَّموذج الغربيِّ، وأنَّ النَّموذجَ الغربيَّ ليس بالصُّورة التَّبجيليّة التي رفعَها الجيلُ التَّغريبيُّ إبانَ الاستقلال وما بعدَه.

تمُثِّلُ فلسفةُ التّاريخ الحَداثيّةُ نموذجًا رفعَ من قيمة التّاريخ الغربيِّ، وضمَّنَه معنًى وغايةً لبناء أفق انتظاريٍّ مُسـتقبَليٍّ تَصاعُديٍّ، وهو ما أسـهَمَ فيما بعدُ في اختزال التّاريخ إلى مسار لتَحقيق الارتقاء المادِّي، مما أسـبَغَ على مفهوم التقـدُّم صبغةً عالميّةً، الأمر الذي مرَّرَ مُسـلَّمةً مَفادُها ضرورةُ اتِّباع النَّموذج الغربيِّ لتَحقيق التقدُّم. فجرى تَغليبُ كفّة المَفاهيم ذات الكثافة المعياريّة الإيجابيّة لمَفهوم التقدُّم، على اعتبارها غايةً إنسـانيّةً خيِّرةً؛ حيثُ تمَّ تَضمينُ التّاريخ غايةً تَسـيرُ نحـوَ الكمال البشريِّ اللامحدود، فـ«الزَّمنُ له بنيةٌ غائيّةٌ مُتماسـكةٌ، فكرةٌ أنَّ كلَّ مراحلَ التّاريخ والتَّجربة الإنسانيّة الأقدم زَمنيًّا مهَّدَت لما سيأتي، وهو دائمًا أفضلُ ممّا سبقَ، وأمّا ما سيأتي فهو دائمًا أوروبيٌّ أو يَستمدُّ إلهامَه من أوروبا».[2]

يَصيرُ مفهومُ التقدُّم هنا جزءًا من التّاريخ، وأحدَ مُكوِّناته، وليسَ مُجرَّدَ توقُّعٍ أو تَنبُّؤٍ بمَسـاره،

١ - برايان فان نوردن: عنصرية الفلسفة الغربية.

٢ - وائل حلاق: قصور الاستشراق، منهج في نقد العلم الحديث، ص١٨٤.

ممّا يُحوِّلُــه إلى عنصرٍ يُترجمُ التّاريخَ الكليَّ ويَقودُه في الآن نفســه، هذه التَّرجمةُ أو التَّرادفُ ما بينَ التّاريخِ والتقدُّمِ تَخدمُ بالأســاسِ التمركُزَ الغــربيَّ، فيجري ربطُ التقدُّمِ بالحَداثةِ الغربيّةِ دونَ غيرِها، الأمرُ الذي يَعمل على تَصنيفِ التّاريخِ وفقَ تراتُبيّةٍ تُعيد مَوضعةَ الحضاراتِ بناءً على هذا المقيــاسِ الزَّمنيِّ الحَــداثيِّ، ليَتربَّعَ العقلُ التقدُّميُّ الغربيُّ فوقَ التّاريخِ. ممّا أنتجَ تشــوُّهًا ثقافيًّا أساسُه المُقاربةُ المانويّةُ الحدِّيةُ بينَ الشَّرقِ والغربِ، والتقدُّمِ والتخلُّفِ.

لقد واجهَ مفهومُ التقدُّمِ وفلســفةُ التّاريــخِ أزمةَ معنًى في ظلِّ الرّاهــنِ الغربيِّ، خصوصًا فيما يتعلَّقُ بالقيَمِ الخُلُقيّةِ التي كانَت تمُثِّلُ الأفقَ الانتظاريَّ الخيِّرَ لجلِّ فلسفاتِ التّاريخِ الحَداثيّةِ؛ إذ صرنا فيما بعدَ الحداثةِ أمامَ تاريخٍ هو النُّســخةُ الرَّسميّةُ عن القصّةِ بالطريقةِ التي يَرويها الجانبُ المُتحكِّمُ في دواليبِ التّاريخِ الكونيِّ. فالتَّجربةُ الزَّمنيّةُ ما بعد الحَداثةِ قد تُوِّجَت بتوجُّهٍ مُختلفٍ، قد يكونُ أقربَ لرَصدِ نتائجِ التَّوجُّهاتِ الحَداثيّةِ، وهي أُطروحاتٌ تتَّجهُ نحوَ غيابِ المَرجعيّاتِ، وكــذا تآكُلِ الذّاتِ لصالحِ التوجُّهاتِ الماديّةِ وتَعاظُمِ القوّةِ، مــمّا هيَّأَ الأرضيّةَ للتَّراجُعِ القِيَميِّ، ومن ثمّةَ هَيمنةُ النِّسبيّةِ المَعرفيّةِ والخُلُقيّةِ، وتَصاعُدُ التوجُّهاتِ الاستهلاكيّةِ العالميّةِ.

إذًا، لقــد أفــرزَ هذا التَّراجُــعُ القِيَميُّ الغــربيُّ هيمنةً رَفعت من مُســتوى هاجــسِ القوّةِ على حسابِ القيَمِ الخُلُقيّةِ الإنسانيّةِ، التي لَطالما رفعَها الفكرُ التنويريّ، وعملَ على التَّسويقِ الثَّقافيِّ والإمبرياليِّ لها، هذا التَّســويقُ غرَسَ وقوَّى التوجُّهَ العُنــصريَّ المُنحازَ للقَوميّةِ العرقيّةِ والدِّينيّةِ. لكنْ هل يَســتقيمُ أن نُحاكِمَ هذا الفكرَ بالجانبِ الخُلُقيّ، ألَن يكونَ حُكمُنا معياريًّا يَنطلِقُ بدَورِه من توجُّهٍ معياريٍّ مُعاكس؟

لقد نحَت القيَمُ الإنسانيّةُ التي رفعَتها الأنوارُ الغربيّةُ مَنحيَين: مَنحًى خارجيًّا أساسُه المَصلحةُ والقوّةُ ومَنطقُ الاستهلاكِ والتحكُّمِ، ومنحًى داخليًّا يَرفع، نوعًا ما، من قيمةِ مُواطنيه عبرَ تَسخيرِ غيرِ الغربيّ امتدادًا نفعيًّا له، ممّا عمِلَ على تدميرِ ثقافاتِ الشُّعوبِ الأُخرى، سواء عبرَ الحركاتِ الاســتعماريّةِ أو تحتَ لافتــاتِ الدِّيموقراطيّةِ والحرِّيةِ، هذا التَّدميرُ لم يَســمَحْ خُصوصًا لبُلدانِ الشَّرقِ بتَحقيقِ نَهضةٍ تَحفَظُ لهم نوعًا من رَسمِ مَسارٍ تاريخيٍّ خاصٍّ بهم، بل عملَت على استدامةِ ضَعفِهــم لصالحِ اســتدامةِ التَّفوُّقِ الغربيِّ، وهــو تَدميرٌ يتجدَّدُ في صُورٍ مُختلفــةٍ، وتحتَ ذرائعَ مُتنوِّعــةٍ، ما دامَ أنَّ الهــدفَ يظلُّ واحدًا، وهو بقاءُ قيــادةِ العالَمِ في يدٍ غربيّــةٍ، فانتقلْنا من طَرحِ النَّموذجِ الغَربيِّ نموذجًا إرشاديًّا إلى فَرضِه بالوسائلِ السِّلميّةِ أو الحربيّةِ.

ومنـهُ يُمكنُ القولُ إنَّ «المرحلةَ الحاليّـةَ للحضارة الغربيّة تُمثِّلُ طَـورَ الاجتياح الذي يَطمَحُ في صبِّ العالَم داخلَ القالب الغربيِّ على مُختلف الأصعدة والميَادين: الاقتصاديّة والسِّياسـيّة والقِيَميّـة والثَّقافية والعسـكريّة والتَّشريعية..الخ. ومنـه فالمركزيّةُ الغربيّةُ هـي مرحلةُ الطُّوفان الغربيِّ الـذي يَعني الدَّمجَ المُخطَّطَ والقَـسريَّ في قالب واحد، ونفيَ التعـدُّد والتنوُّع والتَّمايُز والاختـلاف».[1] فتَغييبُ إرادات الشُّـعوب الأخرى، وفرضُ التوجُّهـات القسريّة لا تمنَحُ هذه الإرادات فرصةً حقيقيّةً للمُشاركة في بناء التّاريخ الإنسانيِّ، ومنه لم تعد العُنصريّةُ توجُّهًا أوروبيًّا، بل توجُّهًا لتحالُف قوًى غَربيّة، فكَّكَت كلَّ القِيَم الإنسـانيّة من أجل فرض المَزيد من السَّـيطرة، والمُتغيِّرُ الوحيدُ هو نقلُ التَّمركُز الأوروبيِّ إلى تمركُز أوسَعَ تقودُه أمريكا.

يُمكـنُ القولُ إنَّ تجليّات الانهيار الخُلُقيّ ارتبـطَ بالفكر الحَداثيِّ الغَربيِّ، الناتج عن طُموح مَكننة العالَم. فمنَ المُتعارَف عليه أنَّ جلَّ المُجتمعات الإنسـانيّة تَطمحُ بالدَّرجة الأولى للسُّموِّ الخُلُقيّ والقِيَميِّ، وانهيارُ هذا السَّـقف مَعناهُ انهيارُ الأُسس الإنسانيّة؛ فالغربُ لا زالَ يُحاولُ أن يَسـتديمَ عُنصريّتَه، عبرَ عمليّة اسـتباقيّة لنيوامبرياليّة تُدخلُ مُمكنات المُستقبل لصالحه، وبهذا تحوَّلَ النَّموذجُ الإرشـاديُّ الغربيُّ إلى صورة مُخيفة تُسيِّرُ الشُّعوبَ، فصارَت الدُّولُ غير الغربيّة تَعيشُ في دوّامة تتحكَّمُ فيها المَصالحُ الاقتصاديّةُ والسياسيّةُ الغربيّةُ.

وبالتالي صارَ المُشـتركُ الكونيُّ اليومَ يَعيشُ على وقع صراع وُجوديٍّ يَفتقرُ للأُسس الخُلُقيّة، ممّا أوصلَنا إلى مشترك كونيٍّ يَقوم على الطّابع الميكانيكيِّ المَنزوع عَنه روحُه الإنسانيّةُ، فالغربُ يُرادفُ بينَ تفوُّقه ووُجوده ممّا يَعكسُ أرضيّةً للصِّراع تَستبيحُ كلَّ شيء لصالح بقائه، وهو منحًى أصَّلَتْه الحَداثةُ، ومن ثَمَّ فإنَّ مرحلةَ العُنصريّة الغَربيّة المُعاصرة تَجاوزَت المَعنى القَديمَ للعُنصريّة القائمة على تَصدير النَّموذج الإرشـاديِّ لباقي الشُّـعوب، بخَلق توجُّه مُخالف يَعكسُ عُنصريّةً تَقومُ على تَسوية الكلِّ في مَصافِّ المادّة-السِّلعة والاستهلاك، أو تَقسيم العالَم الى فئتَين فئة تَقودُ العالَم وفئة تابعة مُستهلكة لا تَملكُ زمامَ أمرها؛ إذ التَّفاوُتُ المعياريُّ يَمنحُ المُتفوِّقَ مَرتبةً مُتقدِّمةً تَسمحُ له بفَرض سَيطرة مُطلَقة على الباقي؛ لأنَّ المَركزيّةَ لم تكنْ حكرًا على النِّطاق الثَّقافيِّ، بل تجذَّرَت في البُعد الخُلُقيّ، ممّا سهَّلَ تَنصيبَهم لأنفُسهم مُحدِّدي الأمر الخُلُقيّ الإنسانيِّ.

ولهـذا فإنَّ « الغربَ يَـرى العالَمَ حولَ مَركز، يُشـكِّلُ هو جَوهَرَه، وكلُّ مَـن يَبتعدُ عن المَدار

١ - شيخاوي لخضر: نقد كونية المركزية الغربية، ص٢٤٤.

المتَّصلِ بذاكَ المَركز، يكونُ قد هَوى إلى الحَضيض، لأنَّه فقدَ اتِّصالَه بالمَركز الذي يَمنحُ الأشياءَ أهمِّيتَها».[1] ففي عالَم تَحكمُه المَرجعيّـةُ الماديَّةُ يَفقدُ مَعناهُ التَّقليديَّ لصالح سرَديات مَفتوحة، لهذا فإنَّ المَنطومةَ العَلمانيّةَ المُعاصرةَ تُواجهُ إشـكاليّةً فلسفيّةً وخُلُقيّة، لأنَّ غيابَ الثَّوابت يُنذرُ بفُقدان السَّيطرة على المشترك الكونيِّ، وانفتاح الأفق المُستقبليِّ على المَزيد من التَّصادُمات.

فهلَ يُـرادفُ انهيارُ القيم الخُلُقيّـة التي كانَت تكسـو الواجهةَ الغربيّةَ انهيـارًا لهذه المَركزيّة العُنصريّة؟ وهل غيابُ المَرجعيّة الخُلُقيّة المُتعارَف عليها بدايةٌ لتكوّن مَرجعيّة خُلُقيّة أخرى؟

إنَّ الأزمةَ الخُلُقيّة ليسَـت حكرًا على انحسار الآفاق الحَداثيّة في مستقبلٍ إنسانيٍّ أفضلَ يَقودُه الغربُ، بل أيضًا أزمة خُلُقيّة عندَ الآخَر، هذا الآخَرُ لا يَملكُ سـوى ماضٍ مُهمَّش لصالح حاضرٍ لا يَملكُ زمامَ المُشاركة فيه، ممّا يَخلق هُوّةً ذاتيّةً ناتجةً عن تَحقير الماضي والانغماس في البنى الثَّقافيّة الغَربيّة، فصرنا أمامَ حاضرٍ يُحاصَرُ بأزمتَين ومُستقبلٍ يَستبقُ الغربُ لقيادته. بالتالي، الأزمة الخُلُقيّة المُعاصرة هي أزمةٌ بمعيارٍ حَداثيٍّ قد لا يُؤثِّرُ بطريقة واضحة في مراجعة المَسار الغربيِّ؛ لأنَّ مسـألةَ التمركُز حولَ الذّات تَفرضُ رؤيةً مُتعاليةً عن الأزمة ذاتها، فتُحاول أن تتجاوزَها بخَلق عَتبة تاريخيّة جَديدة تَنتعشُ على استدامة السَّيطرة. فالفَرضيّةُ تقومُ ببساطة على افتراض مَفادُه أنَّ العُنصريّـةَ تُجيبُ بوجهٍ مُختلف عن وظيفة قديمة، فـكلُّ شيءٍ يَحدثُ وفقَ ما هو في مُجتمعات المُساواة، أي العمل على إعادته أو محاكاته بوجهٍ مختلف في المجتمعات التي تقومُ على نوعٍ من الهَرميّة أوغياب المساواة، فيجري إرجاعُ هذا التَّمييز أو غياب المساواة فعلاً لا مَشروعًا، لهذا سيتمُّ خلقُ تفاوُت جديد عبرَ مَسح النَّموذج التَّقليديِّ، وهكذا سنَحصل على أيديولوجيا العُنصريّة[2].

لهـذا لا أعتقـدُ أنَّ ما نعيشُ على وَقعه اليومَ من تحوُّل فيما يَخصُّ الأمـرَ الخُلُقيّ قد يُؤثِّرُ على منحَى العُنصريّة الثَّقافيّة الغربيّة أو حتى يُدخلها بباب التقويم الخُلُقيّ، بقدر ما قد يَفتح أفقًا عنصريًّا جديدًا مُخالفًا للعُنصريّة التَّقليديّة، وهو أفقٌ يتقوَّى بشكل كبير على المَصالح الاقتصاديّة والسِّياسيّة والثَّقافية، فغيابُ المَرجعيّة الخُلُقيّة يَسـمحُ بالرَّفع من وَتـيرة العُنصريّة، والقولُ إنَّ التوجُّهات غير الخُلُقيّة التي نَعيشُ على وَقعها في السِّـياق الغربيِّ ما بعدَ الحَداثيِّ هو أمرٌ لا إنسـانيٌّ، ربمَّا القولُ

---

١ - راضية شافعي: إدوارد سعيد ونقد خطاب الكولونيالي الغربي، ص ٢٢٥.

2 - Ahmed Lemligui: Histoire d'un rascisme au long cours, quelques pistes pour un travailleur social, P4.

يَستقيم بالنِّسبة للشُّعوب المُضطهَدة أكثرَ ممّا يُناسبُ الشُّعوبَ المُتفوِّقةَ التي تَعيش على التوجُّه العنصريِّ، باعتباره مكسبًا ثقافيًّا يُوازي المكسبَ الطَّبيعيَّ، فتَنسج غلافًا جديدًا لإضفاء الشَّرعية الخُلُقيّة على توجُّهاتها غير الخُلُقيّة، فتَصير الأخلاقُ نفسُها تتراوحُ بينَ حدَّين سلبيَّين خُلُقيًّا في ظلِّ سرديّة غربيّة تتغذَّى بالتشوّه الثَّقافيِّ للقِيَم الخُلُقيّة. فالمُحرِّكُ الرَّئيسُ للأمّة الغربيّة أن تَستعملَ ادِّعاءَ الإنسانيّة والمُشتركَ الكونيَّ باعتبارها أيقونة خُلُقيّة للسَّيطرة على العالَم.

لهذا قد يكون مُفيدًا بالنِّسبة لغير الغربيِّ فكُّ الارتباط الثَّقافيِّ المُؤسَّس على تشوُّه ثقافيٍّ يُوازي بين الغرب والإنسانيّة، والتَّنصُّل بشكلٍ جذريٍّ عن التَّوجهات المانوية التي تُقسِّمُ العالَمَ إلى مُتقدِّمٍ ومُتخلِّف، ممّا يَضعُنا أمامَ ضرورةِ نزعِ الأسطرةِ عن النَّموذج الغربيِّ.

رابعًا: أسطرةُ النَّموذج الغربيِّ

لقد طرحَ الغربُ نفسَه بوصفه نموذجًا إرشاديًّا كونيًّا، فصار هو مَن يُحدِّدُ المَنظورَ العامَّ لجلِّ المَسارات المَعرفيّة والعلميّة للعالَم، ومن ثَمَّ جرى تَقسيمُ العالَم الى قُطبَين، الأوَّل القائد/ المُستعمِل/ المُستغِلّ/ المُوجِّه/المتقدِّم/المُتحضِّر يَعكس كلَّ صفات النَّمذجة الإرشاديّة والاصطفائيّة المُمكنة، أمّا باقي العالَم فيَدخُلُ بخانة المُستغَلّ/التّابع/ الهامش/ المتخلِّف... هذه العمليّةُ التَّصنيفيّةُ تمَّ تقويتُها عبرَ العمليّة الاستعماريّة والاكتشافات الجغرافيّة والامتداد الثَّقافيِّ الغربيِّ، ممّا أسهَمَ في تَضخيم الذّات الغَربيّة ورَفعِها لمُستوى القُدوة النَّموذجيّة التي يَجب العملُ على استلهام طَريقها واستنساخ تَجاربها.

ما يَسمحُ لنا بالقول إنَّ النَّموذجَ الغربيَّ اكتسبَ في هذا الإطار ما يُمكنُ تَسميتُه بمُصطلح الأسطرة، الذي يُحيل على شُحنة إيجابيّة مُكثَّفة تنتعشُ على الرَّفع من قيمته ومَوضعته في رُتبة السَّرد الأسطوريِّ الذي يَنفردُ بتَحقيقه، فيتمُّ تَعظيمُ كلِّ الحَيثيّات والأحداث والمَظاهر والمُكوِّنات المُؤسِّسة لهذا النَّموذج، ممّا يَجعلُنا نتساءلُ: أليسَ القولُ أو التَّسليمُ بمُعطى الأسطرة في حدِّ ذاته تَعجيزًا وتقزيمًا لكلِّ إمكانات الآخَر غير الغربيِّ؟

لقد جرى رفعُ النَّموذج الغربيِّ الى مستوى الأسطرة التي خضعَت لمرحلتَين: الأولى رافقَت المرحلةَ الكولونياليّة التَّقليديّة، أما مَرحلةُ الاستقلال التي تَغنَّى بها العالَمُ غير الغربيّ (أو بلدانُ الامتدادِ الغربيِّ) فلم تكنْ سوى فجوةِ عبورٍ لنَمطٍ آخَر من الكولونيالية، هذه الأسطرةُ التي

هدفَت منذُ وعي العَقلِ الغربيِّ بتفوُّقه إلى إعادة تشكيلِ هذا الآخَر، فصرنا أمامَ تَصنيفٍ ثنائيٍّ قُطبيٍّ يَفـرضُ تَوجُّهَينِ هما: التخلِّي عمّا عليه القطبُ الثّاني للتَّحلي-باعتباره ضرورةً لتحقيق التقـدُّم- بما يُميِّزُ القطبَ الأوَّلَ. إنَّ عمليّةَ مسـحِ الطّاولة التي فُرضت بالبداية عبرَ التوجُّهاتِ الإمبراليّة الغربيّة صارَت مَسـارًا واقعيًّا لجلِّ الدُّولِ غيرِ الغربيّة، هذه التَّبعيّةُ خلقَت قائدًا كونيًّا ومُريديـنَ فاقدي الأهليّـة للتأصيلِ الذّاتي، ومنه فقـد «نجحَ الغربُ في تَغييرِ قبلة ما نُسـمِّيه الإنسـانيّةَ الحاليّةَ، أي الإنسانيّةَ الغربيّةَ التي فَرضت نموذجَها الذّاتيَّ في كلِّ مكان: الكلُّ غيرُ الغَربيِّينَ هو اليوم بصَددِ التذوُّبِ بشكلٍ غربيٍّ.»[1] فصرنا أمامَ نموذجٍ وَحدويٍّ، ومِن ثَمَّ صارَ هو مُنتِجَ المَعرفة ومُبدِعًا للقيم ومُحدِّدًا للمَبادئ الإنسانيّة، ممّا أنتجَ تمايُزًا فكريًّا بينَ الشُّعوب، هذه المُقاربة الثنائيّة تَرومُ مأسسـةَ توجُّهٍ قطبيٍّ مُحرِّكُها بالأساس عمليّةُ الأسطرة التي لا تدعُ مَجالًا للشكِّ في النَّموذجِ المقدَّم، بل وجودُه يَفرض ضرورةَ التخلِّي عن ماضٍ تمَّ رَكنُه جانبًا بدَعوى تخلُّفه عن الرَّكبِ النَّموذجيِّ المُسـلَّم بتفوُّقِـه، فضِمنَ هذه السَّرديةِ التّاريخيّةِ الغربيّةِ لا وُجودَ لغيرِ الغربيِّ.

وبالتالي، فإنَّ عمليّةَ الانغماسِ في تمَجيدِ النَّموذجِ الغربيِّ جعلَنا نَركنُ تاريخَ الشَّرقِ جانبًا، أو نقيمُ تمايُزًا تفضيليًّا يَحجب الرُّؤيةَ الكونيّةَ عن باقي الشُّعوب، كأنَّنا أمامَ عمليّةِ إخراجِ كلِّ النَّماذجِ غير الغربيّة من التاريخِ الإنسانيِّ، ومُرادفة التّاريخِ الإنسانيِّ بالمقابل بمَفهوم التقدُّم الغربيِّ، وهو ما قام على أسـاس وجودِ حـدودٍ تَمييزيّةٍ للعقلِ الغربيِّ المُمتدِّ من الفلسـفة اليونانيّة إلى اليوم. وبالتالي أوجدَ عمليّةَ الفَصلِ والانفصالِ عن العالَمِ وهو داخل العالَمِ نفسه، لأنَّ التَّمييزَ المَعرفيَّ رسمَ بالمقابل تَمييزاً عرقيًّا في السَّرديّة الغربيّة، ومِن ثَمَّ فالتَّمركُزُ الغربيُّ هو «ظاهرةٌ ثقافيّةٌ تَفترضُ وجودَ ثوابتَ ثقافيّةٍ مُميَّزةٍ تُشكِّلُ المَساراتِ التاريخيّةَ للشُّعوبِ المُختلفة، ولذلك فإنَّ المَركزيّةَ مُعاديةٌ للكونيّة (العالمية)، لأنَّها غيرُ مُهتمّةٍ بالسَّـعي إلى قوانينَ عامّة مُحتملة للتطوُّر الإنسانيِّ. ولكنَّها تُقدِّمُ نفسَها باعتبارها كونيّةً، لأنَّها تَزعُمُ أنَّ تقليدَ جميعِ الشُّعوبِ النَّموذجَ الغربيَّ هو الحلُّ الوحيدُ لتَحدِّياتِ عصرِنا».[2]

---

١ - فتحي المسكيني: لا معنى للحرية تملك مضمونًا جاهزًا.. والمفكر الذي يحمل هوية جاهزة هو داعية يحرس جثة.

٢ - شيخاوي لخضر: نقد كونية المركزية الغربية، ص٢٤٤.

هذا التوجُّهُ لم يَعدْ قائمًا بالحدّة نفسها كما كان خلالَ حركات الاستقلال؛ حيثُ رَفع تحدِّي قيادة باقي الشُّعوب غير الغربيّة بحُجّة خيرِّة، في حين أنَّ الحجّةَ الخيرِّةَ تَتغاضَى عن مَطلب الخُصوصيّة الثَّقافيّة لباقي الشُّعوب، هذه الهالةُ رافقَت عمليّةَ أسطرة النَّموذج الغربيِّ، لم تُحقِّقْ نهضةً للشُّعوب الضَّعيفة بقَدر ما عَملَت على سحب مَواردهم الطَّبيعيّة لصالحها، كما أفقدَتْهم الصِّلةَ بتُراثهم؛ لأنَّها أوهمَتْهم أنَّ نموذجَها هو الأصلَحُ، فما عليهم سوى مَسح الطّاولة وإعادة البناء وفقَ النُّسخة الغَربيّة، ممّا أوضحَ وَهْمَ النَّموذج الغربيِّ التَّسويقيِّ الذي لم يَسعَ إلى تَحقيق الأفضلِ للإنسانيّة بقَدر ما سَعى للوصول إلى ما يَدعمُ استمرارَ تفوُّقه وقيادته للعالَم. فلم نعدْ كما كنّا سالفًا أمامَ سرديّة غربيّة تَسعى لنشر الحَضارة وفقَ أفق إنسانيٍّ، بل صِرنا أمامَ تغوُّلٍ غربيٍّ بفعل تبعيّة الآخَر وتَفوُّق الأنا، فـ «بهذه الثَّقافة الماديِّة يَسعى الغربُ إلى حُكم الشُّعوب، وفرض نوعٍ من القَيصريّة الطّاغية، دونَ أن يَهدفَ الى نشر حضارةٍ».[1] فصِرنا أمامَ تجدُّد أشكالِ السَّيطرة التي تَستبقُ الزَّمنَ لاستدامة تفوُّقِها مُستقبلاً.

خاتمة

رغمَ اعتماد النَّقد مَنهجيّةً رئيسةً في التوجُّه التأمُّليِّ الغربيِّ، خصوصًا خلال الأزمنة الحَديثة، لكنّها مع ذلك سلكَت منهجًا في بعض أوجُهه عُنصريًّا، فكان التوجُّهُ النَّقديُّ يَخدم المصلحةَ الأوروبيّةَ لحصولها على الاصطفاء الكونيِّ، ومن ثَمَّ سَهُلَ القولُ إنَّ الثَّقافةَ الغربيّةَ «في عمومها ثقافةٌ مُتعاليةٌ، مُتمحورةٌ حولَ نفسها، قوامُها النَّظرُ إلى الآخَر نظرةً دُونيّةً منذُ الفلسفة الإغريقيّة إلى الآنَ.»[2] صحيحٌ أنَّ الغربَ قد تحطَّمَت صورتُه النَّموذجيّةُ مرارًا، خصوصًا من خلال الأزمات العالميــة وازدواجيّة المَعايير المتَّخذة في التَّعامُل مع الدُّول الخارجة عن نطاق الانتماء العرقيِّ، فـ «ثقةُ الغرب في احتكاره العَقليِّ بدأتْ تَتزعزعُ في النِّصف الثّاني من القرن العشرين، ذلك أنَّ أزمةَ الفيزياء والعِلم المُعاصِر قد طرحَت للنِّقاش أُسسَ المَنطق القَديم، والاتِّصالُ بالحضارات

١ - عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق: نقد الحضارة الغربي في فكر مالك بن نبي، ص٤٨.

٢ - حوار مع عبد الله إبراهيم: في نقد المركزيات الثقافية، أجرى الحوار عدالت عبد الله سيروان، ايلاف ١١ سبتمبر ٢٠٠٧، WWW.elaph.com

الكبرى المُختلفة فكريًّا عن حضارتها(..) حطَّمَ إطارَ النَّزعة الإنسانيّة القديمة».[1]

ورغم ذلك تظلُّ عمليّةُ انخراطِنا ضمنَ هذا النَّموذجِ أمرًا واقعًا يَفرِضُ تَجديدَ علاقتِنا معَ ذاتِنا حتى ونحن نُحاولُ الاستمرارَ في استلهامِ النَّموذجِ الغربيِّ؛ لأنَّه صارَ جُزءًا من مُكوِّناتنا الهويّتيّة، إذ وجبَ الوَعيُ بالتَّوجُّهِ العُنصريِّ للغربِ، والعملُ على نزعِ الأسطرةِ عنه بطريقة نقديّة لا يَنجرُّ نحو النَّزعة التَّنويريّة العَمياء، ومنه الوَعي بإمكانِ التقدُّمِ الهويّتيّ الخاصِّ بنا حتى في إطارِ عمليّةِ التَّلاقُحِ معَ الفكرِ الغربيِّ في بُعدِه المَعرفيِّ وليسَ التوجُّهَ الأيديولوجيّ. لنَخلق إمكانيّةً على مُثاقفةِ الغربِ بشكلٍ مُزدوجٍ يَنطلقُ من خارجِ وداخلِ نَموذجِه لتَحقيقِ نهضته الذّاتيّة بَعيدًا عن الوصايةِ التي تتمأسَسُ على جوهرٍ عُنصريٍّ يَستديمُ العَجزَ لأجلِ إعلاءِ التَّمركُزِ الغربيّ.

١ - كمال عبد اللطيف: نقد المركزية الثقافية الغربية، فكر وقضايا عامة، العدد ٤٣٩، العربي، www.alarabi.nccal.gov.kw

المراجع والمصادر

باللغة العربية:

- برايان فان نوردن، عنصرية الفلسفة الغربية، ترجمة موسى غزواني، حكمة، ٢٠١٨، تاريخ الزيارة ٢٠٢٤/٢٠/١١، www.hekma.org
- بلخيرة محمد، برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجًا، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، العدد١٠، جوان٢٠١٣، ص٧٧-٨٥.
- حوار مع عبد الله إبراهيم، في نقد المركزيات الثقافية، أجرى الحوار عدالت عبد الله سيروان، إيلاف ١١ سبتمبر ٢٠٠٧، WWW.elaph.com
- دانيل ليتل، فلسفة التاريخ، ترجمة طريف السليطي، حكمة، ٢٠٢٠/٠٧/٠٣، www.hekma.org
- دحمان عبد الحق، تجليات ظاهرة القوة في الفلسفة الغربية والإسلامية، مركز المجدد للبحوث والدراسات، إسطنبول/ تركيا ٢٠٢٣م.
- راضية شافعي، إدوارد سعيد ونقد خطاب الكولونيالي الغربي، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد٣٠، العدد١٠،أكتوبر ٢٠١٩.
- زروقي ثامر، الفلسفة الأنجلوسكسونية: المفهوم والخصائص، مجلة الحوار الثقافي، جامعة عبد الحميد بن باديس، كلية العلوم الاجتماعية، مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم، المجلد ٦،ع١، خريف ٢٠١٦، ٦٥-٧٤.
- سمير أمين، نحو نظرية للثقافة، نقد التمركز الأوروبي والتمركز الأوروبي المعكوس، معهد الإنماء العربي، دراسات الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٩.
- شريف حسني خليل، منهج التحليل الفلسفي بين هدم الميتافيزيقا وإرساء اللغة العلمية، مجلة آفاق علمية، المجلد ١٣، العدد ٠٤ /٢٠٢١، ص١٤-٢٨.
- شيخاوي لخضر، نقد كونية المركزية الغربية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران ٢، مجلة التدوين، المجلد ١٢، العدد٢(٢٠٢٠)، ص٢٤٣-٣٥٨.

- عبد الحق بلقيدوم، الذات والآخر من خلال المركزيات الثقافية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، عدد ٥٢.
- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى ٢٠١٠.
- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، مؤمنون بلا حدود، ١٣ يونسو٢٠١٩، www.mominoun.com
- عبد الوهاب المسيري، العالم من منظور غربي، دار الهلال، العدد٦٠٢، فبراير ٢٠٠١.
- عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م.
- عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق، نقد الحضارة الغربي في فكر مالك بن نبي، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى ٢٠١٩.
- غيظان السيد علي، الفلسفة الإفريقية: البحث عن الهوية ومناهضة المركزية الغربية، مجلة متون، ص٤٢.
- فتحي المسكيني، لا معنى للحرية تملك مضمونًا جاهزاً.. والمفكر الذي يحمل هوية جاهزة هو داعية يحرس جثة، حاوره عدالت واعزيز وإلياس أبو الرجاء، ١مايو٢٠٢٤، حوار، الفيصل، www.alfaisalmag.com
- كمال عبد اللطيف، نقد المركزية الثقافية الغربية، فكر وقضايا عامة، العدد ٤٣٩، العربي، www.alarabi.nccal.gov.kw
- وائل حلاق، الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة، ترجمة عمرو عثمان، مراجعة ثائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى٢٠١٤.
- وائل حلاق، قصور الاستشراق، منهج في نقد العلم الحديث، ترجمة عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى بيروت ٢٠١٩.

باللغة الإنجليزية

- Anne Claire Orban, peut-on encore parler de racisme, analyse des discours d'exclusion et des mécanismes de rejet, Edition couleur livre, Bruxelles 2015.
- Ahmed Lemligui, Histoire d'un rascisme au long cours, quelques pistes pour un travailleur social, Rascisme ordinaires? 1/races et rascisme, le sociographe, 34, 2011.
- Jerzy A. Wojciechowski, La modernité et le progrès du savoir, l'écologie du savoir, 17mars 2000, L'agora, www.agora.qc.ca. Vu le 22/ 03 /2022.

العُنْصُرِيَّة الغربيَّة واستخداماتُها في الأدب والفنِّ والإعلام

أ.د غيضان السيد علي[1]

ملخّص

العُنْصُرِيَّةُ مفهومٌ يقوم على تأكيد مَركزيّة الذّات في مقابلِ تَهميش الآخر والاعتقاد بدُونيّته، وتُعدُّ العُنْصُرِيَّةُ الغربيَّة -التي آمنَ بها الغربيُّ الأبيضُ بسيادة ونقاء عِرقه- الأداةَ المُثلى لتَبرير الاستعمار الغربيِّ واضطهاد الأجناس البشريّة الأخرى واسترقاقها. وبناءً عليه لا بدَّ أن يُترك للسيِّد الأبيض زمامُ الأمور من سيطرة وهَيمنة وإدارة وتحكُّم بشؤون العالَم وشُعوبه. وقد استَخدمت العُنْصُرِيَّةُ الغربيَّةُ الأدبَ والفنَّ والإعلامَ لترَسيخ نظرةِ الغربيِّ إلى الآخَر بوَصفها نظرةَ توجُّس وخيفة وشُبهة واتِّهام، وعلى أنَّه من جنسٍ أدنى وفي مرتبةٍ أقلَّ. كما عملَتْ على تكريس فكرة سيادة الرَّجل الأبيض القادر وحدَه على الإبداع، والابتكار، وصناعة المَدَنيَّة والحضارة. وإذا كانَت العُنْصُرِيَّةُ الغربيَّةُ قد نجحَت في مجال الأدب في تقديم الرِّوايَة العُنْصُرِيَّة ذائعة الصِّيت، فإنَّها في مجال الفنِّ قد نجحَت في تجسيد العُنصريّة من خلال اللَّوحة، والبُورتريه، والتِّمثال، والفيلم. كذلك استَخدمت وسائلَ الإعلامِ المَرئيّةَ والمَقروءةَ وسخَّرَتها لخدمةِ أهدافِها العُنْصُرِيَّة.

الكلمات المفتاحية: العُنْصُرِيَّة، الفنّ العنصريّ، الأدب العُنْصُرِيّ، الإعلام العُنصريّ، لوحة عُنصريّة، فيلم عُنصريّ، رواية عُنصريّة.

1 - أستاذ الفلسفة بكلية الآداب جامعة بني سويف، جمهورية مصر العربية.

مُقدِّمة

تُعدُّ العُنْصُريَّةُ (Racism) في ذاتها داءً عضالاً لم يُؤدِّ إلا إلى الكراهيةِ والتعصُّب بينَ الشُّعوب والأجناس البَشريّة المُختلفة. فحين تتفشَّى العُنْصُريَّةُ يترتَّبُ على ذلك سلسلةٌ من الجرائمِ التي تَقضُّ مَضجعَ الأُمم وتَفجَعُ الشُّعوبَ في أعزِّ ما تمَلكُ.

وتُعــدُّ العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ التي بــات يدَّعيها الغربيُّ الأبيضُ ضدَّ غـيره من الأجناس المُختلفة أبرزَ أنواعِ العُنْصُريَّة التي ادَّعاها الإنسانُ ضدَّ أخيه الإنسان في القرون الثَّلاثة الماضية، فقد كوَّنَ الرَّجلُ الأبيضُ ثرواتٍ هائلةً ســلبَها ونَهبَها من المُســتعمرات، جعلتْه يَعيش حياةَ الترَّف والنَّعيم على حســاب قَهره لفئةٍ من الشُّــعوب والأُمم، بعدَ أن مصَّ دماءَها وسرقَ خيراتِها وثَرواتِها، ولم يكتفِ بذلك بل تعمَّدَ إذلالَها وإخضاعَها، فمارسَ ضدَّها استعلاءَه ونَزقَه، فنرَاه -دائمًا- مُصرًّا على أن يَضعَ مَصالحَه في المُقدِّمة؛ إذ لا يَرى سوى نفسه، أمَّا ذلكَ الآخَرُ فهو -في نظره- لم يُوجد إلا لخدمته، وعلى هذا الآخَرِ أن يَستمرَّ دائمًا شاعرًا بدونيّته وضَعفه وعَجزه وعدمِ قُدرته على الإبداع أو الاختراع أو الإتيان بأيِّ جديدٍ يُذكَر.

فالأبيضُ دائمًا على حقٍّ مِصداقًا للأُغنية الفولكلوريّة المُســتوحاة من التُّراث الأدبيِّ الزنجيِّ التي تقول: "إذا كنتَ من البيضِ فأنتَ على حقٍّ، وإذا كنتَ أســمرَ الزَمْ مَكانَكَ، وإذا كنتَ أسودَ البَشرة فتَراجَعْ إلى الخَلف"؛ فالغَربيُّونَ البيضُ -من وُجهة نظرِ العُنصريّةِ الغَربيّة- هم صَفوةُ العالَم وسادتُه وأولياءُ أمره وقادتُه.

وتَعكــسُ العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ حالةً من تأكيد مَركزيّة الــذّات في مُواجهة الآخَرِ المُهمَّش دائمًا؛ فإذا كان الغربيُّ يَنظرُ إلى الأسودِ الإفريقيِّ على أنَّه في مرتبةٍ دُونيّة من حيث الفَهم أو القُدرة على الإبداع، فإنَّهم يَنظرون- أيضًا- إلى العرب والمســلمينَ على أنَّهم قُساةٌ غِلاظُ القلوبِ لا يَعرفون التَّسامُحَ، ويعيشونَ على البَداوةِ، أفكارُهم مُتخلِّفةٌ وجامدةٌ، مُنعزِلونَ عن تيار الحَضارةِ الحديثة،

ويَرفضونَ الالتحاقَ بها، مُنافقونَ، ومَهووسونَ بالجنس.

لذلك استخدمَت العُنْصُرِيَّةُ الغربيَّةُ الأدبَ، والفنَّ، والإعلامَ من أجلِ تَوطيدِ مَزاعمِها الخَبيثة في أهمِّيةِ استعمارِها لتلك الأمم والشُّعوب تحتَ شعارِ تَمدينِها وتَحضُّرِها. وهو ما سوفَ نَتناولُه بالتَّفصيلِ فيما يَلي من خلالِ مباحثَ أربعة؛ يأتي أوَّلُها بعنوان تَعريفِ العُنْصُرِيَّة في اللُّغة والاصطلاح، ثم يأتي ثانيها تحتَ عنوان العُنْصُرِيَّة الغربيَّة واستخداماتها في الأدب، وثالثها بعنوان العُنْصُرِيَّة الغربيَّة واستخداماتها في الفنِّ، أمّا الرّابعُ فيَحملُ عنوانَ العُنْصُرِيَّة الغربيَّة واستخداماتها في الإعلام، ثم تأتي الخاتمةُ لِتُشيرَ إلى أهمِّ نتائجِ هذا البَحث.

أولًا: تعريفُ العُنْصُرِيَّة في اللُّغة والاصطلاح

يُشتقُّ مفهومُ "العُنْصُرِيَّة" في اللُّغة العربيّة من مادة (عُنْصُر أو عُنْصَر) بفتح الصَّاد أو ضمِّها، والضَّمّ أَشهرُ، والفتحُ أفصحُ. والعُنْصُرُ هو السُّلالةُ أو الأصلُ والحَسب. والعُنْصُرِيَّةُ هي تعصُّبُ المَرءِ أو الجماعة للجنس الذي يَنتمون إليه [١].

أما العُنْصُرِيَّةُ في الاصطلاحِ، كما يُعرِّفها المعجمُ الفلسفيُّ، فهي: «نظريّةٌ فلسفيَّةٌ تُبرِّرُ اللامساواةَ والاستغلالَ والحروبَ بدَعوى أنَّ كلَّ شعبٍ يتميَّزُ بسماتٍ بيولوجيّةٍ وعنصريّةٍ خاصّة، الأمرُ الذي يُؤدِّي إلى قسمة الشُّعوب إلى عُليا ودُنيا» [٢].

أمّا الموسوعةُ البريطانيّةُ فقد عرَّفَت العُنْصُرِيَّةَ بأنَّها: «النَّظريّةُ أو الفكرةُ القائلةُ بأنَّ هناكَ علاقةً سببيّةً بين الصِّفات الجسديّة المَوروثة وبينَ صفاتٍ مُعيَّنة تتعلَّقُ بالشَّخصيّة أو العَقلِ أو الثَّقافة، يُضاف إلى هذا، فكرةُ أنَّ بعضَ الأعراقِ مُتفوِّقةٌ على أعراقٍ أخرى بصورة وراثيّة»[٣]. وهناك تعريفاتٌ أخرى مُختلفة للعُنصريّة، فقد جاء في تعريفها بأنَّها: «المُعاملةُ غيرُ المُتساويةِ للمُتساوينَ (Unequal treatment of equals) [٤].

وتُشيرُ المُمارساتُ العُنْصُرِيَّة إلى ممارساتِ جماعةٍ مُتسلِّطةٍ، لِما تتمتَّعُ به من قوة وسُلطة،

١ - مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص٤٣٧.
٢ - مراد وهبة: المعجم الفلسفي معجم المصطلحات الفلسفية، ص.ص٤٧٦-٤٧٧.
٣ - عابد المشوخي: العنصرية عند الأمم وموقف الإسلام منها، ص ١٨.
٤ - عابد المشوخي: العنصرية عند الأمم وموقف الإسلام منها، ص ١٨.

فرضَت بعضَ القيود القانونية والعرفيّة، أو بعضَ أنواعِ التَّحريم على الجماعات المَقهورة، وذلك من أجل الإبقاءِ على مواقفَ تسودُها الامتيازاتُ وعدمُ التَّكافُؤ: مثال ذلك: التَّفرقة التي يُمارسُها الرِّجالُ ضدَّ النِّساء، أو التي تُمارسُها جماعةٌ مُسيطرةٌ سياسيًّا، أو قوميًّا؛ أو دينيًّا أو سلاليًّا. ويَشتمل هذا الموقفُ على عمليّاتِ تَحديدِ الحُرِّيات، والتأكيد على الانفصالِ في الإقامة، وإتاحة فُرَصٍ مُتمايزةٍ سواء للتَّعليم أو العَمل. وذهبَ آخرونَ إلى أنَّها تقسيمٌ باطلٌ للإنسانيّةِ على أساس بعضِ المَعايير (الجسدية) كلون البَشرة، ونسيجِ الشَّعر... إلخ [1].

أمّا إذا أردنا أن نقفَ على مفهوم العُنْصُريَّةِ الغربيَّة فهو المَفهوم الذي يَرى أنَّ دراسةَ الجِنس أو العِرق كعامل مُنتجٍ للحضارة يَفترض وجودَ علاقةٍ بينَ الصِّفات النَّفسيّة المُفيدة وبينَ طائفة من المظاهرِ الطَّبيعيّة، ويَعتبر اللَّونَ الصِّفةَ البَدنيّةَ التي يُعوَّلُ عليها. وإنَّ أكثرَ النَّظريات العُنْصُريَّةِ شيوعًا هي التي تَضع في المَقام الأوَّل السُّلالةَ ذاتَ البشرةِ البَيضاء والشَّعرِ الأصفرِ والعيونِ الشَّهباء التي يَدعوها بعضُهم بالإنسانِ النُّورديّ (الشَّمالي)، ويَدعوها الفيلسوفُ الألمانيُّ (فريدرك نيتشه-Friedrich Nietzsche) بالوَحش الأشقر! وقد تزامنَ هذا الإعلاءُ من قيمة العِرق مع شيوعِ نظريّاتِ (تشارلز داروين-Charles Darwin) عن النُّشوء والانتخاب فيما يتعلَّق بالجِنس والتطوُّر والارتقاء، وكذلك انتشار علم البيولوجيا. وكان كبارُ المُفكِّرينَ الأوروبيِّينَ، في القرنِ التاسع عشر، يَعتبرونَ الاستعمارَ هدفًا ساميًا لأنَّه يَنشر الحضارةَ بين الشُّعوب [2].

ويعتبر (دي جوبينيو-M. A. De Gobineau) الرّائدَ الأكبرَ لنظريةِ العُنْصُريَّةِ الغربيَّة الذي كان يَعمل في السِّلك الدُّبلوماسيِّ، ووضعَ مُؤلَّفًا بعنوان "بحث في عدم التَّساوي بين الأجناس البَشرية" في عام ١٨٥٣م، وتتلخَّصُ نظريّتُه العُنْصُريَّةُ هذه في أنَّ الاختلاطَ بينَ الأجناسِ الرّاقيةِ والأجناسِ السُّفلى هو السَّبب الرَّئيسُ لتدهور حضارات أوروبا السّابقة، وأنَّ العِرقَ الأبيضَ مُتفوِّقٌ. وقد انتشرتْ آراءُ هذه المدرسة العُنْصُريَّة في كافة أنحاء أوروبا، وكان من أهمِّ تلاميذ (Joseph Arthur de Gobineau-آرثر دو غوبينو) هذا العُنصريُّ الكبيرُ (هيوستن تشامبرلين-Houston Chamberlain)، وهو بريطانيٌّ عاش معظم حياته في ألمانيا، وكتب باللُّغة الألمانية أشهرَ كُتبه وهو "أسس القرن التاسع عشر"، الذي قامَت على أُسسه النَّظريّةُ النّازيّةُ العُنْصُريَّة في

١ - عابد المشوخي: العنصرية عند الأمم وموقف الإسلام منها، ص٢٠.
٢ - وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب، ج١، ص ٣٧.

ألمانيا، التي تبنّاها (أودلف هتلر-Adolf Hitler) في القرن العشرين [١].

ولم يكنْ هذا الفكرُ العنصريُّ قاصرًا على النّازيّة وقادتها، ولكنْ من المُمكن أن نَجدَه حتّى عندَ أعظمِ الفلاسفة الألمان الذينَ اشتهروا بمثاليّتهم الخُلُقيّة، وهو الفيلسوف الألمانيُّ (إيمانويل كانط - I. Kant)، على سبيل المثال لا الحَصر، رغم كونه أضافَ للفكر الإنسانيِّ كثيرًا في "نظريّة المَعرفة"، لكنّه واحدٌ من أهمِّ المُفكِّرينَ الذين دَعوا إلى تصنيف الأجناسِ البشريّة بحسب المَعايير العرقيّة، بشكلٍ مُستفزٍّ. فرأى أنَّ أصحابَ البشرة البَيضاء هم أكثرُ الأنواع البشريّة ذكاءً وفاعليّةً ومَقدرةً على بناء الحضارات، ثم يأتي أصحابُ اللَّون الأصفر في الدَّرجة الثّانية، وفي الدَّرجة الثالثة يأتي أصحابُ البشرة السَّوداء، ومن خَلفهم بقيّةُ الأجناس الأخرى، وفي الأسفلِ يأتي الهنودُ الحُمر الذين صنَّفَهم أسوأَ الأجناسِ وأقلَّهُم تطوُّرًا وذكاءً[٢].

ويَرى الغربيُّونَ أنفسَهم أصحابَ الحضارة الأبرز التي يَصل معها التّاريخُ إلى نهايته؛ فلن تأتيَ حضارةٌ تتجاوزُها، ولم يَسبقْها حضارةٌ مثلُها، بل كلُّ الحضارات التي سبقَتْها كانَت بمَثابة تمَهيدٍ لَها. ممّا يَعكسُ نَوعًا من التَّعالي والعُنْصُريَّة التي يُرجعُها مُؤرِّخُ الحضارات الشَّهير (أرنولد توينبي - Arnold J. Toynbee) إلى ثلاثة أوهام، من أهمِّها: وَهمُ حبِّ الذّات. كما أنَّ التَّقدُّمَ العلميَّ والاجتماعيَّ الذي عرفتْه أوروبا بعدَ الثَّورة الصِّناعيّة جعلَها تُؤمنُ بوَهم الإنسان الأعلى والعِرق الأبيض. كذلك شجَّعَها تفوُّقُها العسكريُّ على التَّمادي في الاستعلاء على الشُّعوب الأخرى المُستكينة أثناء حَملاتها الاستعماريّة وغزواتها الاستيطانيّة [٣].

وفي ظلِّ هذه الأوهام ظهرَت أبرزُ نظريّات العُنْصُريَّة الغَربيَّة، وهي النَّظريّةُ العرقيّةُ للنّازية في ألمانيا، التي عُرفت باسم «نظريّة الجنس الآريّ»، التي تقومُ على تصوُّرات بيولوجيّة تَستهدفُ نقاءَ العنصر الجرمانيِّ (الآري)؛ لذلك لم يكنْ غَريبًا – أيضًا- أن يكونَ تسلسُل الأجيال وشجرةُ الأنساب من الأهداف والمَشاغل الرَّئيسة أثناء حُكم النّازيِّ لإثبات انتماء الألمانيِّ بسماته الآريّة إلى أصوله العرقيّة الجرمانيّة. نُضيف إلى ذلك أيديولوجيّةً شوفونيّةً استعلائيّةً تَرى الألمانَ (فوقَ جميعِ الأجناس والشُّعوب)، ومن ثَمَّ فمَن يَحمل هذه الصِّفاتِ المُتميِّزةَ فإنَّه يَنظرُ إلى سائر البشرِ

١ - وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب، ج١، ص ٣٧.
٢ - زينب الطحان: الرواية الغربيَّة وإشاقة العنصرية اختلاقًا وترسيخًا، (مقال إلكتروني).
٣ - وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب، ج١، ص٣٧.

الآخَرينَ على أنَّهم يَنتمونَ إلى مستوى ذكاءٍ أدنى بكثير، إنَّهم في نظرِهم أمثلةٌ حيّةٌ على صِدقِ نظريّةِ داروين في نشأة الأنواع وتطوُّرها. ومن ثمَّ عندما أصبحَ (هتلر) مستشارًا لألمانيا طبَّقَ رؤيتَه المُتعصِّبةَ للجنسِ الآريِّ؛ فعَمل على إبادة الأجناسِ التي رأى أنَّها أدنى كاليهود والغجر والرُّوس، كما منعَ قيامَ الأحزاب اليَسارية والاتِّحاداتِ العُماليّة، وألقى بمُعارضيهِ في السُّجون ومُعسكرات الاعتقال [1].

وهكذا تأسَّسَت العُنْصُريَّةُ الغربيَّة التي قامَت على صورة للذّات شديدة الإيثارِ والإيجابيّة، تُقابلها صورةٌ للآخَرينَ مُوغِلةٌ في الدُّونيّة والسَّلبية، بحيث تتعذَّرُ كافّةُ أسبابِ التَّعاملِ معَهم على أساسٍ من النِّديّةِ الحَقيقية، وقد امتدَّ أثرُ هذه العُنْصُريَّة إلى الأدب والفنِّ والإعلام، كما عمل الغربُ على استخدام تلك المَجالات باعتبارها آليّاتٍ فعّالةً لتَبريرِ عنصريّته البَغيضة، وهو ما سنَعرض له بالتَّفصيل في المباحثِ الآتية من محاور هذا البحث.

ثانيًا: العُنْصُريَّة الغربيَّة واستخداماتُها في الأدب

آمنَ كثيرٌ من أدَباء الغَرب بنَظريّة التَّعالي والتفوُّق للعِرق الأبيضِ الأوروبيِّ؛ ولذلك لم يكن غَريبًا أن يُمجِّدوا ثقافةَ هذا العِرق العنصريِّ في المستويات الأدبيّة كافّة، وأسَّسوا لذلك أعمدةً بنيويّةً فلسفيّةً تَفصل بينَ «الأبيض» وغير «الأبيض»، بوصف هذا الفَصل «أسطورةً» من أساطير الإمبرياليّة ذاتها[2].

وقد استغلَّ الغربيُّ الأدبَ، على النَّحو الأمثلِ، لبَسط أفكاره الأيديولوجيّة على العالَم أجمَع؛ فنَجدُه يُقدِّمُ ثقافتَه على أنَّها الثَّقافةُ الوحيدةُ التي تصنع للإنسان حضارتَه وتَقدُّمَه، بينَما هي أداةٌ أيديولوجيّةٌ ووسيلةٌ غادرةٌ في تَزوير الحَقائق وتشويه التاريخ الإنسانيِّ، وطيِّ الوَعي المُقاوم للاستعمار والإمبرياليّة. إنَّ الأدبَ، حينَ يُصوِّرُ بهذا الشّكلِ الثَّقافيِّ المُوجَّه، يُنتجُ وَعيًا زائفًا، ويُؤسِّس لمَنظومة تَربويّة تَنشأُ عليها الأجيال، ولذلك فإنَّ المُتتبِّعَ للأدب الغربيِّ، وللرِّواية منه على وجه الخُصوص، يُلاحظُ مَدى توغُّلِ هذا الأدب بروحٍ عُنصريّة وكراهيّة شَديدة من الأبيض الأوروبيِّ والأميركيِّ تُجاهَ الآخَر، أيًّا كان هذا الآخَرُ، أسودَ (زنجيًّا)، أو آسيويًّا، أو عربيًّا، أو

١ - وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب، ج١، ص٣٨.
٢ - زينب الطحان: الرواية الغربيَّة وإشاقة العنصرية اختلافًا وترسيخًا.

إسلاميًّا؛ إذ يَسود في الرِّوايةِ الغَربيَّة، عند مُعظمِ كُتّابها هذا الاستعلاءُ العنصريُّ [١].

وتأكيدًا لهذا ما نَجدُه في رواية (هاربر لي- Harper Lee) المُعنوَنة «أنْ تَقتُلَ عصفورًا ساخرًا To Kill a Mockingbird» وفيها يُواجهُ «توم روبينسون» الأمريكيُّ من أصول إفريقيّة تُهمةَ اغتصاب مُوجَّهةً إليه من فتاة بيضاء تُدعى «مايلا»، ويَرفض المُحامونَ في البلدة الدِّفاعَ عن «توم» بسبب العُنْصُريَّة تجاهَ سُودِ البَشرة، الأمر الذي يَجعل القاضيَ «تايلور» مُضطرًّا لتَعيين «أتيكوس» للدِّفاع عن «توم»، وعندَما يَقبل «أتيكوس» مَهمّة الدِّفاعِ التي أسندَها له القاضي يتعرَّضُ للكثيرِ من المَتاعب نَظرًا لقَبوله الدِّفاعَ عن «نذل ذي بشرة سَوداء»!

وخلالَ المُحاكمة يُقدِّمُ المُحامي «أتيكوس» أدلّةً ساطعةً وبراهينَ قاطعةً تُثبتُ أن «مايلا» لم تتعرَّضْ للاغتصاب من قِبَلِ «توم»، وكلُّ ما في الأمر أنَّ «مايلا» حاولَت إغراءَ توم الذي تعفَّفَ ورَفَضَ إغراءات «مايلا»، وقد تَزامن معَ رفضِ «توم» رؤيةُ والدِ «مايلا» لها من خلال النّافذة، فلكمَها بيده اليُسرى على عكس ادِّعاء «مايلا» بأنَّ «توم» هو مَن لكمها وهو يُحاول اغتصابَها عنوةً، وتَزدادُ صِحّةُ كلام «أتيكوس» معَ بيان أنَّ يدَ «توم» اليُسرى مشلولةٌ، ممّا يَجعل لكمةَ «توم» لـ«مايلا» مُستحيلةً. وعلى الرّغم من تَوفُّرِ الأدلة القاطعةِ والبَراهينِ السّاطعةِ على براءة «توم» لكنّ المحكمةَ العُنْصُريَّةَ تُصدرُ حُكمَها عليه بالإدانة! [٢].

كما تُعدُّ روايةُ «العين الأشدِّ زُرقةً The Bluest Eye» للمؤلِّفة (توني موريسون-Toni Morrison) من الرِّوايات التي نجحَتْ في تَجسيد مُعاناة السُّودِ في المُجتمع الأمريكيِّ؛ حيث تتحدّث الرِّوايةُ عن الفتاة "بيكولا" التي يَجري نَعتُها بشكلٍ مُستمرٍّ بالقُبح من أبناء مُجتمعها، في المدرسة والحيِّ والشّارعِ نَظرًا لبَشرتها السَّوداء. و"بيكولا" هي ابنةٌ لسكّيرٍ مُستهترٍ يَغتصبُ ابنتَه ويَتشاجرُ مع زَوجته باستمرار، (وهي صورةٌ مَرسومةٌ بتعمُّد مَقصود للأسودِ في مُقابلِ الأبيضِ المُتحضِّر)! ونَتيجةً لذلك، تُصاب "بيكولا" بعُقدة الدُّونيّة التي تُؤجِّجُ رغبتَها في أن يكون لها عيونٌ زَرقاء، يمُكنُ أن تَربطَها بذَوي البشرة البَيضاء. لتُصابَ بالجُنون في آخرِ الرِّواية، فالجنونُ هو السَّبيلُ الوَحيدُ للهُروبِ من العالَم الذي لا يمُكن لـ"بيكولا" أن تكونَ فيه جميلةً ذاتَ عَينَينِ زَرقاوَينِ يمُكِّناها من الهَربِ من الظُّلمِ الذي يتسبَّبُ لها فيه لونُ بشرتها الأدكن.

---

١ - زينب الطحان: الرواية الغربيَّة وإشاقة العنصرية اختلاقًا وترسيخًا.

2 - Harper Lee: To Kill a Mockingbird.

وهنا تُشـيرُ الرِّوايةُ إلى عنصريّة الأبيضِ الذي يَرى أنَّ التفـوُّقَ، والقوّةَ، والفَضيلةَ، والجمالَ، مُتأصِّلـةٌ في البَشرة البَيضاء دونَ غيرِها، كما تُؤكِّـدُ الرِّوايةُ كذلك على أنَّ معاييرَ الجمالِ تَضمُّها الصُّوَرُ المَرئيّةُ في وسائل الإعلام؛ كما تتجلَّى معَ (شيرلي تمبل- Shirley Temple)[٣]، أو (ماري جـين-Mary Jane)[٤] أو غيرِهما من ذوات العيونِ الزَّرقاءِ والبَـشرةِ البَيضاءِ اللاّتي تَظهرْنَ على أغلفة المَجلاّت أو إعلاناتِ الحَلوى [٥].

كذلكَ تَعكس روايةُ (كيلي رايد- Kiley Reid) المُعنونة بـ "Such A Fun Age" أو "مثل هذا العَصر المَرح"؛ حيثُ تُواصِلُ هذه الرِّوايةُ مُمارَسةَ الاستعلاءِ الغَربيِّ تُجاهَ الأجناسِ الأُخرى من البشر؛ وتَدور أحداثُ هذه الرِّوايةِ حولَ فتاةٍ شابّةٍ سَوداء تُدعى «إميرا» تَعمل جليسةَ أطفال، ومن الأطفالِ الذينَ تَهتمُّ بهم في عَملِها طِفلٌ يُدعى «بريار»، وهو طفلٌ أبيضُ البَشرةِ، يَنحدر من أبوَينِ أبيضَينِ، تَصطحبُ «إميرا» الطِّفلَ ذاتَ يومٍ إلى أحدِ المَتاجرِ لشراءِ بعضِ الحاجيات، وهناكَ تُتَّهم تُتَّهم من بعض المَوجودينَ بالمَتجرِ باختطافِها للطِّفلِ الأبيضِ، لكونها سَـوداءَ تَصطَحبُ طِفلاً أبيضَ؛ لتتجسَّدَ تلكَ النَّظرةُ الدُّونيّةُ تُجاهَ أصحابِ البَشرة السَّوداء، فهُم دائمًا مَوضعُ اتِّهامٍ واحتقارٍ من ذَوي البَشرة البَيضاءِ، الذينَ يتصوَّرونَ أنَّهم أرقى من بقيّةِ الأجناسِ الأخرى[٦].

أمّا روايةُ «استسـلام» للكاتب الفرنسيِّ العُنصريِّ (ميشال ويلبيك -Michel Houellebecq) فتُعدُّ من أخطرِ الرِّواياتِ التي تأسَّسَـت فيها العُنْصُريَّةُ على أساس الدِّينِ؛ إذ يَلعب المُؤلِّفُ فيها على وترِ الإسلاموفوبيا؛ إذ إنَّه مَعروفٌ بعَدواته للمُسلمين وبتصرُّفاته الاستفزازيّةِ الدّائمة تجاهَهم، ممّا جعلَ السُّلطاتِ الفرنسيّةَ تَضع منزلَه تحتَ الحِمايةِ حتى لا يَنالَه أذًى نتيجةَ تصرُّفاتِه العُنْصُريَّة.

---

٣ - شيرلي تمبل Shirley Temple فنانة أمريكية من مواليد ١٩٢٨م، اشتهرت بمواهبها الفائقة في الرقص والغناء والتمثيل منذ طفولتها المبكرة، حيث كانت الطفلةَ الأشهر في تاريخ هوليود؛ إذ كانت تغنِّي وترقص وتمُثِّل. حازت على شهرة دولية عن دورها في فيلم العيون اللامعة ١٩٣٤، ووُضعت صورتها على كثير من المنتجات من الملابس والأطباق والدُّمى. كما كتبتْ سيرةً ذاتية لاقَت ذيوعًا وانتشارًا، وعملت سفيرة أمريكية سابقة في غانا وتشيكوسلوفاكيا.

٤ - ماري جين Mary Jane هي شخصية خيالية في مارفيل كوميكس، من ابتكار ستان لي وجون روميتا الأب، ظهرت لأول مرة عام ١٩٦٥ لفتاة جميلة ذات شعر أحمر وعينين زرقاوين كواحدة من أشهر شخصيات القصص المُصوَّرة.

5 - Toni Morrison: The Bluest Eye.

6 - Kiley Reid: Such A Fun Age.

وإذا رجعْنا إلى روايته «استسلام» نجدُ أحداثَها تَدورُ حولَ البطلِ «فرانسوا»، الذي يَعمل أستاذًا في جامعة السُّوربون، ويَقضي معظمَ وقته بينَ التَّدريسِ في الجامعة ومُغامراته العاطفيّة مع الطّالبات، وذلك في شقّته الفاخرة في الدّائرة الثّالثةَ عشرةَ بباريس، وتَحكي الرِّوايةُ عن فرنسا خلال عام ٢٠٢٢، حيث تتحوَّلُ إلى دولة إسلاميّة عقبَ انتخابات جمهوريّة نَزيهة، دونَ أيِّ تدخُّلات خارجيّة، ويَصل إلى سدّة الحُكم الرَّئيسُ المُسلم محمد بن عباس بعدَ فوز حزبه «الأُخوّة الإسلامية» في الانتخابات، وفي أعقاب فوز الإسلاميِّينَ بالحُكم تَبدأ فرنسا في التحوُّل شيئًا فشيئًا؛ إذ يَشعر الفرنسيُّونَ بالارتباك من تحوُّل الدَّولة إلى النِّظام الإسلاميِّ الذي تجلَّى في اختفاء نساء يَلبسْنَ تنُّورات، وفي محاولات الدَّولة نشرَ الإسلام عن طريق التَّعليم، وفي توجيه البَنات إلى مدارس التَّدبير المَنزليِّ بعدَ الابتدائيّة، ومَنعهنَّ من العَمل، وإجبارهنَّ على الزَّواج ابتداءً من ١٥ عامًا من رجال مُتعدِّدي الزَّوجات. في النِّهاية رواية "استسلام" هي روايةٌ عُنصريّةٌ مُخيفةٌ عن تَهيُّؤات وتَخيُّلات الرَّجل الغَربيِّ عن الإسلام، لشَحذ هِمَم الغربيِّينَ ضدَّ الإسلام، الذي يتمُّ تصويرُه على أنَّه يُحاولُ التأثيرَ في الرَّجل الأوروبيِّ، وانتزاعَ أراضيه، وإعادةَ تَرتيب العالَم [1].

وعلى هذا الأساس يُمكننا رصدُ عشرات الرِّوايات التي تُؤسِّسُ للتَّمييز العُنصريِّ، وتُعلي من شأن الأبيضِ على الأسود، أو المَسيحيِّ الأوروبيِّ على المُسلم الشَّرقيِّ أو تُحاولُ الردَّ على تلكَ العُنْصُريَّة بروايات مُضادّة، ومن أشهر هذه الرِّوايات العُنصريّة التي تَحوَّل معظمُها لأفلام سينمائيّة أو مسرحيّات عُرضت على أشهر مسارح الغَرب، مثل: «أبشالوم! أبشالوم»، و«الضوء في أغسطس» للكاتب الأمريكي (ويليام فوكنر- William Faulkner)، ورواية «الأشكال الصغيرة العظيمة» للكاتبة الأمريكية (جودي بيكوليت- Jodi Picoult)، ورواية الكاتبة الأمريكية (كارسون ماكولرز- Carson McCullers)" المُعنوَنة «القلب صيّاد وحيد»، ورواية (آنجي توماس- Angie Thomas)«الكراهية التي تسببها»، ورواية «اللون الأرجواني» للكاتبة الأمريكية (أليس والكر- Alice Walker)، ورواية «فتاة سوداء وفتاة بيضاء» للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس -Carol Oates)، ورواية «الرَّجل الخفيّ» لـ(رالف أليسون-Ralph Ellison)، ورواية «سيميسولا» للكاتبة البريطانية (روث رندل- Ruth Rendell)... وغير ذلك من روايات يَصعب حصرُها. تلك الرِّواياتُ التي تَدور في فَلَكٍ عُنصريٍّ مُتشبِّعٍ برُوحٍ عُنصريّةٍ وكراهيّةٍ شَديدة من الأبيض الأوروبيِّ

١ - أسماء رمضان: الأدب العنصري: كيف نجح اليمين المتطرف في الفوز بالمعركة الثقافية، (مقال إلكتروني).

والأميركيِّ تُجاهَ كلِّ مَن هو غيرُ أوروبيٍّ، لا سيَّما أصحابُ البشرة السَّوداء الدّاكنة.

تلك هي العُنْصُريَّةُ التي عكسَـها الواقـعُ قبلَ الأعمال الأدبية؛ إذ يَعرف العالَمُ أجمع مأسـاةَ (جورج ماكلورين- George W. McLaurin)، وهو أوَّلُ رجلٍ أسودَ تمَّ قَبولُه في جامعة أوكلاهوما عـام ١٩٤٨م لكنَّه أُجبرَ على الجلوسِ في زاويةٍ مـن قاعة المُحاضرات بَعيدًا عن زملائه البيضِ في انعـزال تامٍّ عن الزُّملاءِ والمُعلِّمينَ؛ وقد اسـتطاع (ماكلورين)، من خـلال اجتهاده ومثابرته، أن يَخلق له واقعًا جديدًا خلَّد من خلاله نفسَـه في قائمةِ الشَّرف، بوصفه واحدًا من أفضلِ ثلاثةِ طُلّابٍ مَرُّوا بتاريخ جامعة أوكلاهوما.

وقد انسحبَت هذه الهويّةُ السَّرديّة عن طريق التكرار على مَدى أجيالٍ مُتعاقبة، حتى باتَت جزءًا أساسًـا ومكوِّنًا رئيسًا من مكوناتِ الثَّقافة الغَربيَّة، ومَعْلمًا رئيسًا عندَ معظم مُنتجيها من مُفكِّرينَ ومُثقَّفينَ وفلاسفة، عَمدوا إلى إقناعِ الآخَرِ أنَّه عاجزٌ فطريًّا أمامَ التفوُّقِ البيولوجيِّ (التركيبة الإلهيّة) لـلأوروبيّ. لذا، لا بدَّ أن يُترَكَ له زمامُ الأمور من سـيطرةٍ وهَيمنةٍ وإدارةٍ وتَحكُّمٍ بشُـؤون العالَم وشُـعوبه[1]. ومن ثَمَّ يُبرّر الاسـتعمار؛ بل يُصبح ضرَورةً مُلحّةً يَجب أن تَقبلَها الشُّـعوبُ الأقلُّ ذكاءً وعلمًا ومَعرفةً حتّى يتمَّ نَقلُ هذهِ الشُّـعوبِ – بواسطة الأوروبيِّينَ المُتحضِّرينَ- إلى التمدُّنِ والتحضُّر والتقدُّم!

أيُّ أكذوبةٍ هذه! التي يُحاولُ الأدبُ الغربيُّ أن يَسـتخدمَها ذَريعةً لاسـتعباد شـعوبٍ يُريد أن يُقنعَهـا بدُونيّتها، وأنَّ عليها أن تَقبل عبوديّتَها واسـترقاقَها من «السـيِّدِ الغَـربيّ» بكلِّ رِضًا حتّى يُمكنَها أن تَلحقَ بركبِ الحَضارة. وللأسف الشَّديد نجحَ الغربيُّ في صناعة عُملاءَ وأتباعٍ له، من أبناء هذه الشُّعوب، تشبَّعوا بثقافته، ورَدَّدوا تلكَ الأفكارَ الزّائفةَ، وآمَنوا بها وحاوَلوا أن يُقنعوا بها غيرَهم! لتُصبحَ العُنْصُريَّة- في رأينا- الذِّراعَ الطُّولى لتبرير الاستعمار، وتَبرير الاضطهادِ واسترقاقِ الشُّعوبِ الأُخرى، ونبذِ وإقصاءِ كلِّ ما هو ليسَ غربيًّا.

وهكـذا يُحاولُ العنصريُّ الغـربيُّ أن يُجمِّلَ وجهَه القبيحَ من خـلال بعضِ الأعمال الأدبية، فأسَّسَ لطبقة من الأدباء العُنصريِّينَ، جعلَ مَهمّتهم أن يُزيِّنوا وجهَ استعمارهم الوحشيِّ، ويُلبسوهُ وَجهًا ثقافيًّا بصبغةٍ جماليّة فنيّة، تَجعل القارئَ الأوروبيَّ يَستمتعُ ويَتشرَّبُ تلك الرُّوحَ العُنْصُريَّةَ ممّا يَقرؤُه ويُرسَّـخ في ذاكرتـه. وهو الأمرُ الذي تنبَّهَ له الأسـودُ في الغربِ والشَّرق، وعمل على

١ - زينب الطحان: الرواية الغربيَّة وإشاقة العنصرية اختلافًا وترسيخًا.

مُواجهتِه بالوَسيلةِ نفسِها حتى شهدَ لهم العالَمُ بالإبداع؛ بل نالَ إبداعُهم الرِّوائيُّ كثيراً من الجوائز العالميةِ من نوبل وغيرِها.

ثالثًا- العُنْصُريَّة الغربيَّة واستخداماتها في الفن

استخدمَت العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ الفنَّ لتأكيد فكرة سيادة الرَّجل الأبيض، وتَرسيخ تفوُّقِه على غيرِه من السُّود الأفارقة والعرب والمُسلمين والهنود، حتى أنَّ رواية تاريخ الفنِّ العالَمي أصبحَت حكرًا عليه وحدَه دونَ غيرِه، فالشُّعوب الأخرى غيرُ قادرة على إبداع الفنِّ الجَميل، فبَقيت العُنْصُريَّةُ كامنةً في التَّفاصيل الدَّقيقة للإبداعاتِ الفنيّة كما كمنَت في تفاصيلِ الرِّواية. فإذا وقفْنا أمام بعضِ لوحاتِ الفنِّ التَّشكيليِّ سنَجدُها مَشحونةً بتَعبيراتٍ عُنصريّةٍ ذاتِ رسائلَ تُعبِّرُ عن سيادة العِرق الأبيض ونقائه، ودُونيّة الأجناس الأخرى.

ومن أهمِّ هذه اللَّوحات التَّشكيليّة العُنْصُريَّة نقفُ أمام لوحة «المربع الأسود» أو «مربع مالفيتش» للفنّان الرُّوسي (كازيمير مالفيتش- Kazimir Malevich)؛ حيث رسمَ هذه اللَّوحةَ حوالي عام ١٩١٥، وكما يَبدو من اسمها، فهي تُعبِّر عن تحيُّز ضدَّ السُّود؛ واللَّوحةُ ببساطة عبارة عن مُربَّعٍ أسودَ على خَلفيّةٍ بيضاء، وقد كشفَ البحثُ الأخيرُ، الذي أجراهُ مجموعةٌ من الباحثينَ على اللَّوحة بعدَ مرور ١٠٠ عام على رسمها، نقوشًا بخطِّ اليَد تَحوى عباراتٍ عُنصريّةً، تَقول "معركةُ الزُّنوجِ في كهف مُظلِم" بعد أن وَضعوا اللَّوحةَ تحتَ المجهر، وهو ما يُشير إلى تأثُّر (ماليفيتش) الكبير بالرَّسام الفرنسيِّ غريبِ الأطوار الذي يُدعى (ألفونس إلي)، الذي رسم لوحةَ "صراع زنوجٍ في كهف مُظلِم في ليلة داكنة» عام ١٨٨٢. وقد فسَّرَ كثيرونَ بأنَّ هذه العبارةَ بها تهكُّمٌ على أصحاب البشرة السَّوداء، وهي أنَّكَ لا تَستطيع رؤيةَ السُّودِ في الظَّلام، وهذا هو السَّبب في أنَّ اللَّوحة على مُربَّعٍ أسود [1].

وتظلُّ لوحةُ «فتاة زنجية»، التي رسمَها الفنانُ التَّشكيليُّ (سيمون مارس- Simon Mars)، والتي رُسمت في غضون عام ١٩٠٠، من أشهر اللَّوحات العُنْصُريَّةِ إثارةً للجدل؛ حيث طالبَ كثيرٌ من الحقوقيِّينَ بتَغيير اسمِها لِما يَحمل من إشاراتٍ عُنصريّةٍ سافرةٍ مُمثَّلة في كلمة «زنجية»، التي تَرمز للفتاة صاحبةِ البَشرة السَّوداء التي تَظهر في الصُّورة، حتى تمَّ تغييرُها إلى «فتاة مع مروحة»

١ - سمير حماد: ٤ لوحات تشكيلية تبرز العنصرية "فتاة زنجية" و"لا مكان للمهاجرين"، (مقال إلكتروني).

بدلاً من «فتاة زنجية». كما أنَّ هذه اللَّوحة لو كانَت لفتاة بيضاء كالموناليزا لكانَت سُـمِّيَت باسم الفتاة المَرسومة، أمَّا لأنَّها ليسَت بيضاء فيَتمُّ الإشارةُ إليها باسم عامٍّ وليس باسمِ الفتاة، وفي ذلك تقليلٌ وتَحقيرٌ واضحان تحملُهما عنصريّةُ الأبيضِ.

ومن اللَّوحاتِ العُنصريّةِ لوحةُ «لا مكان للمُهاجرين» التي تُنسَب للفنان البريطانيِّ التَّشكيليّ (بانسـكي-Banksy)، والتي رُسـمت على جدارِ أحدِ المَباني في مدينة (كلاكتون أون سـيتي) البرَيطانية. وقد حملَت اللَّوحةُ بعضَ الايماءات العُنْصُريَّة من خلال خمسِ حمامات تَقف حاملةً عبارات: "لا مَكانَ هنا للمُهاجرينَ"، و"ارجعوا إلى إفريقيا" في وجه حمامةٍ أخرى يتَّضحُ عليها علاماتُ الانكسار، في إشارة إلى المُهاجرينَ الأفارقةِ الذين رَحلوا إلى أوروبا في القرون الوسطى [1]، لتُعَدَّ هذه اللَّوحةُ الإرهاصاتِ الأولى لليَمين المتطرِّف في أوروبا.

كـما يَبقـى تمثـالُ عالـمِ الآثـار الفرنـسيِّ (جـون فرانسـوا شـامبليون-Jean-François Champollion)[2] من أشهرِ التَّماثيل العُنْصرُيَّة في العالم؛ حيث يُجسِّدُ هذا التِّمثالُ (شامبليون) واضعًا إحدى قدمَيه على رأس ملكٍ فرعونيٍّ، يُرجَّحُ أنَّه (أخناتون) الملك الذي دَعا إلى التَّوحيد، أو الملك رمسـيس الثّاني، وهو مـن أعظمِ ملوكِ مصرَ الفرعونيّة. وهو الأمـرُ الذي يَحمل نظرةً عُنصريّةً مَقيتةً تجاهَ الحضارة الفرعونيّةِ العَظيمة التي يَعجز العِلمُ حتى اليومِ عن تفسيرِ مُنجزاتها الهندسية والطِّبية.

ويَعكسُ هذا التِّمثالُ أمورًا مُهمّةً حول تناقضاتِ الغَربِ وتَهافُتِ مَزاعمه عن الحرّيةِ والتَّسامُح؛ حيث إنَّ هذا التِّمثالَ العنصريَّ من صناعة (أوغيسـت بيرتولدي-Auguste Bartholdi)، الذي

---

١ - سمير حماد: ٤ لوحات تشكيلية تبرز العنصرية "فتاة زنجية" و"لا مكان للمهاجرين"، (مقال إلكتروني).

٢ - شامبليون هو ذلك العالم الذي جاء مع الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، ويزعمون أنه استطاع فكَّ رموز حجر رشيد، واستطاع أن يُفسِّر النقوشَ المرسومةَ عليه، والتي كُتبت بالهيروغليفية أو اللغة المصرية القديمة والديموطيقية واليونانية، رغم أن البحث الدَّقيق أثبتَ أنَّ العالمَ العربيَّ أحمد بن أبي بكر بن وحشية، الذي عاش في العراق فيما بين القرنين التاسع والعاشر الميلادي، استطاعَ أن يكتب كتابًا مهمًّا عنوانه» شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام»، استطاع فيه أن يُفسِّر رموز اللُّغة المصرية القديمة، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية ونُشر في لندن عام ١٨٠٦ أي قبل أن يبدأ شامبليون في محاولة فكِّ هذه الرموز. كما أن الصُّوفي الشَّهير» ذو النون المصري»، الذي نشأ في صعيد مصر في بداية القرن التاسع الميلادي، كان على علم باللُّغة القبطية القديمة وبالهيروغليفية والديموطيقية، وتركَ آثارًا في تفسير هذه الكتابات القديمة، ولا شكَّ أن شامبليون قد وقفَ على جهود هؤلاء العلماء، ونسبَ لنفسِه فضلَ فكِّ رموز حجر رشيد دون أن يُشير إلى جهود هؤلاء الذين ساعدوه.

صنعَ التِّمثالَ الأشــهرَ تمثالَ الحريّة الموجود في الولايات المتَّحدة الأميركية. والذي يُعَدُّ أيقونةَ الحريّةِ في العالم، كما أنَّ هذا التِّمثالَ يُوضَع في ســاحة كليّةِ باريس بجامعة السُّــوربون العَريقة راعيةِ الثَّقافة والتَّنوير والتَّسامُح!

أمّــا إذا وصلْنــا إلى محطة السِّــينما الغَربيَّة؛ فإنَّنا بصدد قائمــة طَويلة من الأفلام السِّــينمائيّة العُنْصُريَّة استخدمَ فيها الغربيُّ الأبيضُ العُنْصُريَّةَ لإيصال رسالة مُفادُها أنَّ العرقَ الغربيَّ الأبيضَ أعلى مَكانةً من الأعراق الأخرى، ومن ثَمَّ يجبُ أن يظلَّ غيرُ الغربيِّ خاضعًا وتابعًا للسيِّد الأبيض الذي يَستطيعُ أن يَرفع من شأنه في سلَّم الحَضارة والتقدُّم. ومن أشهر هذه الأفلام الجَديرة بالذِّكر في هذا الشّــأن فيلم التاريخ الأمريكي إكــس (American History X)، وهو فيلم أمريكيٌّ من إنتاج عام ١٩٩٨م، ومن إخراج (توني كايTony Kaye) و(آلان سميث- Alan Smith)، وبطولة (إدوارد نورتون- Edward Norton) و(إدوارد فورلونغ-Edward Furlong)، وتدور قصّةُ الفيلم حول «ديريك»، الذي دخل السِّجنَ بعد أن قتلَ شابَّين أسودَين كانا يُحاولان سرقةَ سيارته. لكن ذلك لم يكنْ هو السَّببَ الوحيدَ الذي دفع «ديريك» لقتلِ الشّابَّين الأسودَين؛ وإنَّما حِقدُه الدَّفينُ على السُّود الذين قتلوا والدَه بطريق الخطأ؛ فوالدُه كان رجلَ إطفاء ذهبَ لإطفاء حريق في حيٍّ يَسكنُه السُّودُ فلقيَ مصرعَه. وبعدَ خروج «ديريك» من السِّجن يَجدُ أخاهُ الأصغرَ «داني» قد انضمَّ إلى مجموعةٍ من النّازيِّينَ الجُدد، كان ديريك هو قائدها قبلَ أن يَدخُلَ السِّــجنَ، وكان السَّــبب الوحيــد الذي جعل «داني» يَنضمُّ إلى هذه المجموعة هو الاقتداء بأخيه الأكبر. ومع محاولات مُؤلِّــف الفيلم ومُخرجه التَّخفيفَ من نغمة العُنْصُريَّة الفَجّة بــأن يَجعلا بطلَ الفيلم يتغيَّرُ داخلَ السِّــجن، ويَتَّخذ صديقًا أو شِبهَ صديقٍ من السُّــودِ! لكنّ العُنْصُريَّةَ البَغيضةَ تَستحوذُ تمامًا على مُعظم مَشاهد الفيلم [1].

كما يظــلُّ الفيلم البريطانيُّ/ الأمريــكي " ١٢ عامًا من العبوديــة (12Years A Slave)، الذي عُــرضَ في مهرجان تيلورايد السِّــينمائي عام ٢٠١٣، من أهمِّ الأفــلام العُنْصُريَّة الغربيَّة وأكثرها شهرةً وتعبيراً عن فَجاجة العُنْصُريَّة الغَربيَّة؛ حيثُ تدورُ أحداثُ الفيلم حول «سولمون نورثوب»، وهو شــخصٌ أســودُ يَعمل نجّارًا وعازفَ كمان، يَعيــش مع زوجته وابنتَيــه في نيويورك، يجري اختطافُه وشــحنُه مُقيَّــدًا بالأغلال إلى «نيو أورلينز» أكبرِ مُدن ولايــة لويزيانا الأمريكية، ويُعطى

١ - انظر فيلمAmerican History X.

له اســمُ «بلات»، وهو اســمُ أحدِ العَبيد الهاربــينَ إلى جورجيا، ويجري بيعُــه باعتباره عبدًا إلى صاحب مزرعةٍ يُســمَّى «وليام فورد». وبالرَّغم من أن «سولمون» يَستطيع تكوينَ علاقةٍ جيِّدةٍ مع «فورد» لكنّ النجّارَ العُنصريَّ «جون تيبيتس» يَســتاء من «ســولومون»، ويَبدأ في مضايقته حتى يَصل الأمرُ بـ(ســولمون) إلى ضرب «تيبيتس»، مما جعلَ الأخيرَ يَستعينُ بصديقَيه من أجل شنق «ســولمون»، الذي يَظلُّ مُعلَّقًا على الحبل لمدة ساعات حتى يتمكَّنَ «فورد» من إنقاذه، ثم يُقرِّرُ بيعَه، رغم المُحاولات المُضنية من «ســولمون» لإقناع «فورد» بأنَّه شــخصٌ حُــرٌّ لا يَجوزُ بَيعُه، لكنْ بلا جدوى، ليَشــتريَه «إدون إيبس» الذي يُؤمِنُ بأنَّ الحقَّ في إساءة مُعاملة عَبيده مُقرَّرةٌ في الإنجيل، ويُشجِّعُ عبيدَه على قَبول مَصيرهم المَحتوم بأنْ يَقرأ لهم في كثيرٍ من الأحيان آياتٍ من الكتاب المُقدَّس المُؤيِّدة للعُبودية، ويُكلِّفُ عبيدَه بأفعال شــاقّة جدًّا؛ حتى «باتسي» تلكَ الفتاةُ السَّــوداءُ، التي تقعُ في حبِّ جلّادها «إيبس»، تقوم بكل الأفعالِ الشّــاقّة التي يَطلُبُها منها؛ لكنَّه يَغتصِبُها مرّاتٍ ومــرّات، وعندَما تَعلم زوجتُه بالعَلاقة بينَهما تقومُ بضربِ «باتسي» بمناســبة أو دون مناسبة، حتى تَطلبَ «باتسي» من «ســولمون» مساعدتَها على الانتحار، لكنَّه يَرفض، وفي النِّهاية يَرى «إيبس» أنَّ العَبيدَ الجُدد ســبَّبوا تَفشِّي دودةِ القُطنِ في المَزارع، وهو بلاءٌ من الربِّ؛ فيَقوم بتأجيرِهم لصاحبِ مَزرعةِ سُــكَّر. وحينَما يَعودون إليه يَســطو على أموالهم التي كَسبوها، ثم يُسيءُ معاملتَهم حتى يأمرَ بجَلد «باتسي» عاريةً، ويأمر «سولمون» أن يَقوم بذلك فيُوافق بعدَ تردُّدٍ، ثم تَتوالى محاولاتُ «سولمون» لنيلِ حُريّته حتى يَنالَها بعد اثنَي عشرَ عامًا من العُبوديّة[1].

وهناك كثيرٌ من الأفلام الغربيَّة التي يَصعب حصرُها تَدور حول اســتعلاءِ الغربيِّ الأبيضِ على الأسوَد. كما تَحتلُّ العُنْصُريَّةُ البَغيضةُ تجاهَ العرب والمُسلمينَ مكانًا بارزًا في السِّينما الأمريكية، فــلا تَخرج صورةُ العربيِّ المُســلم في السِّــينما الأمريكية عن تَصويره على أنَّــه واحدٌ من ثلاثة: مليونــير، إرهابي، عربيد. وقد عرضَت هوليوود ما يَتراوح بين ١٥ و٢٠ فيلمًا أســبوعيًّا في الفترة من عام ١٩٨٦ إلى ١٩٩٥ تَســخَرُ فيها من العرب، وأقحمَت صورةً بَغيضةً للعرب والمســلمين في أكثرَ من مئةٍ وخمسينَ فيلمًا، لم يكنْ مَوضوعُها عن العَرب أو الشَّرق الأوسط[2].

في عام ١٩٩١ عُرض فيلمٌ أمريكيٌّ اسمُه (ليس بدون ابنتي Not Without My Daughter)

١ - انظر فيلم ١٢ Years A slave.

٢ - رجب البنا: صناعة العداء للإسلام، ص ١١٤.

يُصوِّرُ رجلاً مُسلمًا مُنافقًا وكذَّابًا يَخطف زوجتَه الأمريكيّةَ إلى إيران، وهناكَ يَسجنُها، ويُسيءُ معاملتَها، ويَصفَعُها على وجهها ويَقول لها مُتباهيًا (أنا مسلم)، ويُقسِمُ للنّاسِ على القرآن ويَحنث، وتُحاولُ الزَّوجةُ الهربَ مع ابنتِها إلى أمريكا بعدَ انحيازِ زَوجِها للثَّورة الإيرانيّة ومُعاداة أمريكا؛ إذ يَحرص الفيلمُ على عرض صورةٍ نمَطيّةٍ للمُسلم بأنَّه وَقِحٌ، وكَذوب، ويَرفض التحضُّرَ، ويُدمِّرُ اقتصادَ العالَم، ويَخطف النِّساءَ الغَربيّات، ويُعاملُهنَّ بفَظاظة وقَسوة. كما يُصوِّرُ فيلمُ (أكاذيب حقيقيةTrue Lies) من إنتاج عام ١٩٩٤م الفلسطينيِّينَ المُسلمينَ على أنَّهم يتميَّزونَ بالعُدوانيّة والسّادية، ويتلذَّذونَ بتَعذيبِ وقَتلِ الأمريكيِّينَ الأبرياء، بل ويَقتلون القَساوسةَ دون اعتبارٍ أو احترامٍ لحُرمةِ رجال الدِّين. وفي فيلم (القرار التنفيذيExecutive Decision) من إنتاج ١٩٩٦م تَخطفُ مجموعةٌ من المُسلمينَ طائرةَ رُكّاب، ويَقتلون إحدى المُضيفات، ويُعدُّونَ لتَفريغِ كميّةٍ من غاز الأعصاب تكفي لقتلِ مَلايين من سكان العاصمة الأمريكية واشنطن[1].

وتَهدف هذه الأفلامُ العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ إلى تَصوير المُسلمينَ على أنَّهم برابرةٌ هَمجيُّونَ، ساديُّونَ، مُتعصِّبونَ، يَقتلونَ الأبرياءَ بأعصابٍ هادئة. كما تَهدف إلى غرسِ الشُّعورِ بالدُّونيّة لدى الأمريكيِّينَ العرب واشعارهم بالخَجلِ من أنَّهم من أصولٍ عربيّةٍ ومُسلمونَ، لكي يَنتهي بهم الأمرُ إلى التنكُّرِ لأصولهم العربيّة الإسلاميّة واخفاءِ هويّتهم، والخَجلِ من إعلانِ أنَّهم من أصول عربيّةٍ وأنَّهم مُسلمون![2]

رابعًا: العُنْصُريَّة الغربيَّة واستخداماتها في مجال الإعلام

استَخدمَت العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ الإعلامَ لتحقيق أغراضها وأهدافها الخَبيثة؛ فمَع إيمان الدَّوائر الحاكمة الأمريكيّة أنَّه لا يَنبغي مُطلقًا استخدامُ وسائلِ الإعلام البريطانيّة لنَقلِ الصُّورة الحقيقيّة المُتردِّية لأوضاعِ السُّود في أمريكا للعالَم الخارجيِّ، وحِرص أوروبا على عدمِ نقلِ إساءاتها المُستمرّة للمُهاجرينَ العرب والمُسلمينَ، راحَت الأخيرةُ تَستخدم الإعلامَ لتَشويهِ صورة المُسلمين، ونشطَ الإعلامُ في نقل هذه الصُّورة بشكلٍ واضحٍ جدًّا.

فقد حرصَتْ وسائلُ الإعلام في الولايات المتَّحدة الأمريكيّة في مارس ١٩٩١ على تجاهُلِ

١ - رجب البنا: صناعة العداء للإسلام، ص.ص١١٤-١١٥.

٢ - رجب البنا: صناعة العداء للإسلام، ص.ص١١٥-١١٦.

الخطابِ الذي وُجِّه إلى رئيس مجلسِ الأمنِ الدَّولي، وطالبَه بإجراءِ تحقيقٍ من قبل الأمم المتَّحدة عن انتهاكاتِ حقوقِ الإنسـانِ ضدَّ المُواطنينَ السُّودِ في الولايات المتَّحدة الأمريكية، وذلك إثرَ الأحداث التي جـرَت في أعقاب حادث (رودي كينـغ-Rodney King)[1]، عندَما اعتدَى عليه رجالُ الشُّرطة بوحشيّةٍ صارخة. ولقد اندهشَ العالَمُ أجمَعُ عندَما استقبلَ جملةَ (غير مُذنب) التي صدرَت عن هيئةِ مُحلَّفي (سـيمي فالي- Simi Vally) ضـدَّ مُرتكبي الحادث من رجال الشُّرطة البيضِ[2]. وهو الأمرُ الذي فضحَ الإعلامَ الأمريكيَّ بوصفه يمُارسُ تَضليلاً للرأي العامِّ العالميِّ، وأنَّ الزَّعم بأنَّ المُشـكلةَ العرقيّةَ قد جرى حلُّها، وأنَّ المُلوَّنـينَ يتمتَّعونَ داخلَ أمريكا بحالة من المُساواة، هو مَحض تضليلٍ مُتعمَّد من الإعلام الأمريكي.

وإذا كان من المُفترض أنَّ الدِّيمقراطيّةَ الأمريكيّةَ مُؤسَّسـةٌ على صحافةٍ حُرّةٍ تُزوِّدُ الأمريكيِّينَ بالمَعلومات الصَّحيحة؛ فإنَّ هذا الفَرض غيرُ صحيح بالمرّة إذا ما نَزلْنا إلى أرض الواقع؛ فالصّحافةُ الأمريكيّةُ مَليئةٌ بالتَّضليلِ المُتعمَّد والمَعلوماتِ المُشوَّهة عن الآخَر، سواء أكان الأفريقيَّ الأسودَ أو العربيَّ المُسلم. ويحتلُّ العربيُّ المُسلمُ اليوم النَّصيبَ الأكبرَ من التَّشويه في الصّحافة الغربيَّة؛ فعندَما يَرتكبُ مُسلمٌ جريمةً تُلصقُها الصّحافةُ الغربيَّة بالمسلمين جميعًا، ولا يَفعلون ذلك عندَما يَرتكبُ يَهوديٌّ أو مسـيحيٌّ جريمةً، بل يَنسبونها إلى شخصه دونَ إشارةٍ إلى ديانته، ولا يُعمِّمونَ صِفةَ الإجرام أو الإرهاب على اليهود أو المسيحيِّينَ جميعًا. وعقب كلِّ حادث إرهابيٍّ تَظهر في سـلوك الأمريكيِّينَ آثارُ الصُّورة الذِّهنيّة التي غرسَتْها وسـائلُ الإعلام والسِّينما، فيتعرَّضُ العربُ والمسلمونَ لمُضايقاتٍ وإهاناتٍ، ويكونُ العربيُّ والمُسـلمُ مَثارًا للسُّخرية والازدراء، والمتَّهمَ الجاهز لكلِّ جريمة، وحتى عندَما يَظهر المتَّهمُ الحقيقيُّ ويَتبيَّنُ أنَّه ليس عربيًّا مسلمًا لا تكترثُ الصُّحفُ الأمريكيّةُ بالتَّصحيح أو الاعتذار[3].

---

١ - رودي كينج Rodney King هو مواطن أمريكي من أصل إفريقي، وُلد في ٢ أبريل ١٩٦٥ في ولاية كاليفورنيا، اشتهر في نهاية القرن العشرين على خلفية أحداث دموية شهيرة وقعت في مدينة لوس أنجلوس، وسُمِّيَت بقضية "رودي كينج" الذي تعرَّض لضرب مُبرِّح من أفراد الشرطة الأمريكية تَصادف أن قام بتصوير الواقعة مصوِّرٌ هاوٍ، وقد حظيَ الفيديو بتغطية إعلامية هائلة، أسهَمَت في نشوب أعمال عنف عمَّت مدينة لوس أنجلوس، خاصّةً بعدَ تبرئة رجال الشُّرطة الذين اعتدَوا على كينج من قِبَلِ المَحاكم الأمريكية.

٢ - وفيق صفوت مختار، عنصرية الغرب ٣-٣، ص١٥.

٣ - وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب، ج٣، ص١٥.

ليس هذا فحسب، وإنَّما تُصِرُّ الصحافةُ الأمريكيّةُ على إدانة المُسلمينَ حتَّى بعدَ ثُبوتِ بَراءتِهم؛ فعَلى سبيلِ المِثال بعدَ مرور أسبوعٍ من إعلان اسم الإرهابيِّ الأمريكيِّ الذي ارتكبَ حادثَ تَفجيرِ مَبنـى أوكلاهوما عام ١٩٩٥، واتِّضاح الحقيقة بأنَّ المسـلمينَ لا علاقـةَ لهم بالحَدث، ظهرَت بعضُ الصُّحف تُكرِّرُ الاتِّهاماتِ للمُسـلمين كما فعلَت صحيفـةُ جلوب يوم ٦ مايو ١٩٩٥، إذ قالَت في العنوانِ الرَّئيسِ في صفحتِها الأولى: «الإرهابيُّونَ العربُ قامُوا بتَمويلِ مُرتكبي حادثِ تَفجيرِ أوكلاهوما»![١]

ومع أنَّ المسلمينَ والعربَ يَعيشون في الغرب الأوروبيِّ والأمريكيِّ جَنبًا إلى جنبٍ معَ غيرهم من الطَّوائف والجاليات لكنّ وسائلَ الإعلامِ تُصوِّرُهم باستمرار، على أنَّهم خطرٌ على المجتمع والأمـن القومي، وأنَّهم يَتسـاوَونَ في الخُطورةِ مـعَ مُهرِّبي المُخدِّراتِ والمُجرمينَ ويُسـاندونَ الأعمالَ الإرهابيّةَ، ومُوالونَ للحُكّامِ المُستبدِّينَ في العالَمِ الإسلاميّ. ونتيجةً لتكرار هذه الصُّورة النَّمطيّة القَميئة للعرب والمسـلمينَ في الغرب أصبحَ من المُعتاد إدانةُ جميعِ العرب والمسلمين عـلى أيّةِ جرائمَ تُرتكَبُ. ولذلك لم يكـنْ غَريبًا أن تَحمل عناوينُ الصُّحف الكبيرة في صفحاتها الأولى صبغةً عنصريّةً كأن يَكتب الصَّحفيُّ الأمريكيُّ (ليزلي جيلب- Leslie Gelb) في صحيفة "نيويورك تايمز" أنَّ "الإسـلامَ مـن حيثُ المَبدأ لا يَعترِفُ بالتَّعايُـش"، أو يكون العنوان الرَّئيسُ لصحيفة "واشنطن بوست" في ٥ مارس ١٩٩٣: "الإسلام الجهاديّ يُحارب القِيَمَ الغربيَّة: العنف على هامش اليَقظة الأصوليّة"، أو العنوان الرَّئيس لصحيفة (يو. إس. إيه تودي) واسـعة الانتشار يوم ٩ مارس ١٩٩٤: "المواجهة من جديد بين الإسلام الثَّوري والغَرب"[٢]... إلخ هذه العناوين العُنْصُريَّة التي تَحمل العداءَ للعرب والمُسلمين.

ومُؤخَّرًا استَغلَّت العُنْصُريَّةُ الغربيَّة الإعلامَ أسوأ استغلال أثناءَ العدوان الإسرائيليِّ على قطاع غـزة، وما ارتُكب فيه من انتهاكات وفَظائع وجرائم وإبادة؛ حيثُ برَزَ الإعلامُ الغربيُّ بصفته أحد الأدوات التي سـاهمت في الدِّفاع والتَّبرير، وانحازَ ورَوَّجَ لسرديّـةِ إسرائيلَ ومَزاعمها وأكاذيبها حـولَ الدِّفاعِ عن النَّفس بدلاً من أن يُقدِّمَ الحَقيقة. فحرصَ، بشـكل عنـصريٍّ صارخ يَفتقِدُ كلَّ معاني المَوضوعيّةِ والمِصداقيّةِ والمِهنيّةِ، على تقديم صورةٍ مَغلوطة ومُشوَّهةٍ زَيَّفَت ما يَجري في

١ - وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب، ج٣، ص١٢٠.
٢ - وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب، ج٣، ص١١٧.

غزّة، وتجاهَلَت الظُّلمَ والعُدوانَ والقتلَ والتَّرويعَ والإبادةَ والعقابَ الجَماعيَّ والتَّهجيرَ القَسري للشَّعب الفلسطينيِّ الأعزَل، حتى اعتبرَ كثيرونَ أنَّ الإعلامَ الغربيَّ كان شَريكًا وطَرَفًا أصيلاً في العُدوان على غزة، ليس فقط بصَمته وتَجاهُله للوَقائع، ولكنْ بتَضليله للرأي العامِّ وانحيازه وازدواجيّته وعدم مهنيّته واغتياله للحَقيقة[1].

ومن ثمَّ كانَ استخدامُ الغرب للإعلام متركِّزًا على فَرض رؤيته العُنْصُريَّة التي نظرَت بعين واحدة نحوَ مَصلحة إسرائيلَ رَبيبة الغَرب وحليفته، وغضِّ الطَّرف نهائيًّا عن المَذابح الجَماعيّة وإبادة أحياء سَكنيّة، وأُسَر بكاملها، وقتلٍ عشوائيٍّ للنِّساء والأطفال، وقصف هَمجيٍّ بلا رَحمة ولا إنسانيّة للمُستشفيات ودُور العبادة وسيّارات الإسعاف، واستمرار التَّجويع والتَّدمير، ونشر أكاذيب وادِّعاءات المُحتلِّ التي تُبرِّرُ لجَرائمه، وهو تَجاهُلٌ وتَبريرٌ يَرقى إلى مستوى التَّواطُؤ في تَجريد المُعاناة الفلسطينيّة من إنسانيّتها، ويُسهِّلُ استمرارَ إسرائيل في جرائمها وإفلاتها من العقاب، ممّا أدَّى إلى خلق انطباع بأنَّ الاحتلالَ هو الضَّحيّةُ، وأنَّه في حالة دفاع عن النَّفس، وأنَّ الفلسطينيِّينَ هم الإرهابيُّونَ، وظهرَ كَذبُ وخداعُ الإعلام الغربيِّ في تغطيته للعُدوان على غزة في مواقفَ عَديدة، كان أبرزُها الفيديو الذي يُظهرُ مُخرجَ قناة "سي إن إن" الأمريكية يُوجِّهُ مُراسلةَ القناة في غزة والمُصوِّرَ عبر الهاتف بأن يَتظاهَرا بأنَّهما تَعرَّضا لصواريخ حماس[2]. أو ادِّعاء قناة (24i) الإسرائيلية، بأنَّ مسؤولينَ إسرائيليِّينَ قالوا لها: إنَّهم عثروا على جُثَث أربعينَ رَضيعًا برُؤوس مَقطوعة في إحدى مُستوطنات غلاف غَزّة على أيدي عناصر حماس، وهو ما سارعَت بنَقله صَحيفتا "ديلي ميل" و"التايمز" البَريطانيتان، وكتبَت الأخيرةُ في صدر صفحتها الأولى "حماس تَذبح حناجرَ الرُّضَّع"، ليَنتشر بعدَها الخبرُ انتشارَ النّار في الهَشيم، وتَنقلَه صُحفٌ وقَنواتٌ تلفزيونيّةٌ عَديدة، من بينها شبكة "سي إن إن"، ممّا أدَّى إلى حشد الرأي العامِّ الغربيِّ في البداية ضدَّ قطاع غزّةَ المُحاصَر، وليُطالعَنا بعدَها الرَّئيسُ الأمريكيُّ (جو بايدن-Joe Biden)، وهو يُؤمِّنُ على الواقعة الكاذبة، ويُعربُ عن صَدمته من المَشاهد التي رآها، وبعدَ ذلك كشفَ إعلاميٌّ إسرائيليٌّ كَذبَ الواقعة من أساسها، وأكَّدَ أنَّه لا يوجد أيُّ دليلٍ على قتلِ حماس للرُّضَّع.[3] ولم يَخرج اعتذارٌ من أيِّ جهة إعلاميّة كانَت قد

١ - أسماء الحسيني: ازدواجية الإعلام الغربي في تغطية العدوان الإسرائيلي على غزة، ص ٦١.
٢ - أسماء الحسيني: ازدواجية الإعلام الغربي في تغطية العدوان الإسرائيلي على غزة، ص ٦١.
٣ - أسماء الحسيني: ازدواجية الإعلام الغربي في تغطية العدوان الإسرائيلي على غزة، ص ٦٢.

نشرَت الخبرَ يُبيِّنُ الخَطأَ الذي وَقعوا فيه، بل اكتفَوا بالسُّكوت.

فهذا هو الغربيُّ الذي يَظهر من خلال الأدبِ والفنِّ والإعلامِ بلا ضميرٍ ولا إنسانيّة، لا يَهمُّه إلا مَصلحتُه، وحجمُ المكاسبِ التي سيُحقِّقُها من وراء قتلِ الآخَرِ أو استعبادِه أو تَسخيرِه لخدمته، وأنّ كلَّ مزاعمه حولَ الإنسانيّةِ هي تَخصُّ فقط الرَّجلَ الأبيضَ الأوروبيَّ، أمَّا بقيّةُ البشرِ فهُم في مرتبةٍ أدنى لا تَرقى لمُستوى الإنسانيّةِ البَيضاء.

خاتمة

وهكذا تَنتهي بنا «دراسةُ العُنْصُريَّة الغربيَّة واستخداماتها في الأدب والفنِّ والإعلام» إلى مجموعةٍ من النَّتائج المُهمّة التي تَعكسُ برجماتيّةَ الغرب وتعصُّبَه ونَزقَه، لعلَّ أهمَّها الآتي:

أولاً إنّ العُنْصُريَّةَ مَفهومٌ يُشيرُ إلى تحيُّزِ أمّة أو شعبٍ ما لذاته باعتباره مُتميِّزًا أو مُتفوِّقًا على غيره من الأمم والشُّعوب. وأنَّ هذا التميُّزَ يَقومُ على أساسِ الاعتقادِ في «نقاء العِرق» أو «سموِّ الجنس» أو امتلاك «الدِّينِ المُطلَق». ولذلك فإنَّ العُنْصُريَّةَ مفهومٌ يَقوم على تأكيد مَركزيّة الذّات في مُقابلِ تَهميشِ أو احتقـار أو دُونيّة الآخَر. وهو ما قامَت به العُنْصُريَّةُ الغربيَّـةُ بوَصفها العُنْصُريَّةَ الأبرزَ في القـرونِ الثَّلاثة الأخيرة التي مرَّت بها البشريّةُ، حيث مارسَـت التَّمييزَ ضدَّ الأجناسِ الأخرى كالأفارقة والآسيويِّينَ والعرب والمسـلمين بوَصفهم أجناسًا مُتدنِّيةً في العَقل والفَهم والسُّلوك. مما يُبرِّرُ مسـألةَ اسـتعمار الرَّجلِ الأبيضِ لتلك الشُّـعوب ليأخُذَ بيدها إلى الحضارة والمَدنية؛ وتلك بلا شكّ حجةٌ واهيةٌ، فكلُّ ما يَهمُّ الغربيَّ هو السَّيطرةُ على خيرات الشُّعوب ونَهبُ ثرواتها.

ثانيًا استخدمَت العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ الأدبَ في تأكيد الصُّورة النَّمطيّة التي رسمَها الغربُ للشُّعوب الأخرى، ممَّن أطلقَ عليهم شـعوبَ العالَم الثّالث أو الدُّول النّامية، من خلال تصوير أنَّ مسألةَ تخلُّفهـم مُرتبطةٌ بجينات التخلُّف التي تخصُّ عِرقَهم بوَصفه عِرقًا أدنى، وأنْ لا سـبيلَ لهم إلى التمدُّن والحَضارة إلا بمسـاعدة المُسـتعمِر الغربيِّ. فشـاهَدْنا الشَّـخصيات الإفريقيّةَ والعربيّةَ والإسلاميّةَ في كثيرٍ من الرِّواياتِ الغربيَّة في صورةٍ مُتدنيّة؛ حيثُ يُصوَّرُ الإفريقيُّ أو العربيُّ دائمًا في صـورة الخادم الذي يَعمل عند سـيِّده الغـربيِّ، أو المُجرم الخارج عـلى القانون، أو الفلّاح الجلف الجاهل الذي لا يَعرف الذَّوقَ والأسلوبَ الحضاريَّ في التَّفاهُم والتَّعامُلِ مع الآخَرين، أو الإرهابيِّ، أو البَدويِّ دائمِ التَّرحال الذي لا أرضَ له ولا وَطن.

ثالثًا استَخدمَت العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ الفنَّ لتأكيد الاستعلاءِ الغربيِّ، والتأكيد على تميُّزِ الغربيِّ على غيرِه من الشُّعوبِ والأمم الأُخرى؛ فوَجدْنا على مستوى «فنّ النَّحت» تمثالَ الأوروبيِّ الأبيضِ الذي يَضع حذاءَه على رأس الملك الفرعونيِّ. وعلى مستوى «الفنّ التَّشكيلي» تَزخر اللَّوحاتُ التَّشكيليّةُ ولوحاتُ البورتريه بكثيرٍ من علامات وإشارات السُّخرية والازدراءِ تجاهَ الشُّعوب الأخرى، حتى أنَّ مُعظمَ هذه اللَّوحات لا تُسمَّى بأسماء أصحاب الصُّوَرِ، كما هو الحالُ مع بورتريهات الأشخاصِ البيض، وإنَّما يُشارُ إليها بوصفٍ عامٍّ؛ كفتاةٍ زنجيّةٍ أو شابٍّ عربيٍّ... وهكذا إمعانًا في التَّحقير والازدراء.

رابعًا استخدمَت العُنْصُريَّةُ الغربيَّةُ السِّينما والإعلامَ لتأكيد رُؤاها بشأن تحيُّزِها لذاتِها بوَصفِها عِرقًا مُتميِّزًا ومُتفوِّقًا على غيرِه من الشُّعوب، وقد صاحبَ ذلك حالةٌ من التعصُّبِ المَقيتِ عكَسَتها الأفلامُ السِّينمائيّةُ التي نظرَت للأسودِ على أنَّه فاقدٌ للأهليّة، جلفٌ، وجاهلٌ، وسكِّيرٌ، ومُستهترٌ، ويغتصب ابنتَه، ويَتشاجَرُ مع زوجته باستمرار. كما نظرَت إلى العالَمِ العربيِّ والإسلاميِّ على أنَّه عالَمٌ سُكّانُه جميعًا رجالٌ ذَوو لِحًى، وشيوخٌ مَشبوهونَ بينَ الحَريم، وإرهابيُّونَ، وحريمٌ خانعاتٌ يَرتدينَ ثيابًا سودًا من قِمّةِ الرّأسِ إلى أخمصِ القَدم، ويَسِرْنَ في خُضوعٍ وذِلّةٍ وراءَ شُيوخٍ مُتعسِّفينَ، ليسَ لديهنَّ وظيفةٌ غير خدمةِ الرِّجال، وهي كائنٌ أخرسُ غيرُ مُتعلِّم، ولا إرادةَ لها ولا حُرّيةَ ولا اختيار.

المصادر والمراجع

- أسـماء الحسـيني: ازدواجية الإعلام الغربي في تغطية العدوان الإسرائيلي على غزة، مجلة آفاق استراتيجية، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار- مجلس الوزراء، القاهرة، العدد (٨)، ديسمبر، ٢٠٢٣.
- أسـماء رمضان: الأدب العنصري: كيـف نجح اليمين المتطـرف في الفوز بالمعركة الثقافية، مقال منشـور بتاريخ ٢٠ مارس ٢٠١٩، على الرابط التالي: https://www.noonpost.com/27035
- رجب البنا: صناعة العداء للإسلام، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- زينب الطحان: الرواية الغربيَّة وإشـاقة العُنْصُرِيَّة اختلاقًا وترسـيخًا، مقال إلكتروني منشور على الرابط التالي: https://almaarefcs.org/4722/339
- سمير حماد: ٤ لوحات تشكيلية تبرز العُنْصُرِيَّة «فتاة زنجية» و«لا مكان للمهاجرين»، مقال إلكتروني منشور بتاريخ ١٩ ديسمبر ٢٠١٥ على الرابط التالي:
- https://www.vetogate.com/1959096
- عابد المشـوخي: العُنْصُرِيَّة عند الأمم وموقف الإسـلام منها، رسـالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥-١٤٠٦هـ.
- مجمع اللغة العربية: المعجـم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٥.
- مراد وهبة: المعجم الفلسفي- معجم المصطلحات الفلسفية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨.
- فيلـم American History X على الرابط التـالي: https://www.youtube.com/watch?v=XfQYHqsiN5g
- فيلـم ١٢ Years a Slave عـلى الرابـط التـالي: https://www.nytimes.com/2013/10/18/movies/12-years-a-slave-holds-nothing-back-in-show-of-suffering.html?partner=r

- وفيق صفوت مختار: عنصرية الغرب١-٣، مجلة الوعي الإسـلامي، العدد (٣٥٧)، وزارة الأوقاف والشـؤون الإسـلامية، الكويـت، جمادى الأولى١٤١٦هـ- أكتوبر ١٩٩٥.
- وفيـق صفوت مختار: عنصريـة الغرب ٣/٣، مجلة الوعي الإسـلامي، العدد ٣٥٩، رجب ١٤١٦هـ/ ديسمبر ١٩٩٥.
- Harper Lee: To Kill a Mockingbird, Bibliomania Publishing & Distribution Cairo. Egypt, 2024.
- Kiley Reid: Such A Fun Age, G. P. Putnam's Sons, United States, First Edition, 2019.
- Toni Morrison: The Bluest Eye, Holt. Rinehart and Winston, United States,1970.

أثر الذَّكاء الاصطناعي في ترسيخ العنصريّة الغربيّة

■ د. قاسم محمد دنش[1]

ملخّص

تناقشُ هذه المقالةُ تأثيرَ الـذَّكاء الاصطناعيِّ في ترسـيخ العُنصريّة الغربيّة تجاهَ الثَّقافـات والمُجتمعات الأخرى؛ حيث يَبرُزُ الذَّكاءُ الاصطناعـيُّ باعتباره أداةً تقنيّة قـادرة على تحقيق تغييرات جذريّـة في مختلف المجالات. ومع ذلك، فإنَّ الأنظمةَ الذَّكيّـة قد تَعكس تحيُّـزاتٍ اجتماعيةً وتاريخيةً مُتجذِّرةً في البيانات التي تُسـتخدم لتَدريبهـا، وهذا يُؤدِّي إلى تعزيز الأنماط المجتمعية السَّـلبيّة. تُحلِّلُ المقالةُ العلاقةَ بـين الذَّكاء الاصطناعيِّ والانحياز البشريِّ، وتأثيرَ هـذا التَّداخُلِ على فُرصِ العمل، والتَّعليـم، والتَّفاعل الاجتماعيِّ. كما تُسـلِّطُ الضَّوءَ على مخاطـر تطبيقات الذَّكاء الاصطناعـيِّ، مثـلِ التعـرُّف على الوَجـه والإعلانـات الرَّقميّة في تكريـس الصُّوَرِ النَّمطيّة. بناءً على ذلك، تُطرَح توصياتٌ لتطوير خوارزميّات عادلة وتَحليل التأثيراتِ الاجتماعيّة، مع التَّركيز على تَنويع فِرَقِ التَّطوير واعتماد سياسـات تنظيميّة صارمة. يَهـدف المقالُ إلى زيادة الوَعي بضَرورة تَصميمِ أنظمةِ ذكاءٍ اصطناعيٍّ تُعزِّزُ العدالة الاجتماعيّةَ بدلًا من تَعزيز الانقساماتِ.

الكلمات المفتاحية:
اللا خُلُقيّة، اليهودية، التفوق العرقي، المادية الغربية.

1 - كاتب وباحث من لبنان، دكتوراة في هندسة الكمبيوتر، متخصِّص بالذّكاء الاصطناعي.

مقدِّمة

تعريف الذَّكاء الاصطناعي وأهميّتُه في العصر الحديث

الـذَّكاء الاصطناعيُّ (AI) هو: فرعٌ من علوم الحاسـوب، يَهدف إلى تطوير أنظمة قادرة على مُحاكاة السُّلوك البشريِّ، واتِّخاذ القرارات بناءً على البيانات والتعلُّم منها. يمُثِّلُ الذَّكاء الاصطناعيُّ أحـدَ أعظم إنجازات التُّكنولوجيا الحديثة، وقد أحدثَ ثورةً في العديد من المجالات، كالطِّبّ، والتَّعليم، والصِّناعة، والأمن؛ حيث استطاعَ تحسينَ كفاءة العمليّات، وتقليلَ التَّكاليف، وتحقيقَ تقدُّم علميٍّ وصناعيٍّ غير مسبوق.

تتضمَّـن تطبيقـاتُ الذَّكاء الاصطناعـيِّ تقنياتٍ مثـلَ التعلُّـم الآليِّ (Machine Learning) والشَّـبكات العَصبيّة الاصطناعيّـة (Artificial Neural Networks)، التي تعتمدُ على معالجة كميات ضخمة من البيانات لاسـتخلاص الأنماط والعلاقات التي قـد تكون غيرَ مرئيّة للبَشر. وبفضـل هذه القُدرة على التَّعامُل مع البيانات المُعقَّدة، أصبحَ الذَّكاء الاصطناعيُّ أداةً أساسـيّةً في تشكيل مستقبل العالم.

في مجال الطِّبِّ، على سـبيل المثال، يُسـتخدم الذَّكاءُ الاصطناعيُّ في تحليل الصُّور الطبِّية لتشخيص الأمراض بدقّة أكبرَ من دِقّة الأطباء من البشر في بعض الحالات. كما يُسهم في أبحاث الأدوية الجديدة، واكتشاف علاجات مُبتكَرة. أمّا في التَّعليم، فقد تمَّ تصميمُ أنظمة تعليميّة ذكيّة قادرة على تخصيص المُحتوى التَّعليميِّ وَفقًا لاحتياجات كلِّ طالب، ممّا يُحسِّـنُ نتائجَ التَّعلم ويُعزِّزُ فاعليّةَ العمليّة التَّعليمية.

وفي قطّاع الصِّناعة، تُستخدم تقنياتُ الذَّكاء الاصطناعيِّ في أتمتة العمليّات وتَحسين الإنتاجيّة، فيُؤدِّي ذلكَ إلى تقليل الفاقد وزيادة الكفاءة. كما أنَّه يُعزِّزُ من أمان المَعلومات من خلال أنظمة ذكيّة للكشف عن الهَجمات السِّيبرانيّة وتَحليل الأنماط المَشبوهة.

ومع تقدُّم هذه التكنولوجيا، أصبحَ الذَّكاءُ الاصطناعيُّ يتوسَّع ليَشمل العديدَ من الصناعات الأخرى، وهذا يُسهم في تحفيز الاقتصاد العالميِّ، وفتح آفاق جديدة للتَّطوير والابتكار. لكنَّ هذا التقدُّمَ لا يَخلو من تحدِّيات، أبرزُها القضايا المُتعلِّقة بالخُلُقيّات، التحيُّز، وتأثيره على سوق العمل. وقد تتطلَّب هذه التحدّيّاتُ تدخُّلاً من الحكومات والشَّركات والمؤسَّسات البحثيّةِ لتطوير لوائحَ خُلُقيّة وتنظيمات تضمن استخدامَ الذَّكاء الاصطناعيِّ بوجه مسؤول ومتوازن.

إذًا، يُعتبر الذَّكاءُ الاصطناعيُّ اليومَ ليس مجرَّدَ أداة تقنيّة، بل هو عاملٌ محوريٌّ يُعيدُ تشكيلَ البنيةِ الاجتماعيّةِ والاقتصاديّةِ للعالَم، ويُؤثِّر بوجهٍ كبير على كيفيّةِ اتِّخاذِ القراراتِ على جميع المُستويات.

أولًا: العلاقةُ بين الذَّكاء الاصطناعيِّ والأنماط المُجتمعيّة

رغمَ الإمكاناتِ الهائلة التي يُوفِّرُها الذَّكاءُ الاصطناعيُّ في تحسين العمليّات واتِّخاذ القرارات بناءً على البيانات، لكنّ هذه الأنظمةَ ليسَت خاليةً من العُيوب. وعلى الرَّغم من أنَّ الذَّكاءَ الاصطناعيَّ يَعتمد على الخوارزميات والبيانات، لتحليل وتفسير المَعلومات، فإنَّه يعكسُ أحيانًا الانحيازات البشريّةَ المُتجذِّرةَ في المُجتمعات، وهو ما يَعكس واقعًا مُعقَّدًا في العالم المعاصر.

تتسلَّلُ الانحيازاتُ المجتمعيّةُ، بما في ذلك الصُّورُ النَّمطيّة والعُنصريّة، إلى أنظمة الذَّكاء الاصطناعيِّ من خلال البياناتِ التي تُستخدم في تدريب هذه الأنظمة؛ حيث جرى جمعُ هذه البياناتِ من مصادرَ مُتنوِّعة مثل وسائل الإعلام، والإنترنت، وسجلّات التَّوظيف، والنَّشاطات التِّجاريّة، وهذه المصادرُ تتأثَّر غالبًا بالصُّورة النَّمطيّة التي سادَت في المجتمعات عن العِرق، والجنس، عن الدِّين، أو الثَّقافة. على سبيل المثال، إذا كانت بياناتُ تدريب نموذج ذكاء اصطناعيٍّ تتضمَّنُ معلوماتٍ تاريخيّةً عن التَّوظيف تُظهر تمييزًا ضدَّ فئات معيّنة مثل الأقليّات العِرقيّة، فإنَّ الخوارزميّةَ قد تتعلَّم هذه التحيُّزات وتُعيد إنتاجَها في قراراتها المُستقبليّة، مثل رفض طلباتِ التَّوظيف أو القُروضِ بناءً على معاييرَ غيرِ عادلة.

علاوةً على ذلك، قد يُسهم الذَّكاء الاصطناعيُّ في ترسيخ هذه الأنماطِ المجتمعيّة، من خلال توسيع نطاق انتشار الصُّور النَّمطية وتعزيزها بشكلٍ أكبر. فعلى سبيل المثال، في أنظمة التعرُّف على الوَجه، قد تَظهر نتائجُ غيرُ دقيقة أو منحازة ضدَّ فئاتٍ معيَّنة من النّاس، تُؤدِّي إلى تعرُّضِ

أفراد هــذه الفئاتِ لمزيد من التَّمييز أو المُراقَبة المُفرطة. كما يمُكن للأنظمة التي تُســتخدم في الإعلام الرقميِّ والإعلانات أن تُعزِّز صورًا نمطيّةً سلبيّةً بناءً على العِرق أو الجنس، فيُسهم ذلك في نشر هذه الصُّور بطريقة أوسعَ بين الجماهير.

وبذلك، لا يَقتصر الذَّكاء الاصطناعيُّ على عكس الأنماطِ المجتمعيّةِ، بل قد يُسهم في تعزيز التَّمييز العِرقي والاجتماعيِّ من خلال تقديم تفسيراتٍ أو قراراتٍ لا تتَّسم بالعدالة. وبالنظر إلى هذه الإشــكالية، يُصبح من الضروريِّ العملُ على تصميم وتطويــر أنظمة ذكاءٍ اصطناعيٍّ تأخذُ في اعتبارها التعدُّديّةَ الثَّقافية، وتعمل على إزالة التحيُّزاتِ من خلال التدابير الوقائيّةِ مثل تحسين تنوُّع البيانات، وتحليلِ التأثيرات الاجتماعية لهذه الأنظمة، وتنفيذِ سياساتِ رقابةٍ صارمة لضَمان الاستخدامِ العادلِ والمَسؤول لهذِه التِّقنيّات.

١ - مشكلة العنصريّة الغربيّة وتأثيرُها على المجتمعات الأخرى

تُعــدُّ العنصريَّــةُ الغربيّة ظاهــرةً مســتمرّةً ذات جذور تاريخيّــة، تعود إلى فترات الاســتعمار والإمبريالية التي شــهدَها كثيرٌ من البلدان، حيث كانت القُوى الغربيّة تَسعى إلى فَرضِ سيطرتها على الشُّــعوبِ والأُمم الأخرى، وهذا أدَّى إلى اســتدامة الصُّــور النَّمطيّة السَّــلبية والتصوُّرات المَغلوطة عن هذه الشُّــعوب. فخلال هذه الحقبة، جرى تصنيفُ الشُّعوب غيرِ الغربيّة على أنَّها أقلُّ مرتبةً ثقافيًّا، واقتصاديًّا، وعقليًّا، وهو ما اعتُبِرَ أساسًا للتَّمييز العنصريِّ الذي استمرَّ حتى في فترات ما بعدَ الاستعمار.

تُعزَّزُ هذه العنصريّةُ من خلال سياســاتِ الهَيمنة الثَّقافية والإعلاميّة، التي تُروِّج لفكرة التفوُّق الغــربيِّ على باقي الثَّقافات. فوســائلُ الإعلام، على ســبيل المثال، كثيرًا ما تُقــدِّم صورًا نمطيّةً مَغلوطةً عن الشُّعوب الأخرى؛ حيث تُظهرُهم إمّا كـ "مُحتاجين" أو "بدائيِّين"، على حين يجري تقديمُ الثَّقافة الغربيّةِ على أنَّها النَّموذجُ الأَسمى. هذه الصُّور النَّمطيّة تتغلغلُ في الوعي الجَمعيِّ، وتُؤثِّر على التَّفاعل بين الأفراد والجماعات في المجتمع الدَّولي.

لكــنَّ تأثيرَ العنصريّــةِ الغربيّةِ لا يَقتصر على الصُّــور النَّمطيّة فقط؛ فهي تُقــوِّضُ أيضًا فُرَص المســاواة للأفراد والمجتمعــات التي تتعرَّض للتَّمييــز. في المَجالات المختلفــة مثل التَّعليم، والعمــل، والرِّعاية الصِّحية، وحتى القانون، يُعاني الأفرادُ من الأقليّاتِ العِرقيّة من تفرقةٍ منهجيّةٍ

تُؤثِّر على قدرتهم في الوصول إلى الفُـرص وتحقيق النَّجاح. هذه الفجوةُ في الفُرص تُؤدِّي إلى تعميق الانقسـامات الاجتماعيـة والاقتصادية بين المجتمعات الغَربيّةِ وغـيرِ الغربيّة، مما يُعزِّز مشاعرَ العداء والتَّمييز.

٢ - الذَّكاء الاصطناعيُّ والعنصريّة الغربيّة

مع دخول الذَّكاء الاصطناعيِّ إلى هذا السِّياق، ظهرَت تحدِّياتٌ جديدةٌ تُهدِّد بتجديد وتعميق هـذه العنصريّة. فالتكنولوجيا، على الرغم من قدرتها على تحسـين حيـاة البشر، قد تُصبح أداةً إضافيّةً لترسـيخ التَّمييز العنصريِّ إذا لم تُسـتخدم بحَذر. يجري تدريب كثـيرٍ من أنظمة الذَّكاء الاصطناعـيِّ باسـتخدام البيانات المُسـتخلَصة من الواقـع الاجتماعيِّ الذي يَعـجُّ بالتَّحيُّزات العنصريّة. على سبيل المثال، أنظمةُ التَّوظيف التي تعتمدُ على الخوارزمياتِ قد تُعزِّز التَّمييز ضدَّ الأقليات العرقية، كما يُمكن لتقنيات التعرُّف على الوجه أن تُظهر انحيازًا في تحديد الأشخاص من ذوي البشرة الدّاكنة.

تُعـدُّ هذه الأنظمةُ أكثرَ خطورةً من العنصريّة التَّقليدية، لأنَّها تدمجُ التحيُّزات في خوارزمياتٍ يُمكن أن تُؤثِّر على حياتنا بشكل دقيق وفوريٍّ، مثل الوصول إلى العمل، والقروض، والخدمات الحكومية. وبالتالي، فإنَّ الذَّكاء الاصطناعيَّ لا يكتفي بعكس هذه العنصريّة، بل يُمكِّن من نقلها إلى المستقبل، وتوسيعِ نطاق تأثيرِها بشكل أكثرَ خطورةً ودقّة.

في النِّهايـة، يُظهر هذا التداخُل بين العنصريّـة الغربيّة والتكنولوجيـا الحديثةِ كيف يُمكِن أن تتفاقم المشكلاتُ الاجتماعية عندما لا يُنظَر إلى أبعاد العدالة والمساواة بشكل شامل في تطوير واستخدام هذه التِّقنيات. وبذلك، يُصبح من الضَّروريِّ العمل على تصميم أنظمة ذكاءٍ اصطناعيٍّ تُراعي التنوُّعَ الثقافيَّ وتُزيل التحيُّزاتِ العنصريّةَ، بهدف ضمان عالَمٍ أكثرَ عدلاً وإنصافًا.

ثانيًا: تعريف الذَّكاء الاصطناعيِّ ومجالاتُ استخدامه

الذَّكاءُ الاصطناعيُّ (AI) هو فرعٌ من علوم الحاسوب، يُركِّزُ على تطوير أنظمة ذكيّةٍ قادرةٍ على مُحاكاة السُّـلوكِ البشريِّ في التَّفكير، والتعلُّم، واتِّخاذ القرارات. يَعتمد الذَّكاء الاصطناعيُّ على تقنياتٍ مُتقدِّمة تَشمل الخوارزمياتِ الذكيّةَ وتحليلَ البيانات الكبيرة، مما يُمكِّن الأنظمةَ من اتِّخاذ

قراراتٍ بنّاءة على تحليل كمية ضخمة مـن المعلومات والأنماط المَخفيّة فيها. تتنوَّعُ مجالات اسـتخدام الذَّكاء الاصطناعيِّ بوجهٍ كبير، حيث أصبح جزءًا لا يتجزّأُ من العديد من الصِّناعات التي تَسعى إلى تحسين الكفاءة وتوسيع نطاق الابتكار.[1]

في القطـاع الصحيِّ، يُسـهم الذَّكاء الاصطناعيُّ في تحسـين التشـخيص الطبـيِّ من خلال أدوات تحليل الصُّور مثل الأشـعة السِّـينية أو الرَّنـين المغناطيسيِّ، وهذا يُسـاعد الأطباءَ على الكشـف المُبكِّرِ عن الأمـراض ومعالجتها بشـكل أسرع. مضافًا إلى ذلك، يمُكن اسـتخدامُه لتطوير العلاجات المناسـبة بناءً على التحليل الدَّقيق لبيانات المَرضى وتقديم استشارات طبيّة مُخصَّصة.[2] استفادت الصناعة أيضًا كثيرًا من الذَّكاء الاصطناعيِّ؛ حيث تُستخدم الأنظمةُ الذكيّةُ في أتمتة العمليات وزيادة الإنتاجية، من خلال التحكُّم في سلاسل التَّوريد والتَّصنيع الذكيِّ، مما يُقلِّلُ التكاليفَ ويُعزِّز الكفاءة.[3]

في التَّعليم، أصبح الذَّكاء الاصطناعيُّ قادرًا على تخصيص المُحتوى التعليميِّ وفق كلِّ طالب؛ بحيثُ يُسهم في تحسين تجربة التعلُّم الشَّخصية. كما يتمُّ تحليل أداء الطُّلاب باستخدام أنظمةٍ ذكيّةٍ لتحديد النّقاط التي يَحتاجون إلى تحسـينها. في الأمن، تطوَّرت أنظمةُ التعرُّف على الوجه وتحليل الفيديو بوجهٍ كبير، وهذا سـاعد في تَعزيز الإجـراءات الأمنية من خلال المراقبة الذكيّةِ وحمايةِ الحُدود. هذه الأنظمةُ ليسـت محصورةً فقط في العمليات الأمنيّة التقليديّة، بل تَشـمل أيضًا التحليلَ الجنائيَّ للكشف عن الأنماط المَشبوهة.

استفاد الإعلام والتسويق أيضًا من الذَّكاء الاصطناعيِّ من خلال الإعلاناتِ المُوجَّهة التي تَعتمد على تحليل سلوكِ المُستهلك، وتُساعد الشَّركات على اسـتهداف الفئاتِ المناسبةِ بدِقّة. أخيرًا، في السِّياسـة العامة، يُسهم الذَّكاء الاصطناعيُّ في تحسين الخدمات الحكومية من خلال تحليل البيانات الكبيرة، الذي يُساعد في تقديم حلولٍ أكثرَ فاعليّةً للتحدِّيات الاجتماعيّةِ والاقتصادية.

---

1 - Russell, S., & Norvig, P., Artificial Intelligence: A Modern Approach, Pearson, Pearson Series in Artifical Intelligence, 2021, p.p:285-289.

2 - Topol, E. J., Deep Medicine: How Artificial Intelligence Can Make Healthcare Human Again, Hachette UK, Basic Books, 2015, p:152.

3 - Lee, J., Bagheri, B., & Kao, H., A Cyber-Physical Systems Architecture for Industry 4.0-Based Manufacturing Systems, Manufacturing Letters, Volume 3, 2015, p.p 18–23.

١ - مفهوم العنصريّة في السِّياق الغربي

تُعدّ العنصريّة في السياق الغربيّ ظاهرةً تمييزيّةً تُركِّز على تعزيز التفوُّق الثَّقافيِّ والاجتماعيِّ والسياسيِّ لمجموعات مُعيَّنة، وغالبًا ما تكون هذه المجموعاتُ ذاتَ أصول أوروبية، على حساب الأقليّات أو المجتمعات الأخرى. هذه المُمارساتُ العنصريّةُ تمتدُّ إلى مجالاتٍ مُتعدِّدة، وتُعدُّ نتيجةً لتاريخٍ طويل من الاستعمار، والعبودية، والسِّياسات التمييزية. لا تتعلّق العنصريّة الغربيّة فقط بالتَّمييز العِرقيِّ، بل تمتدُّ إلى تمييزٍ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ يَسعى إلى فرض هيمنةِ ثقافةٍ واحدة على باقي الثَّقافات.

تظهر مظاهر العنصريّة الغربيّة بوضوح في الإعلام؛ حيث يتمُّ تقديم صُورٍ نمطيّة سلبيّة عن "الآخر"، تُعزِّز الأفكار المغلوطةَ وتُغذِّي التحيُّزاتِ ضدَّ الأقليّات. وفي السِّياسات، تتجلَّى العنصريّة في قوانينِ الهجرة التي قد تَفرض قيودًا على دخولِ الأشخاص من مناطقَ مُعيَّنة، أو التَّمييز في العمل والسَّكن ضدَّ الأقليّات العِرقية. وفي التَّعليم، تَبرز العُنصريّةُ أيضًا من خلال تَغييب التاريخِ والثَّقافةِ غيرِ الغربيّة في المَناهج الدِّراسية، فيُؤدِّي ذلكَ إلى تعزيز صورةٍ مشوَّهة عن الشُّعوب الأخرى.

هذه المظاهرُ تُمثِّل جوانبَ مُتعدِّدةً من العنصريّةِ التي تُغذِّي الانقساماتِ الاجتماعيّةَ، وتُعزِّزُ الصُّوَرَ النَّمطيةَ التي يُمكِن أن تكونَ لها آثارٌ بعيدة المدى على المجتمعات المتأثِّرة.

٢ - العلاقة بين الذَّكاء الاصطناعيِّ والانحياز البشري

لا يعمل الذكاء الاصطناعيّ بمعزل عن البشر، بل يَعتمد بوجه كبير على البيانات والخوارزميات التي يجري تصميمُها وتدريبُها من قِبَلِ المُطوِّرينَ. في الواقع، تُعتبر البياناتُ المُدخَلةُ أساسًا لبناء أنظمةِ الذَّكاء الاصطناعيِّ. وبالتالي، فإنَّ أيَّ انحيازاتٍ موجودة في البيانات ستَنعكسُ وتُضخَّمُ في نتائجِ النِّظام. إذا كانَت هذه البياناتُ تُظهرُ تَمييزًا أو تحيُّزًا ضدَّ فئة مُعيَّنة، فإنَّ الأنظمةَ التي تعتمدُ عليها ستُعيد إنتاجَ هذه الانحيازاتِ بشكلٍ أو بآخر، مما قد يُعزِّزُ التَّفرقةَ العُنصريّةَ أو الاجتماعيّةَ بدلاً من مُعالجتها[1].

1 - O'Neil, C., Weapons of Math Destruction: How Big Data Increases Inequality and Threatens Democracy, Crown Publishing Group, ISBN 978-0553418811, 2016, p.p 98-101.

٣ - أشكال الانحياز في الذَّكاء الاصطناعيّ

٣-١- الانحيازُ في البيانات

غالبًا ما تكون البياناتُ المُستخدَمةُ في تدريب أنظمةِ الذَّكاء الاصطناعيِّ غيرَ مُتوازنة؛ حيث تُظهر تفوُّقًا لمجموعاتٍ مُعيَّنة على حساب أخرى. على سبيل المثال، قد تَحتوي البياناتُ التي تُستخدم لتدريب أنظمةِ التعرُّفِ على الوَجه على نسبةٍ كبيرة من الصُّوَرِ التي تمُثِّلُ فئاتٍ مُعيَّنةً، مثل الأشخاص ذَوي البشرةِ الفاتحة، ممّا يُؤدِّي إلى تقليل دقّة الأنظمةِ عند التعرُّف على الأشخاص من خلفياتٍ عرقيّة أخرى. مضافًا إلى ذلك، يمُكن أن يَفتقِرَ كثيرٌ من مجموعات البيانات إلى التنوُّع، ممّا يُعزِّزُ صُورًا نمطيّةً أو يُشوِّهُ تمَثيلَ المُجتمعاتِ المختلفة[1].

٣-٢- الانحياز في التَّصميم

يَشمل الانحيازُ في التَّصميم نقصَ التنوُّعِ في فِرَقِ تطويرِ الذَّكاء الاصطناعيِّ. عندَما يَقتصر فريقُ التَّطوير على مجموعةٍ مَحدودة من الأشخاص، فقد يَغفل عن احتياجات أو أولويات فئاتٍ مجتمعيّة أخرى. على سبيلِ المثال، قد تُركِّزُ الأنظمةُ الذَّكيةُ كثيراً على تلبية احتياجاتِ فئةٍ مُعيَّنةٍ من المُستخدمينَ، فيُؤدِّي ذلكَ إلى تجاهُلِ القيَمِ الخُلُقيّة والاجتماعيّة الخاصّة بالفئاتِ الأخرى. وقد يتسبَّبُ هذا في تَصميم أنظمةٍ تُكرِّسُ التَّمييزَ ولا تُراعي التنوُّعَ الثقافيَّ والاجتماعيَّ بشكلٍ كافٍ.

٣-٣- الانحياز في الأداء

يتمثَّلُ الانحيازُ في الأداء في كيفيّة تأثيرِ الانحيازاتِ الموجودةِ في البياناتِ أو التَّصميم على أداء الأنظمة في الواقع. على سبيل المثال، فَشلَت العديدُ من أنظمةِ التعرُّف على الوَجه في التعرُّف بدِقّة على الأشخاص من خَلفيّاتٍ عرقيّةٍ مُعيَّنة، وهذا يُعَزِّزُ التَّفرقةَ العرقيّةَ في تطبيقاتٍ مثلِ الأمنِ والمُراقبة. وفي نفس السِّياق، قد تُسهم الخوارزمياتُ المُوجَّهةُ في تعزيز الصُّورِ النَّمطيّةِ من خلال الإعلاناتِ المُوجَّهةِ أو التَّوصيات المُقترحة، مثل تَفضيل مُنتَجٍ أو خدمةٍ مُعيَّنةٍ بناءً على الانحيازات المُتأصِّلة في البيانات التاريخيّة.

عندَما تتبنَّى أنظمةُ الذَّكاء الاصطناعيِّ الانحيازاتِ البشريّةَ، فإنَّها تتحوَّلُ إلى أدواتٍ تُعزِّزُ العُنصريّةَ والتَّمييز بَدلاً من معالجتها. وهذا يَفرض تحدِّياتٍ كبيرةً على المجتمع التُّكنولوجيِّ؛

---

١ - المصدر نفسه.

حيث يتطلَّبُ الأمرُ حلولاً عَمليّةً خلقيّةً لمُعالجة هذه القَضايا. من الضَّروريِّ أن تتبنَّى فِرَقُ تطوير الذَّكاء الاصطناعيِّ سياساتٍ فعّالةً لضَمان التنوُّع في البيانات، وضمانِ أن تكونَ الأنظمةُ عادلةً وشاملةً لجميع الفئاتِ المُجتمعيّة.

ثالثًا: الذَّكاء الاصطناعيُّ والعنصريّة

١ - الانحياز في تصميم الخوارزميات

تصميمُ الخوارزميّاتِ هو عنصرٌ أساس في بناء أنظمة الذَّكاء الاصطناعيِّ، ولكنَّه يأتي مع تحدِّيات كبيرة، خاصّةً عندَما يتعلَّقُ الأمرُ بالانحيازات الاجتماعيّة والتّاريخيّة. تَعتمد الخوارزميّاتُ في الذَّكاء الاصطناعيِّ على البيانات التي يتمُّ تَغذيتُها بها، وهذه البياناتُ تُعتبر الأساسَ الذي تقومُ عليه عمليّةُ اتِّخاذ القرارات وتَدريب النَّماذج. إذا كانَت هذه البياناتُ تَحتوي على انحيازاتٍ تاريخيّة أو اجتماعيّة، فإنَّ النَّتيجةَ تكونُ أنظمةً ذكيّةً تَعكِسُ هذه الانحيازاتِ أو حتّى تَضخِّمها بوجه أكبر.

عند استخدام بياناتٍ غير مُتوازنة في التَّدريب؛ حيث تُظهرُ فئاتٌ مُعيَّنةٌ تمَثيلاً أكثرَ من فئاتٍ أُخرى، يَبدأ النِّظَامُ في تعلُّم نمطٍ يَتجاهل أو يُقلِّلُ من أهمِّيَة الفئاتِ الأقلِّ تمَثيلاً. على سبيلِ المثال، إذا كانَت البياناتُ تتضمَّنُ تمَثيلاً مُفرطًا لفئةٍ مُعيَّنة عرقيًّا أو اجتماعيًّا، فإنَّ النِّظامَ سيَتعلَّم أنَّ هذه الفئةَ هي الأكثرُ أهمِّيةً أو "الصِّحيّحة"، في حين يتمُّ تَجاهُلُ أو تَهميشُ الفئاتِ الأخرى. مضافًا إلى ذلك، قد تَحتوي البياناتُ على مَوروثاتٍ من التَّمييزِ العُنصريِّ أو الاجتماعيِّ، مثلِ سجلّات جنائيّة قديمة أو أنماط توظيف تَمييزيَة، ممّا يُؤدِّي إلى إعادة إنتاج هذه الانحيازات في الأنظمة الحديثة. لتُصبِحَ هذه الأنظمةُ أداةً لتكريسِ التَّفرقةِ العُنصريّةِ بَدَلاً من معالجةِ المَشاكلِ أو القَضاءِ عليها.

لا تقتصر المخاطر المُرتبطةُ بالانحياز في تصميم الخَوارزميّاتِ على مُجرَّدِ التَّمثيلِ غيرِ المُتوازن، بل تمَتدُّ إلى كيفيّةِ تَحليلِ الأنماطِ التي تقومُ بها الخوارزميّاتُ. ففي بعض الأحيان، قد يجري ربطُ العرقِ أو الثَّقافة بمُؤشِّرات سَلبيّة بوجهٍ غيرِ مُبرَّرٍ أو بناءً على فرضياتٍ غيرِ عِلميّة، ممّا يُعزِّزُ الصُّوَرَ النَّمطيّةَ السَّلبيّةَ دونَ أيِّ أساسٍ مَوضوعيٍّ.

هناكَ العَديدُ من الأمثلة الواقعيّة التي تُظهرُ تأثيرَ الانحيازِ العُنصريِّ في تَصميم الخوارزميّات. على سبيل المثال، أظهرَت دراساتُ أنظمة التعرُّف على الوَجه أنَّ هذه الأنظمةَ تُعاني من مُعدَّلات خَطأ عاليّة عندَما تتعامَلُ مع الأشخاص ذَوي البشرة الدّاكنة مُقارنةً بالأشخاص ذَوي البشرة الفاتحة. كما تَبيَّنَ أنَّ أنظمةَ التَّوظيف المُعتمدةَ على الذَّكاء الاصطناعيِّ قد تُفضِّلُ الرِّجالَ على النِّساء بسبب البَيانات المُتحيِّزة التي تمَّ تدريبُ هذه الأنظمة عليها، مثل بيانات التَّوظيف التي تَعكس الهَيمنةَ الذُّكوريّةَ في مجالات مُعيَّنة. وأحدُ الأمثلة الأخرى على الانحياز العُنصريِّ في الخوارزميات هو استخدامُ الذَّكاء الاصطناعيِّ في التنبُّؤ بالجَريمة؛ حيثُ كانَت الأنظمةُ تستهدفُ في كثير من الأحيان الأحياءَ التي يَسكنُها أفرادٌ من الأقليّات بسبب البَيانات الجِنائيّة غير المُتوازنة، ممّا يُؤدِّي إلى تَمييز إضافيٍّ ضدَّ هذه المُجتمعات.[1]

ومن الواضح أنَّ الانحيازَ في تصميم الخوارزميات يُعدُّ تحدِّيًا كبيرًا في الذَّكاء الاصطناعيِّ، ويَستدعي الأمرُ اهتمامًا دقيقًا لتطوير أنظمة أكثرَ عَدلاً وحياديّةً، يُمكِنُ أن تكونَ أداةً لحلِّ التحدِّيات الاجتماعيّة بَدلاً من تَعميقِها.

٢ - التعلُّم الآليُّ والتَّفرقة

التَّعلُّم الآليُّ يَعتمد جوهريًّا على البيانات التي تُغَذَّى بها النَّماذجُ التَّدريبيّةُ. فإذا كانَت هذه البياناتُ تَحتوي على تحيُّزات اجتماعيّة أو اقتصاديّة، فإنَّ النِّظامَ الذي يُنتَج منها سيَكون عُرضةً لإعادة إنتاج هذه الانحيازات أو حتى تَضخيمها. تكمُنُ المُشكلةُ في أنَّ كثيرًا من بيانات التَّدريب المُتاحة تَعكسُ واقعًا غيرَ عادل؛ حيثُ تُغيَّبُ الفئاتُ المُهمَّشةُ أو يُقدَّمُ تمَثيلٌ غيرُ كافٍ لها. هذا النَّقصُ في التَّمثيل يُؤدِّي إلى نَماذج تَعلُّم آليٍّ لا تَستطيع التَّعامُلَ بكفاءة معَ احتياجات هذه الفئات، ممّا يُعزِّزُ الفَجوات الاجتماعيّةَ والاقتصادية[2].

أحدُ الأمثلة الواضحة على هذه الظّاهرة يتمثَّلُ في تَصنيف البَيانات بناءً على السِّمات العرقيّة أو الثَّقافية. قد يُؤدِّي ذلكَ إلى اتِّخاذ قرارات تَمييزيّة غير عادلة، مثل استبعاد فئات مُعيَّنة من

1 - Noble, S. U., Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism, NYU Press, 1 Ed, New York, 2018, p. 61.

2 - Mitchell, T. M., Machine Learning, McGraw-Hill, 1997, p .154.

فُرَصِ العَمل بطريقة آليّة. على سبيل المثال، استخدامُ بياناتٍ تاريخيّةٍ عن التَّوظيف تقومُ على التَّمييز ضدَّ فئاتٍ مُعيَّنة قد يَدفع أنظمةَ التعلُّم الآليِّ إلى تفضيلِ مُرشَّحينَ من مجموعاتٍ مُعيَّنة بناءً على خَلفيّاتٍ سابقةٍ تُعدُّ مُنحازةً. مضافًا إلى ذلك، قد تكونُ مصادرُ البياناتِ نفسُها مُضلِّلةً أو تَحتوي على معلوماتٍ مُنخفضةِ الجودة، ممّا يَزيد من فُرَصِ إنتاجِ نماذجَ غيرِ عادلةٍ تُسهم في تَعزيز التَّفرقة.

تتجاوز الآثار المُترتِّبةُ على هذا الانحيازِ الجوانبَ التِّقنيّةَ لتَشملَ أبعادًا اجتماعيّةً واقتصاديّةً خطيرة. ومن النّاحيةِ الاجتماعيّة، يُؤدِّي هذا الانحيازُ إلى تعزيز التَّفرقة العُنصريّة وتَقويضِ الثِّقة في الأنظمةِ التُّكنولوجيّةِ من قِبَلِ الفئاتِ المُتضرِّرة، ممّا يَخلُقُ شُعورًا بالإقصاءِ والتَّمييز. أمّا من النّاحيةِ الاقتصادية، فإنَّ الفئاتِ المُهمَّشةَ تُحرَم من فُرَصٍ عادلةٍ في مجالاتٍ مُتعدِّدة مثلِ التَّوظيف والتَّعليم والخَدمات الماليّة، ممّا يَزيد من عدمِ المُساواةِ ويَزيد الفَجواتِ بينَ الطَّبقاتِ الاجتماعيّةِ المُختلفة.

هذه الظّاهرةُ لا تتوقَّفُ عندَ حدِّ التَّفرقةِ الفَرديّة، بل تَمتدُّ لتُعمِّقَ الصُّوَرَ النَّمطيّةَ السَّلبية، ممّا يَجعل من الصَّعب مُعالجة العُنصريّة على المَدى الطَّويل. ومن هنا، فإنَّ التَّصدِّي لهذه المُشكلةِ يتطلَّبُ تَطويرَ أنظمةِ ذكاءٍ اصطناعيٍّ تَعتمد على بياناتٍ عادلةٍ ومُتنوِّعة، والتأكيدَ على ضرورة الرَّقابة الخُلُقيّة الصّارمةِ التي تَضمن استخدامَ هذه التُّكنولوجيا بوجهٍ مَسؤولٍ لا يُسهم في تَعزيز التَّفرقةِ أو التَّمييز.

رابعًا: دور الذَّكاء الاصطناعيِّ في تكوين الصُّور النَّمطية

١ - استخدام الذَّكاء الاصطناعيِّ في الإعلام الرَّقمي والإعلانات المُوجَّهة

يَلعب الذَّكاءُ الاصطناعيُّ دورًا محوريًّا في صناعة الإعلامِ الرَّقميِّ والإعلاناتِ المُوجَّهةِ من خلال القُدرةِ على تحليل بياناتِ المُستخدمينَ بشكلٍ دَقيقٍ لتَحديدِ تَفضيلاتهم واهتماماتهم. تَعتمد خوارزميّاتُ الذَّكاءِ الاصطناعيِّ على سلوك المُستخدمينَ، مثلِ تاريخِ التَّصفُّح، التَّفاعُل مع المُحتوى، والأنماطِ الشِّرائيّة، لتَقديم إعلاناتٍ مُخصَّصة. ورغم أنَّ هذا قد يَبدو مُفيدًا في تَوفيرِ مُحتوًى ذي صِلةٍ، فإنَّه في بعض الأحيانِ يمُكِنُ أن يُسهم في تعزيزِ الصُّور النَّمطيّةِ الضّارة.

على سـبيل المثال، عند عرضِ الإعلاناتِ، اسـتنادًا إلى الأنماط السُّلوكيّة للمُستخدمينَ، قد تُظهـر هذه الخَوارزمياتُ مَيلاً لتكرارِ القَوالبِ المألوفة، مثلِ رَبطِ فئاتٍ عِرقيّةٍ أو اجتماعيّةٍ مُعيَّنةٍ بمِهَنٍ أو مُنتجاتٍ مُعيَّنة. وهذا النَّوع من التَّوجيه يمُكنُ أن يُرسِّخَ مَفاهيمَ غيرَ دقيقةٍ أو حتى ضارّة عن هذه المَجموعات، ممّا يُعزِّزُ التَّمييزَ الاجتماعيَّ والاقتصاديّ.

في مجـال الإعلامِ الرَّقميِّ، يُواجهُ المُحتوى الثَّقافيُّ والأخباريُّ أيضًا تَحدِّياتٍ مُماثلة. تَعتمد منصّاتُ الإعلامِ الرَّقميِّ على الخوارزمياتِ لتَحديد المَقالات والأخبارِ التي تَظهرُ للمُستخدمينَ، وغالبًا ما تُركِّزُ هذه الخَوارزميّاتُ على المَواضيع الأكثر تَفاعُلاً. هذه الأسـاليب تُؤدِّي إلى تَغطيةٍ مَحـدودةٍ أو مُنحازةٍ للأخبار؛ حيث يجري تَجاهُلُ التنـوُّعِ الحَقيقيِّ في القصص، والتَّركيزُ بَدلاً من ذلك على الأنماط السّائدة أو الأكثر انتشارًا. وهذا يُؤدِّي إلى تَعزيزِ رواياتٍ مُتحيِّزةٍ أو أُحاديّةِ الجانب، ممّا يُقوِّضُ النِّقاشاتِ المتنوِّعةَ والمُتوازنةَ في المجال الإعلامي[1].

٢ - تأثير التعرُّف على الوَجه وخوارزميات التَّقييم في التَّمييز العِرقي

تُعدُّ أنظمةُ التعـرُّف على الوَجهِ واحدةً من أبرزِ تطبيقاتِ الـذَّكاء الاصطناعيِّ التي تُثير جَدلاً واسـعًا، نظرًا للتحيُّزاتِ العنصريّة التي قد تُعزِّزُها. فقد أظهرَت دراساتٌ مُتعدِّدةٌ أنَّ هذه الأنظمةَ تتعرَّضُ لمُعدَّلاتِ خطأٍ أعلى عند التعرُّف على وجوه الأشخاص ذَوي البَشرة الدّاكنة مُقارنةً بذَوي البَشرة البَيضاء. ويُعزى هذا إلى نقص تمَثيلِ الأقليّاتِ العِرقيّة في البيانات المُسـتخدمة لتَدريب الخَوارزميّات، ممّا يَجعلُها أقلَّ دِقّةً في التعرُّف على السِّماتِ الوَجهيّة المُتنوِّعة.

عـلاوةً على ذلك، تُسـتخدم خوارزميّاتُ التقويـم في مجموعةٍ مُتنوِّعةٍ مـن المَجالات مثل التَّوظيف، والقَبول الجامعيِّ، والنِّظام العَـدليِّ. وفي كثيرٍ من الحالات، يُمكنُ لهذه الأنظمةِ أن تُعـزِّزَ الانحيازاتِ الهَيكليّةَ التي تُميِّزُ ضدَّ الفئاتِ الأقلِّ تمَثيلاً في البَيانات. على سـبيل المثال، قد تُصدر الخَوارزمياتُ تَقييماتٍ سلبيّةً تجاهَ الأقليّاتِ بناءً على بياناتٍ تاريخيّةٍ غيرِ مُتوازنة، مثلِ السِّجلّات الجنائيّة أو أنماطِ التَّوظيف التَّمييزيّة. وعلاوةً على ذلك، فإنَّ هذه الأنظمةَ قد تُستخدَم كأدواتِ مُراقَبةٍ قد تَنتهكُ حقوقَ الخُصوصيّةِ للأفراد، خصوصًا في المجتمعات الأقلِّ قوّةً.

1 - Domingos, P, The Master Algorithm: How the Quest for the Ultimate Learning Machine Will Remake Our World, Penguin UK, 2015, p. 26.

٣ - منصّات التَّواصُلِ الاجتماعيِّ وتَعزيزُ الانقسامات الثَّقافية

تُعدُّ منصّاتُ التواصُلِ الاجتماعيِّ بيئةً خصبةً لاستخدامِ الذَّكاء الاصطناعيِّ لتَوجيهِ المُحتوى واقـتراحِ المَواضيع. يَعتمد تَصميمُ هذه الخوارزمياتِ على تفاعُلِ المُسـتخدمينَ السّـابق، ممّا يُـؤدِّي إلى ظهور ما يُعرَف بـ"فقاعات التَّصفية"؛ حيث يُعرض للمُسـتخدمِ فقط المُحتوى الذي يَتماشى مع وُجهات نظره السَابقة. هذه الظّاهرة تُؤدِّي إلى عزل المُستخدمينَ عن آراء ووجهات نظرٍ مُختلفة، ممّا يُعزِّزُ الانقسامات الثَّقافيّةَ والاجتماعيّة.

في هذا السِّياق، تُظهرُ الدِّراساتُ أنَّ هذه الخَوارزميّاتِ يمُكنُ أن تُسهم في تَعزيز الصُّوَرِ النَّمطيّةِ السَّـلبيّةِ عـن الأقليّاتِ أو الثَّقافات المُختلفـة. فمن خلال التَّرويج للمُحتـوى الذي يُظهرُ هذه المجموعات بشكلٍ مُشوَّهٍ أو مُسيءٍ، تَزداد مشاعرُ الكراهيةِ والتَّمييز. علاوةً على ذلك، تُستخدم هذه الأدواتُ الذَّكيّةُ أيضًا لمُراقبةِ المُحتوى؛ حيثُ قد يجري إزالةُ بعضِ المَنشـوراتِ التي تُعتبر "غيرَ مرغوبٍ فيها" بطريقةٍ غيرِ مُتوازنةٍ، ممّا يُؤدِّي إلى قَمع أصواتٍ مُعيَّنةٍ مع السَّـماحِ بانتشـار مُحتوًى تَحريضيٍّ أو عُنصريٍّ.

على الرَّغم من الإمكانات الهائلة التي يُوفِّرُها الذَّكاءُ الاصطناعيُّ، فإنَّ اسـتخدامَه في الإعلامِ الرَّقمـيِّ والإعلاناتِ المُوجَّهةِ يمُكنُ أن يُعزِّزَ اسـتدامةَ الصُّور النَّمطيّـةِ العُنصريّة والتَّمييزيّةِ إذا لم يتمَّ تَصميمُه واسـتخدامُه بشكلٍ مَدروسٍ وخُلُقيّ. لذلك، من الضَّروريِّ وَضعُ إطارٍ تَنظيميٍّ صارمٍ لضَمانِ استخدامِ هذه التُّكنولوجيا بوجهٍ عادلٍ، يُحقِّقُ التنوُّعَ الثَّقافيَّ والاجتماعيَّ ويُحارِبُ التَّحيُّزَ.[1]

خامسًا: أثر العُنصريّةِ المَدعومة بالذَّكاء الاصطناعيِّ على المُجتمعات المُتأثِّرة

١ - التأثيرُ على فُرَصِ العَمل والتَّعليم

العُنصريّـةُ المَدعومـةُ بالـذَّكاء الاصطناعـيِّ تُلقي بظِلالها عـلى فُرَصِ العَمـل والتَّعليم في المُجتمعات المُتأثِّرة. وتُعتبر أنظمةُ التَّوظيفِ التـي تَعتمِدُ على خوارزميّاتِ الذَّكاءِ الاصطناعيِّ

1 - Pariser, E., The Filter Bubble: How the New Personalized Web Is Changing What We Read and How We Think, Technology & Engineering , Penguin Books, 2011, p. 68.

عُرضةً للاعتماد على البيانات التّاريخيّة التي قد تَحمل تحيُّزات اجتماعيّةً أو عرقيّةً. على سبيل المثال، إذا كانَت بياناتُ التَّدريب تَحتوي على تمَثيلٍ أقلَّ للأقليّات العرقيّة أو الاجتماعيّة في مَجالات مُعيَّنة، فإنَّ الخوارزميّات قد تُعيد إنتاجَ هذه الأنماط التَّمييزيّةَ، ممّا يُؤدِّي إلى استبعاد هؤلاء الأفراد من الفُرَص المهنيّة. وعليه، يُمكنُ أن تظلَّ التَّفرقةُ العُنصريّةُ مُستمرّةً في سوق العَمل؛ حيثُ تُعزِّزُ الأنظمةُ الذَّكيّةُ تَفوُّقَ الفئات الأكثر تمَثيلاً بينَما تُقلِّلُ فُرَصَ العَمل للأقلِّ تمثيلاً.

أمّا في مجال التَّعليم، فإنَّ الأنظمةَ الذَّكيّةَ التي تُستخدم لتَصنيف وتوجيه الطُّلاب قد تكون أيضًا مُنحازةً ضدَّ الأقليّات. إذا جرى تَدريبُ هذه الأنظمة باستخدام بيانات غير مُتوازنة أو تتضمَّنُ تَحيُّزات تاريخيّةً، فقد تُؤثِّرُ بوجه غير عادل على فُرَص قَبول الطُّلاب من هذه الفئات في الجامعات المَرموقة أو على الحُصول على المِنَح الدِّراسيّة. علاوةً على ذلك، يُمكنُ أن تُؤدِّيَ هذه الأنظمةُ إلى توجيه مواردَ تعليميّةٍ أقلَّ إلى الأقليّات، ممّا يُعزِّزُ الفَجوات التَّعليميّةَ ويُعيقُ تَقدُّمَها الأكاديميَّ والاجتماعي.[1]

٢ - تعزيز التَّمييز الاجتماعيِّ والاقتصاديِّ من خلال أنظمة الذَّكاء الاصطناعيّ

عندَ تَطبيق أنظمة الذَّكاء الاصطناعيِّ بوجه غير مَسؤول، يُمكنُ أن تُصبحَ هذه الأنظمةُ أدوات لتَعميق التَّمييز الاجتماعيِّ والاقتصادي. ففي القِطاع الماليِّ، على سبيل المثال، يُستخدم الذَّكاءُ الاصطناعيُّ لتَحديد أهليّة الأفراد للحصول على قُروض أو خَدمات بَنكيّة. إذا كانَت البَياناتُ التي تَعتمد عليها هذه الأنظمةُ تُظهرُ أنَّ فئاتٍ مُعيَّنةً، مثلَ الأقليّات العرقيّة أو الاجتماعيّة، تُواجهُ صعوبات أكبرَ في الحصول على القروض بسبب ضَعف سجلِّ الائتمان التاريخيِّ، فقد تُقرِّرُ الأنظمةُ رفضَ الطَّلبات بوجه غير عادل، ممّا يُسهم في استبعاد هذه الفئات من الفُرَص الاقتصاديّة الحَيويّة. وبذلك، تَتفاقمُ التَّفاوُتاتُ الماليّةُ ويَظلُّ الأفرادُ من الأقليّات في دائرة الفَقر والتَّهميش.

في السِّياق الاجتماعيِّ، يُمكنُ أن تُؤثِّرَ أنظمةُ الذَّكاء الاصطناعيِّ في تحديد تَوزيع المَوارد والخَدمات الاجتماعيّة. وإذا كانَت هذه الأنظمةُ تَعتمد على بيانات غير شاملة أو مُنحازة، فقد تُفضِّلُ الفئاتِ الأكثرَ تَمثيلاً في البيانات، ممّا يَزيدُ من تَهميش المُجتمعات الأقلِّ تمَثيلاً. وهذا

1 - O›Neil, C., Weapons of Math Destruction: How Big Data Increases Inequality and Threatens Democracy, Crown Publishing Group, ISBN 978-0553418811, 2016, p.p 71-73.

الأمرُ يُمكنُ أن يُعزِّزَ الانقسامات الاجتماعيّةَ ويُعمِّقَ شعورَ الفئات المُتضرِّرة بالعُزلة والإقصاء من السِّياسات الاجتماعيّة المُهمّة التي تَهدف إلى تَعزيز رفاهيّة المُجتمع.

تُظهرُ العُنصريّةُ المَدعومةُ بالذَّكاء الاصطناعيِّ آثارًا سلبيّةً كبيرةً على فُرَص العَمل والتَّعليم، وتُعزِّزُ التَّمييزَ الاجتماعيَّ والاقتصاديَّ. ولمُواجهة هذه المُشكلة، يَجب تَصميمُ أنظمة ذكاء اصطناعيٍّ تَعتمد على بيانات مُتوازنة وشاملة، مضافًا إلى وضع سياسات تَنظيميّة تُعزِّزُ العَدالةَ الاجتماعيّةَ. كما يَجب أن يجري تَعزيزُ الشَّفافيّة والمُساءلة في تَطوير واستخدام هذه الأنظمة لضَمان أن تُسهم في تَحسين الفُرَص للجَميع دون استبعاد أيِّ فئة بسبب خَلفيّات عِرقيّة أو اجتماعيّة.

الخاتمة

لقد أصبحَ الذَّكاءُ الاصطناعيُّ أداةً محوريّةً في تحسين العَديد من جوانب الحياة البشرية، بما في ذلك الطِّبُّ، والتَّعليمُ، والصِّناعةُ. ومع ذلك، لا يَخلو هذا التطوُّرُ من تحدِّيات خُلُقيّة، حيثُ إنَّ الأنظمةَ الذَّكيةَ قد تَعكس التَّحيُّزات العُنصريّةَ والاجتماعيّةَ المُتجذِّرةَ في المُجتمعات. وهذه التحيُّزاتُ، التي قد تتسلَّلُ إلى البيانات المُستخدَمة في تدريب الخَوارزميّات، فتُؤدِّي إلى تَعزيز الصُّور النَّمطيّة السَّلبيّة وتكرار التَّمييز ضدَّ الأقليّات العرقيّة أو الاجتماعيّة في مَجالات مثل التَّوظيف والتَّعليم والخَدمات المالية. ومن خلال التَّفاعُل بينَ الذَّكاء الاصطناعيِّ والعُنصريّة الغَربيّة التاريخية، يُمكن أن تُؤدِّي الأنظمةُ الذَّكيّةُ إلى تَرسيخ الفَوارق الاجتماعيّة والاقتصاديّة بينَ المُجتمعات المُختلفة. وبالتّالي، من الضَّروريِّ أن يتمَّ تَطويرُ هذه الأنظمة بطُرُق تَضمن العَدالةَ والمُساواة، لتَفادي تَعزيز التَّمييز العُنصريِّ والاجتماعي.

لذلك نُوصي بـ:

١. تطوير خوارزميّات شاملة وغير مُنحازة: يَجب أن تُركِّزَ الأبحاثُ على تحسين خوارزميّات الذَّكاء الاصطناعيِّ للتأكُّد من أنَّها لا تَعكسُ التَّحيُّزات العُنصريّةَ أو الاجتماعيّةَ. ويتطلَّبُ ذلك تنوُّعًا في البيانات المُستخدمة لتَدريب الأنظمة واستخدام تقنيّات لتَحليل مَدى تأثير البيانات على العَدالة الاجتماعيّة.

٢. تحليل التأثيرات الاجتماعيّة: من الضَّروريِّ أن تَقوم المُؤسَّساتُ التي تَستخدمُ الذَّكاءَ الاصطناعيَّ بتَحليل التأثيرات الاجتماعيّة لتَطبيقاتها المُختلفة. ويَجب أن يَشمل هذا

فَحصًا دَقيقًا للأثرِ المُحتمَلِ للأنظمةِ على الأقليّاتِ والأفرادِ المُعرَّضينَ للتَّهميش.

٣. تنفيذ سياساتٍ تَنظيميّةٍ صارمة: يَنبغي وضعُ لوائحَ وقوانينَ صارمةٍ تُنظِّمُ استخدامَ الذَّكاءِ الاصطناعيِّ، خاصّةً في المَجالاتِ التي تُؤثِّرُ على حياة الأفراد، مثلِ التَّوظيف والتَّعليم والخَدماتِ الماليّة. ويَجب أن تكونَ هذه السِّياساتُ مُوجَّهةً لضَمانِ أنَّ الأنظمةَ لا تُسهم في تَعزيزِ التَّمييزِ العُنصريِّ أو الاجتماعي.

٤. تعزيز التنوُّعِ في الفِرَقِ البَحثيّة: تَشجيعُ التنوُّعِ العِرقيِّ، والثَّقافيِّ، والاجتماعيِّ في فِرَقِ تَطويرِ الذَّكاءِ الاصطناعيِّ قد يُساعِدُ على تَقليلِ الانحيازاتِ غيرِ المَقصودة، ويَزيد من فاعليّةِ الأنظمةِ في تلبية احتياجاتِ جميعِ الفئات.

٥. المُراقبة والتقويم المُستمرّ: يَجب مراقبةُ الأنظمةِ الذَّكيّةِ وتقويمها بوجهٍ مُستمرٍّ لضَمان أنَّها تَعمل بطُرقٍ عادلةٍ وغيرِ مُنحازة. ومن الضَّروريِّ إجراءُ تَدقيقاتٍ مُستقلّةٍ لهذه الأنظمةِ لتَحديدِ أيّةِ مُشكلاتٍ في الأداءِ قد تكونُ ناتجةً عن التحيُّزاتِ المُدمَجةِ فيها.

فباتِّباعِ هذه التَّوصياتِ، يُمكِنُ الحدُّ من الأثرِ السَّلبيِّ للذَّكاءِ الاصطناعيِّ على المُجتمعاتِ المُختلفةِ وضَمان استخدامِ هذه التكنولوجيا بطريقةٍ تحقّق يُحقِّقُ العَدالةَ والمُساواة.

1. Russell, S., & Norvig, P., Artificial Intelligence: A Modern Approach, Pearson, Pearson Series in Artifical Intelligence, 2021.
2. Topol, E. J., Deep Medicine: How Artificial Intelligence Can Make Healthcare Human Again, Hachette UK, Basic Books, 2015.
3. Lee, J., Bagheri, B., & Kao, H., A Cyber-Physical Systems Architecture for Industry 4.0-Based Manufacturing Systems, Manufacturing Letters, Volume 3, 2015.
4. O'Neil, C., Weapons of Math Destruction: How Big Data Increases Inequality and Threatens Democracy, Crown Publishing Group, ISBN 9782016 ,0553418811-.
5. Noble, S. U., Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism, NYU Press, 1 Ed, New York, 2018, p:61.
6. Mitchell, T. M., Machine Learning, McGraw-Hill, 1997.
7. Domingos, P, The Master Algorithm: How the Quest for the Ultimate Learning Machine Will Remake Our World, Penguin UK, 2015.
8. Pariser, E., The Filter Bubble: How the New Personalized Web Is Changing What We Read and How We Think, Technology & Engineering , Penguin Books, 2011.

آثار العُنصريّة في الغرب

■ زينب فرحات[1]

ملخّص

يَرصد هذا البحثُ الإحصائيُّ التَّمييزَ العُنصريَّ ضدَّ الأقلّيّات، لا سيَّما المُسلمينَ والأفارقة والآسيويِّينَ واللاتينيِّينَ في الولايات المتّحدة الأميركيّة وعدّة دول أوروبيّة، وهي: فرنسا وألمانيا وبريطانيا. وتبيَّن بحسب الدِّراسات والتَّقارير والأبحاث الإحصائيّة، التي جَرى الاطِّلاعُ عليها، أنَّ ظاهرةَ العُنصريّة تتَّخذُ مَسارًا تَصاعُديًّا في الدُّول المَذكورة لأسباب سياسيّة ودينيّة. كما يُمكنُ القولُ إنَّ العُنصريّةَ ليست أسلوبًا عَفويًّا يَتَّبعُه بعضُ الأشخاص المتطرِّفين، بل هو سياسةٌ مُمنهجةٌ ومُعتمَدةٌ في مفاصل الدَّولة، بدليل التَّمييز في التَّعليم والصِّحة والحقِّ في العَمل ومعدّلات البطالة ومُستويات الدَّخل والسَّكن، بحسب ما يُظهرُه البحثُ بالأرقام. وتَجدرُ الإشارةُ إلى أنَّه بالنَّظر للضُّغوط التي يتعرَّضُ لها الأفرادُ، الذين يَقعون ضحيّةَ العُنصريّة، غالبًا ما يَنعكس على صِحّتِهم النَّفسيّة، ويُدخِلُهم في دوّامةٍ من الصِّراع مع الذّات.

الكلمات المفتاحية: العُنصريّة، التَّمييز العُنصري، جرائم الكراهية، الأقلّيّات، اعتداءات.

1 - باحثة لبنانية، ماجستير في إدارة المعلومات.

مقدِّمة

لأسبابٍ تاريخيّةٍ وسياسيّةٍ، لا تكاد تَخلو المُجتمعات الغربيّةُ من العُنصريّة، رغم التقدُّم على المُستوى العلميِّ والتِّقنيِّ. ربمَّا هي آفةٌ تُلازمُ كافّةَ المُجتمعاتِ الإنسانيّةِ على اختلاف أديانها وانتماءاتها وطُرقِ عَيشِها. فالصُّورةُ النَّمطيّةُ ونَزعةُ الاستعلاءِ دائمًا ما تُلازمُ النَّظرةَ إلى الآخَرِ (المُهاجر) بصفته مواطنًا من الدَّرجةِ الثّانية. لكنَّ اللافتَ في الولايات المتّحدة الأميركيّة والدُّولِ الأوروبيّة، وأبرزُها فرنسا وألمانيا وبريطانيا، أنَّ العُنصريّةَ اندمجَت في تركيبةِ الدَّولةِ حتَّى صارَت مُمنهجةً؛ ذلك أنَّها توغَّلَت في قطاعات التَّعليم والصِّحّة، وأيضًا في فُرَصِ الحُصولِ على عملٍ وسَكنٍ، وتجلَّت أيضًا في مُستوى الدَّخل، وهو ما حفَّزَ بطبيعةِ الحال السُّلوكَ العُدوانيَّ تجاهَ الأقلِّيّاتِ، بما في ذلك المسلمونَ والأفارقةُ والآسيويُّونَ. وقد أدَّت أحداثُ طوفان الأقصى إلى تَزايُدِ جرائمِ الكراهيّة حيالَ العربِ والمُسلمينَ في المُجتمعاتِ الغَربيّة، رغمَ التَّضامُنِ مع القضيّةِ الفلسطينيّة، كما ظهرَ في المُظاهراتِ وحراكِ الجامعات. وبالنَّتيجةِ أفرزَت العُنصريّةُ جملةً من التَّداعياتِ على الأفرادِ الذينَ وَقعوا ضحيّةَ التَّمييزِ في أماكنِ العَملِ أو السَّكنِ أو التَّعليم، وحتَّى في الشّارعِ وأماكنِ العبادة، حيثُ يتعرَّضونَ لاعتداءاتٍ غيرِ مُبرَّرةٍ تندرجُ في إطارِ جرائمِ الكراهيّة. والأسوأُ من ذلك أنَّه كان للتَّمييزِ العُنصريِّ ارتداداتٌ سيِّئةٌ على الصِّحّةِ النَّفسيّة للأفراد، وخصوصًا الأطفال، بالنَّظر إلى أنَّهم في طورِ تَشكُّلِ الإدراك، وهو ما يكون في كثيرٍ من الأحيان بمَثابةِ صَدمةٍ قد تَبقى آثارُها مَدى الحياة. وفي هذا البحث تَوثيقٌ لتَداعياتِ العُنصريّةِ في مُجتمعاتِ الدُّولِ المَذكورةِ بحسبِ دراساتٍ وتَقاريرَ صادرةٍ عن مُؤسَّساتٍ رَسميّةٍ، ومُنظَّماتٍ حقوقيّة.

أولًا: التَّمييز العُنصري في الولايات المتحدة الأميركية

تَنتشر آفةُ العُنصريّةِ في الولايات المتَّحدة الأميركيّة بدرجة كبيرة، ورغم أنَّ تركيبةَ الدَّولةِ قائمةٌ

على تعدُّدُ الأعراقِ والقوميّات، لكنّ الكراهيةَ والتَّمييزَ سلوكان شائعان في مختلف القطّاعات.

١ - جرائم الكراهية[1]

في عام ٢٠٢٢، ارتفعَت حوادثُ جرائـمِ الكراهية بمقدار ٧٩٤ حادثة، لتصلَ إلى ١١٦٣٤، مقارنةً بـ ١٠٨٤٠ في ٢٠٢١.

أ - جرائم العُنصريّة ضدَّ الأمريكيِّين الأفارقة:

- في عـام ٢٠٢٢، كان الأمريكيُّـونَ الأفارقـةُ هدفًا لعـدد كبير من جرائـم الكراهية العُنصريّـة. مَثَّلوا أكثرَ مـن ٥٠٪ من ضحايا الجرائم العُنصريّـة، رغم أنَّهم يُمثِّلونَ حوالي ١٣٪ من إجمالي السُّكان في الولايات المتَّحدة.
- في عـام ٢٠٢٢ عددُ الحـوادث العُنصريّة ضدَّ الأفارقة: جـرى الإبلاغُ عن ٣٤٢١ حادثة عنصريّة ضدَّ الأفارقة.

ب - جرائم العُنصريّة ضدَّ الآسيويِّينَ:

- في عام ٢٠٢١، ارتفعَت الحوادثُ ضدَّ الآسيويِّينَ بدرجة كبيرة، أي بنسبة ٧٠٪ بعد جائحةِ كوفيد-١٩. وفي ٢٠٢٢، ظلَّ هذا النَّوعُ من الجرائم يُمثِّلُ مصدرَ قلقٍ، على الرَّغم من وجود تراجُعٍ طَفيفٍ في الأعداد مقارنةً بالعام السّابق.

ج - جرائم العُنصريّة ضدَّ المسلمين:

- تمَّ الإبلاغُ عن ١٥٨ حادثة جرائم كراهية ضدَّ المسلمين في عام ٢٠٢٢.
- وبالنِّسبة للجرائم ضدَّ المسلمينَ بنحو عامٍّ، كانَت هذه الأعدادُ أقلَّ مقارنةً بالحوادث ضدَّ الأفارقة، لكنَّها لا تزالُ تُمثِّلُ جزءًا كبيرًا من الجرائمِ الدِّينيّة.

د - تَقسيم حوادث جرائم الكراهيّة حسب الدّافع:

- العرق/ النَّسَب: ٧٣١٤ حادثة (٦١,٧٪)
- الدِّين: ١٨٠١ حادثة (١٥,٢٪)

1 - Department of Justice, FBI Releases 2023 Crime in the Nation Statistics (Washington, DC: U.S. Department of Justice, 2023).

٢ - عُنف الشُّرطة:

في عام ٢٠٢٤، شهدَ المَدنيُّونَ الأفارقةُ أعلى مُعدَّلاتِ إطلاقِ النّارِ القاتلِ من قِبَلِ الشُّرطةِ مُقارنةً بالمَجموعاتِ العِرقيّةِ الأخرى. وبحسب بياناتٍ صادرة عن «منظَّمة مابينج بوليس فيولنس -Mapping Police Violence» البَحثيّةِ غيرِ الرِّبحيّة، تَستخدم الشّرطةُ في الولايات المتَّحدة القوّةَ ضدَّ ما لا يقلُّ عن ٣٠٠ ألف شخصٍ كلَّ عام، ممّا يُؤدِّي إلى إصابة ما يُقدَّرُ بنحو ١٠٠ ألف منهم. وتَستندُ البياناتُ إلى تقاريرَ سابقة وَجَدَت أنَّ الشُّرطةَ الأميركية تَقتل نحوَ ١٢٠٠ شخص كلَّ عام، أو ثلاثةَ أشخاصٍ يوميًّا، وهو عددٌ يَتزايدُ كلَّ عام، ويَتجاوَزُ بدرجة كبيرة المُعدَّلاتِ في الدُّولِ المُماثلة. والجديرُ بالذِّكرِ أنَّ الأفرادَ الأفارقةَ يتعرَّضونَ للقوّةِ بمُعدَّلاتٍ أعلى بمِقدار ٢,٣ مرّة من الأفراد البِيضِ[١].

٣ - التَّعليم:

إنَّ التَّمييزَ العُنصريَّ في التَّعليم، في الولايات المتَّحدة، قضيّةٌ مُتعدِّدةُ الأوجه، تَشمل التَّفاوُتَ في الالتحاق والحُصولِ على الدَّرجاتِ العِلميّةِ والتَّمثيلِ عبرَ مُختلفِ مَجالاتِ الدِّراسة.

أ - التَّعليم الثّانوي[٢]:

في عام ٢٠١٩، حصلَ ٤٠ في المئة من البالغينَ البيضِ على درجة البكالوريوس، مقارنةً بـ ٢٦ و١٩ و١٧ في المئة فقط من البالغينَ الأفارقةِ والهسبان والهنود الأمريكيِّين.

ب - التَّعليم الجامعي[٣]:

يُوفِّرُ المركزُ الوَطنيُّ لإحصاءات التَّعليم (NCES) بياناتٍ شاملةً حولَ التَّفاوتاتِ في فرص الحُصولِ على التَّعليم الجامعيِّ:

الطُّلاب البيض: ٥٥٪

---

1 -The Guardian, U.S. Police Use Force on 300,000 People a Year, With Numbers Rising Since George Floyd: 'Relentless Violence' (London: The Guardian, 2024).

2 - National Center for Education Statistics, Rates of High School Completion and Bachelor's Degree Attainment Among Persons Age 25 and Over, by Race/Ethnicity and Sex: Selected Years, 1910 through 2020 (Washington, DC: U.S. Department of Education, 2020).

3 - National Center for Education Statistics, Bachelor's Degrees Conferred by Postsecondary Institutions, by Race/Ethnicity and Sex of Student: Selected Academic Years, 1976-77 through 2020-21 (Washington, DC: U.S. Department of Education, 2022).

الطُّلاب الأميركيِّين من أصل إفريقي: ١٤٪
الطُّلاب من أصل إسباني أو لاتيني: ٢٠٪
الطُّلاب الآسيويُّون: ٦٪
الطُّلاب الهنودُ الأميركيُّونَ أو سكان ألاسكا الأصليُّون: ١٪
عِرقان أو أكثر: ٤٪

٤ - سوق العَمل:

تُؤدِّي الفَجواتُ التَّعليميّةُ الكبيرة، والتَّمييزُ العُنصريُّ في سوق العَمل، إلى اختلافاتٍ واضحة في الأمـن الاقتصاديِّ بـينَ المجموعاتِ العِرقيّة. ففـي عام ٢٠١٩، بلغَ مُعـدَّلُ البطالة ٦,١٪ لـكلٍّ من البالغينَ الأفارقة والهنود الأميركيين، مقارنةً بنحو ٣,٣٪ و٢,٧٪ فقط للبالغينَ البيضِ والآسـيويِّينَ على التَّوالي. وعلى نحـو مُماثِلٍ، بلغَ مُعدَّلُ البطالةِ بينَ البالغينَ من أصلٍ إسـبانيٍّ ٤,٣٪ و٣,٥٪ فقط بينَ غيرِ الإسبان[١].

٥ - المَداخيل:

لا يَـزالُ البالغونَ الأفارقةُ واللاتينيُّونَ يَحصلون على مَدخـولٍ أقلَّ بكثير من البالغينَ البيضِ. بلغَ مُتوسِّطُ دخلِ الأسرة عام ٢٠٢٠ حوالي ٤٦٠٠٠ دولار، و٥٥٥٠٠ دولار للعاملينَ الأفارقة واللاتينيِّـينَ على التَّوالي، مقارنةً بـ ٧٥٠٠٠ دولار و٩٥٠٠٠ دولار للأُسَرِ البَيضاءِ والآسـيويّة. لم تتغـيَّرْ هذه الفَوارقُ في الدَّخلِ كثيراً منذ عام ١٩٧٠، وهي أحدُ المُسـاهمينَ الأساسـين في اسـتمرار فَجوةِ الـثَّروةِ العِرقيّة. في عام ٢٠١٩، كان لدى الأسرةِ البَيضاءِ المُتوسِّـطة ١٨٤٠٠٠ دولار في الثَّروةِ العائليّة، مقارنةً بـ ٢٣٠٠٠ دولار و٣٨٠٠٠ دولار فقط للأُسَرِ الإفريقيّة واللاتينيّة المُتوسِّطةِ على التَّوالي[٢].

1 - BLS Reports, Labor Force Characteristics by Race and Ethnicity, 2019 (Washington, DC: Bureau of Labor Statistics, 2020).

2 - Kent, A. H., & Ricketts, L. R., Has Wealth Inequality in America Changed Over Time? Here Are Key Statistics (St. Louis: Federal Reserve Bank of St. Louis, 2020).

٦ - الفَقر:

يَعيش الأشـخاصُ الملُوَّنـونَ في الولايات المتَّحدة غالبًـا في الأحياء ذات مُعـدَّلات الفَقر المُرتفعـة. ففي عام ٢٠١٩، كان ما يَقرب من رُبع الهُنود الأمريكيِّينَ، و٢١ في المئة من الأفارقة غير اللاّتينيِّينَ، و١٧ في المئة من الهسبانيِّينَ يَعيشون في أحياء ذات فَقر مُرتفع، تمَّ تعريفُها على أنَّها مناطقُ تَعداد سـكانيٍّ بمُعدَّل فَقر يَبلـغُ ٣٠ في المائة أو أعلى. في المُقابل، كان ٤ في المئة و٦ في المئة فقط من البيض والآسـيويِّينَ أو سكان جُزر المُحيط الهادئ يَعيشونَ في أحياء ذات فَقـر مُرتفع، تَفتقرُ إلى الموارد والمَرافق الحَيويّة مثل المَـدارس الجيّدة ومَحلاّت البَقّالة الكبيرة ووسـائل النَّقل العامِّ المَوثوقة والمَسـاحات المُجتمعيّة الآمنة والنَّظيفة التي تمُكِّنُ السُّكّانَ من النَّجاح في الفُصول الدِّراسيّة وفي العَمل[1].

٧ - الصِّحّة:

يُواجـهُ الأمريكيُّونَ الأفارقةُ واللاتينيُّونَ مُعدَّلات أعلى من إسـاءة مُعامَلة الأطفال، والتَّعرُّض للرَّصاص، والسُّـمنة في مرحلة الطُّفولة والأمراض المُزمنة في مَرحلة البُلوغ مقارنةً بالأمريكيِّينَ البيض. غالبًا ما تُعاني هذه المَجموعاتُ مـن تَقييد الوُصول إلى الرِّعاية الصِّحيّة الجيِّدة، وهي قضيَّةٌ أبرزَتْها جائحةُ كوفيد-١٩. بالمُقارَنة مع الأمريكيِّينَ البيض غير اللاّتينيِّينَ، فإنَّ الأمريكيِّينَ من أصلٍ لاتينيٍّ، والأفارقـةَ غيرَ اللاّتينيِّينَ، والأمريكيِّينَ الهنودَ كانوا أكثرَ عُرضةً للوفاة بسـبب الجائحـة بنسـبة ١,٨ و١,٧ و١ و٢,١ مرة. وعَلاوةً على ذلك، فـإنَّ التَّوزيع غيرَ العـادلَ للرِّعاية الصِّحيّـة في الولايات المتَّحدة يُؤثِّرُ سـلبًا عـلى صحّة جميع الأمريكيِّـينَ، بما في ذلك أولئك الذينَ لديهم إمكانيّةُ الوُصول إلى خدماتٍ عالية الجُودة[2].

٨ - الاضطرابات النَّفسيّة:

وَثَّقَت مُراجعةٌ حديثةٌ أنَّ التَّمييـزَ العُنصريَّ يَرتبطُ بمَقاييس الاكتئاب وأعراض القَلق والضِّيق

1 - U.S. Department of the Treasury, Racial Inequality in the United States (Washington, DC: U.S. Department of the Treasury, 2022).

2 - BLS Reports, Labor Force Characteristics by Race and Ethnicity, 2019 (Washington, DC: Bureau of Labor Statistics, 2020).

النَّفسيِّ، بالإضافة إلى الاضطرابات النَّفسيّة. على سبيل المثال، ارتبطَ التَّمييزُ اليَوميُّ بزيادة احتمالات الإصابة بالاضطراب النَّفسيِّ DSM-IV والاضطراب الاكتئابيِّ، واضطراب القَلق بينَ الأمريكيِّينَ الآسيويِّينَ. وفي الدِّراسات الوَطنيّة NLAAS وNSAL، بالنِّسبة للبالغينَ اللاتينيِّينَ والآسيويِّينَ والأفارقة والأفارقة الكاريبيِّينَ، ارتبطَ التَّمييزُ اليَوميُّ بالذُهان مَدى الحياة.

بناءً على مُراجعة لأبحاث التَّمييز بينَ الأطفال والمُراهقينَ، وُجِدَت ١٢١ دراسةً بَحثَت في العلاقة بينَ التَّمييز والصِّحة، بينَ الأشخاص الذينَ تتراوحُ أعمارُهم من صفر إلى ١٨ عامًا، أنَّ التعرُّضَ للتَّمييز يُؤدِّي إلى تَدهورُ الصِّحة العَقليّة (مثل أعراض القَلَق والاكتئاب). وبالمثل، ارتبطَ التَّمييزُ عَكسيًّا بالصِّحة العَقليّة الإيجابيَّة (على سبيل المثال، المَرونة، وتَقديرُ الذّات، واحترام الذّات)[1].

ثانيًا: العُنصريّة في المَملكة المتَّحدة:

تُعاني الأقلِّيّاتُ من صعوبة الاندماج في المُجتمع البَريطانيِّ؛ نظرًا إلى أنَّ العُنصريّةَ تكاد تكونُ سياسةً مُمنهجةً في مختلف المَجالات، بما في ذلك التَّعليمُ والصِّحّةُ وسُوقُ العَمل.

١ - جرائم الكراهيّة[2]:

- في العام ٢٠٢٤، سجَّلَت الشُّرطةُ في إنجلترا وويلز أكثرَ من ١٤٠٥٠٠ جريمة كراهيّة. وشكَّلَت الجرائمُ ذاتُ الدَّوافع العُنصريّة أكثرَ من ثُلثي هذه الحَوادث.
- أبلغَت الشُّرطةُ عن ٤٨ جريمةَ كراهيةٍ دينيّةٍ في أيرلندا الشَّمالية في عام ٢٠٢٢/٢٠٢٣، مقارنةً بـ ٣٣ جريمةً في العام السّابق.
- في عام ٢٠٢٣/٢٠٢٤، جرى الإبلاغُ عن ٥٢٣ تُهمةً بارتكاب جرائم كراهيةٍ دينيّةٍ إلى النِّيابة العامّة في اسكتلندا، مقارنةً بالعام السّابق عندَما كانَ هناك ٥٩٥.

1 - Williams, D. R., Stress and the Mental Health of Populations of Color: Advancing Our Understanding of Race-Related Stressors, National Library of Medicine, December 1, 2019.

2 - Statista, Hate Crime in the UK (Statista, 2024).

أ - الدَّوافع الدِّينيّة[1]:

- وصلَت جرائمُ الكراهيةِ الدِّينيّةِ إلى مستوًى قياسيٍّ بلغ ١٠٤٨٤ حادثةً في ٢٤/٢٠٢٣، ممّا يُمثِّلُ زيادةً بنسبة ٢٥٪ عن العام السّابق.
- حوادثُ الإسلاموفوبيا: زادَت جرائمُ الكراهيةِ ضدَّ المُسلمينَ بنسبة ١٣٪، ليَصل إجمالي الجرائمِ المُبلَّغِ عَنها إلى ٣,٨٦٦.

٢- سُوقُ العَمل[2]:

- عام ٢٠٢١، كان ٦٧٪ من الأفرادِ الأفارقةِ الذين تَتراوحُ أعمارُهم بين ١٦ و٦٤ عامًا يَعملون، مقارنةً بـ ٧٦٪ من البريطانيِّينَ البيضِ و٦٩٪ من البرَيطانيِّينَ الآسيويِّينَ. بالنِّسبةِ لأولئك الذينَ تَتراوح أعمارُهم بين ١٦ و٢٤ عامًا، كان مُعدَّلُ التَّوظيفِ ٣١٪ للأفراد الأفارقة، و٥٦٪ للبريطانيِّينَ البيضِ، و٣٧٪ للآسيويِّينَ البريطانيِّينَ. وكان مُتوسِّطُ الأجرِ بالسّاعةِ للبريطانيِّينَ الأفارقة ١٢,٥٥ جنيهًا إسترلينيًّا، وهو من بينِ أدنى المُعدَّلاتِ بينَ المَجموعاتِ العِرقيّة.
- وجدَ استطلاعٌ أجرتْه جامعةُ كامبريدج عام ٢٠٢٣ أنَّ ٨٨٪ من المُستجيبينَ الأفارقةِ أفادُوا بتَعرُّضِهمْ للتَّمييزِ العُنصريِّ في العَمل.
- ارتفعَ عددُ الأشخاصِ من ذَوي الخَلفيّةِ العِرقيّةِ الأقلِّيةِ العاطلينَ عن العَمل بمقدار ٧٧٠٠٠ شخصٍ مُقارنةً بنفسِ الفَترةِ من العام الماضي.
- ارتفعَ مُعدَّلُ البطالةِ من ٧,٢٪ إلى ٨,٠٪ للأشخاص من ذوي الخَلفيّةِ العِرقيّةِ الأقلِّيةِ، بينَما انخفضَ من ٣,٦٪ إلى ٣,٣٪ للأشخاصِ من ذَوي الخَلفيّةِ العِرقيّةِ البَيضاء.

---

1 - Financial Times, Religious Hate Crimes Hit Record High in England and Wales, Data Shows (London: Financial Times, 2024).

2 .(UK Parliament, Unemployment by Ethnic Background (London: UK Parliament, 2024

٣ - الفَقر[١]:

أبرزَت مُراجَعةٌ أجراها «معهدُ المُساواة الصِّحيّة» التّابعُ لجامعة لندن أنَّ أكثرَ من نصف الأطفال الأفارقة ونحوَ ٧٠٪ من الأطفال البنغاليِّينَ والباكستانيِّينَ يَعيشونَ في فقرٍ نسبيٍّ، مُقارَنةً بنحو ٢٦٪ من الأطفال البيض.

إنَّ الأشخاصَ في الأُسَر البنغاليّة والإفريقيّة والباكستانيّة أكثرُ عُرضةً بنحو ثلاثة أضعاف للانتقال إلى فقرٍ مُدقِعٍ كلَّ عام، مع دخول أقلَّ بكثيرٍ من خطِّ الفَقر، مقارنةً بالأشخاص في الأُسَر البيض. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّهم أكثرُ عُرضةً بنحوِ أربعة أضعافٍ على الأقلِّ لتجربة فَقرٍ مُدقِعٍ مُستمرٍّ - أي فقرٍ مُدقِعٍ في ٣ سنوات على الأقلّ من أصل ٤.

٤ - التَّعليم[٢]

تكشفُ الإحصائيّاتُ عن زيادة بنسبة ٢٣٪ في حالات إيقاف الطُّلاب عن الدِّراسة بسبب الإساءة العُنصريّة، معَ ارتفاعٍ مُعدَّلات الإيقاف عن الدِّراسة بينَ الطُّلاب الأفارقة من مَنطقة البَحر الكاريبيِّ. كما يُوجَدُ اعتقادٌ واسعُ النِّطاق بأنَّ المَناهجَ الدِّراسيّةَ الحاليّةَ تَتجاهَلُ تَجاربَ الإفريقيِّينَ.

٥ - الصِّحة[٣]:

وَفقًا لمَسح المَواقف الاجتماعيّة البريطانيّة (٢٠٢٠)، أفاد ١٦٪ من المُستجيبينَ البَريطانيِّينَ الأفارقة و١٢٪ من المُستجيبينَ من جنوب آسيا بعَدمِ رِضاهُم عن خَدماتِ طَبيبِهم العامّ، مُقارَنةً بـ ٨٪ من المُستجيبينَ البريطانيِّينَ البيض.

يُواجِهُ حوالي ٢٠٪ من الأقلّيّات العِرقيّة صعوبةً في الوصول إلى الرِّعاية الصِّحيّة في الوقت المُناسب، بسبب عواملَ مثلِ الافتقارِ إلى الكفاءة الثَّقافية في تَقديم الخِدمة أو أوقات الانتظار الأطول.

---

1 - JRF, Matejic, P., Schmuecker, K., Ibison, Y., & Taylor, I., Bangladeshi, Black African, and Pakistani Households at Higher Risk of Very Deep, Long-Term Poverty (London: JRF, 2024).

2 - The Guardian, McIntyre, N., & Thomas, T., Exclusion Rates Five Times Higher for Black Caribbean Pupils in Parts of England (London: The Guardian, 2021).

3 - NHS Digital, Mental Health Act Statistics, Annual Figures, 2022-23 (London: NHS Digital, 2022).

٦ - الاضطرابات النَّفسيّة:

- وَفقًا لـ«هيئة الخَدمات الرَّقميّة للخدمة الصِّحيّـة الوَطنيّة» NHS Digital (٢٠٢٢)، فإنَّ الأقلِّيّات العرقيّةَ أكثرَ عُرضةً للإبلاغ عن ضَعف الصِّحة العَقليّة:
- من المُرجَّح أن يجري تَشـخيصُ البالغينَ البريطانيِّينَ الأفارقةَ بحالات صحيّة عقليّة شَديدة، مثل الفِصام، بمَعدلات أعلى بخمس مرّات من السُّكان البريطانيِّينَ البيض.
- تُبلِّـغُ المجتمعـاتُ في جنـوب آسـيا، وخاصّةً تلـك التي مـن خَلفيّات باكسـتانيّة وبَنغلاديشـيّة، عن مُعـدَّلات أعلى من القَلـق والاكتئاب مُقارَنةً بالأفـراد البريطانيِّينَ البيض. ومعَ ذلك، فإنَّهم أيضًا أقلُّ عُرضةً لطلب المُساعَدة في حالات الصِّحة العَقليّة، حيثُ تُعدُّ الوَصمةُ عاملاً مُهما[1].
- الأفـرادُ البريطانيُّونَ الأفارقةُ لديهم مُعدَّلاتٌ أعلى من الاضطرابات الذِّهانيّة (٣,٢٪) مقارنةً بالأفراد البيض (٠,٣٪)[2].

ثالثًا: التَّمييز العُنصريُّ في فرنسا

تتعرَّضُ الأقلِّيّاتُ في المجتمع الفرنسيِّ لمُعاملة مُسيئة من قِبَل المُواطنينَ الأصليِّينَ، ويُلاحَظُ ذلك بوُضـوح في مُعدَّلات جرائم الكراهية، كما تتعرَّضُ الأقلِّيّات للتَّمييز في مختلف مَجالات الحياة.

١ - جرائم الكراهيّة

ارتفعَت الجرائمُ أو الجُنحُ ذاتُ الطّابع العُنصريِّ أو المُعادي للأجانب والأديان بنسـبة ٣٢٪ في العام ٢٠٢٣ في فرنسا، مقارنةً بـ ٢٠٢٢، بحسب تَقرير صادر عن وزارة الدّاخليّة الفرنسيّة[3].

---

1 - See ibid 14.

2 - Counselling-Directory, Whitton, E., Key Statistics About Discrimination and Minority Groups (London: Counselling-Directory, 2025).

3 - French Ministry of the Interior, Racist, Xenophobic, or Anti-Religious Attacks in 2023 (Paris: French Ministry of the Interior, 2024).

أ - العُنصريّة ضدَّ المسلمين :[1]

- أفادَ ما يَقربُ من ٨٠٠ ألف شخص تَبلُغُ أعمارُهم ١٨ عامًا أو أكثر أنَّهم وَقعوا ضحايا لهجوم عُنصريٍّ في عام ٢٠٢١، أو ١,٦٪ من إجمالي السُّكانِ البالغينَ. وأشارَ ٤٪ منهم فقط إلى أنَّهم تقدَّموا بشَكوى لدى الأجهزةِ الأمنيّة.
- بحسب" اللَّجنة الوَطنيّة الاستشاريّة لحُقوق الإنسان" (CNCDH) ووزارة الدّاخليّة الفرنسيّة، فقد تزايدَت الجَرائمُ والمُخالفاتُ ذاتُ الطَّبيعة العُنصريّة والمُعادية للإسلام والمُسلمينَ بدرجة كبيرة في السَّنوات الأخيرة.
- من بينِ هذه الاعتداءات، كانَت الهَجماتُ على أماكنِ العبادة الإسلاميّة (مثلِ المَساجد) مَوضوعًا لعدّة تقاريرَ عن الأضرار والاعتداءات الجَسديّة.
- وَفقًا لرابطة حُقوق الإنسان (LDH)، كانَت هناكَ زيادةٌ بنسبة ٢٥٪ في الأفعال المُعادية للإسلام في عام ٢٠٢٢ مقارنةً بالعام ٢٠٢١. وشملَت الحوادثُ الهَجمات على المَساجد، وتَدنيسَ مَقابر المُسلمينَ، فَضلاً عن الاعتداءات الجَسديّة واللَّفظيّة التي تَستهدفُ المُسلمينَ.

ب - العُنصريّة ضدَّ الأفارقة:

سجَّلَت الأجهزةُ الأمنيّةُ ٨٨٠٠ ضحيّة لجَرائمَ أو مُخالفات عُنصريّة في ٢٠٢٣ و٤٢٠٠ متَّهَم. ويُمثِّلُ الرِّجالُ والأشخاصُ الذين تَتراوح أعمارُهم بين ٢٥ و٥٤ عامًا والأجانبُ من دولةٍ إفريقيَّةٍ نسبةً عاليةً من بينِ هؤلاءِ الضَّحايا[2].

٢. سُوقُ العَمل:

وَجدت دراسةٌ استقصائيّةٌ أجرتْها منظمةُ «المدافعون عن الحقوق» في عام ٢٠١٩ أنَّ الأشخاصَ الذينَ يُنظَرُ إليهم على أنَّهم مسلمونَ أو من أصلٍ إفريقيٍّ يُواجهونَ مُعدَّلاتٍ أعلى من التَّمييز عندَ البحثِ عن عملٍ وفي مكانِ العَمل[3]. وبحسب دراسةٍ أُجريت عام ٢٠٢٤، فإنَّ الأشخاصَ الذينَ

1 - LDH, ASSEMBLE FOR FREEDOMS (Paris: LDH, 2022).

2 - French Ministry of the Interior, Racist, Xenophobic, or Anti-Religious Attacks in 2023 (Paris: French Ministry of the Interior, 2024).

3 - Jean-Jaurès Foundation, Ferhat, I., & Kraus, F., State of Discrimination and Racist Attacks Against Muslims in France (Paris: Jean-Jaurès Foundation, 2019).

يَرتدونَ رُموزًا دِينيّةً مَرئيّةً، بما في ذلك الحِجابُ الإسلاميُّ، يُواجِهونَ تَمييزًا مُتزايدًا في البيئةِ المِهنيّةِ[١].

٣ - المَداخيل:

تُشـير الأبحـاثُ إلى أنَّ العمالَ المُنحدرينَ من أصـلٍ إفريقيٍّ يَحصلونَ عـلى أجورٍ أقلَّ من نُظَرائِهـم من أصلٍ أوروبيٍّ؛ ذلك أنَّ الرَّواتبَ الشَّـهريّةَ الصّافيةَ للرِّجالِ الذين يَنحدِرُ آباؤُهُم من بلدانِ جَنوبِ الصَّحراءِ الإفريقيّةِ الكبرى أقلُّ في المُتوسِطِ بأكثرَ من ٤٠٠ يورو من رَواتبِ السُّكانِ الأصليِّينَ. ويَبلغُ الفارقُ ٣٢٨ يورو بالنِّسبةِ للقادمينَ من الخارج، و١٨٦ يورو بالنِّسبةِ للقادمينَ من المَغربِ العربيِّ. وتَبلغُ الفُروقاتُ على التَّوالي ٢٦٧ و١٣١ و٩٨ يورو للنِّساء[٢].

٤ - التَّعليم:

تُظهرُ دراسـةٌ أجراها «المَعهدُ الوطنيُّ للإحصاءِ والدِّراسـاتِ الاقتصاديّة» (INSEE) في عام ٢٠١٨ أنَّ الشَّبابَ من خَلفيّاتٍ مُهاجِرةٍ غالبًا ما يُواجِهونَ التَّمييزَ في الوصولِ إلى بعضِ مُؤسَّساتِ التَّعليمِ العالي. على سبيلِ المِثالِ، الشَّبابُ من عائلاتٍ من شمالِ إفريقيا أو من جنوبِ الصَّحراءِ الكُـبرى لدَيهم احتماليّةٌ أكبرُ بمقدارِ ١,٥ مرّة للتَّوجُّهِ نحوَ مُسلسـلاتٍ أقلَّ شُـهرةً من نُظرائِهم البيـضِ[٣]. ووَفقًا للدِّراسـة، فإنَّ الطُّـلابَ ذَوي الخَلفيّةِ المُهاجِرةِ هم أكثرُ عُرضـةً للتَّوجُّهِ نحوَ الدَّوراتِ المِهنيّةِ بمِقدارِ ٣ مرّات أكثرَ من أقرانِهم من أصلٍ أوروبيٍّ[٤].

٥ - الصِّحّة:

كشـفَت دراسـةٌ أجرتْها «الهيئةُ العُليا للصِّحة» (HAS) عام ٢٠٢٠ أنَّ المَرضى من الأقلِّيّاتِ

1 - Richardot, R., A Religious Phenomenon Increasingly Present in the Workplace, Generally Accepted, but with Rising Reluctance, Le Monde (Paris: Le Monde, 2024).

2 - Observatoire des inegalites, Salaires : les descendants d'immigrés africains et de parents nés outre-mer lourdement pénalisés (paris: 2024).

3 - Défenseur des droits, Experience of Discrimination in Higher Education and Research in France (Paris: Défenseur des droits, 2022).

4 - CNESCO, Report on the Influence of Geographic Origin on Academic Success (Paris: CNESCO, 2019).

العرقيّـة يتلقَّونَ علاجًا أقلَّ جودةً بسـبب الصُّـوَرِ النَّمطيّة العُنصريّة. على سـبيلِ المثال، يكونُ المَرضى الأفارقةُ والعربُ أكثرَ عُرضةً لعدمِ تلقِّي رِعايةٍ ذاتِ جودةٍ مُماثلةٍ للمَرضى البيضِ. وتُؤثِّرُ القَوالبُ النَّمطيّةُ العُنصريّةُ على مُمارسـاتِ التَّشـخيصِ والعِلاجِ بشكلٍ خاصٍّ، معَ عدمِ مُراعاةِ الاحتياجاتِ المُحدَّدة لهؤلاءِ السُّكان.

وَجدت دراسـةٌ نُشرت عام ٢٠٢٤ أنَّ المَرضى والنِّسـاءَ الأفارقـةَ يَحصلونَ على رعايةٍ أقـلَّ في غُرف الطَّوارئ. وأظهرَت النَّتائجُ أنَّ الرِّجالَ يُؤخَذونَ على محملِ الجدِّ (٦٢٪ من الحالات) أكثر من النِّسـاء (٤٩٪)، وأنَّ الحالاتِ تُعتبرُ أقلَّ خطورةً عندَما يكونُ الشَّخصُ إفريقيًّا: ٤٧٪ من المَرضى الأفارقةِ تمَّ اعتبارُهُم حالاتِ طَوارئَ مُهدِّدةً للحَياةِ مُقارَنةً بـ٥٨٪ للمَرضى البيض. مضافًا إلى ذلك، وَجدت دراسـةٌ اسـتقصائيّةٌ أُجريت في عام ٢٠٢٣ أنَّ المَرضى والنِّساءَ الأفارقةَ أقلُّ عُرضةً للعلاجِ في غُرفةِ الطَّوارئ. وأظهرَت النَّتائجُ أنَّ المَرضى الأفارقـةَ يتمُّ عِلاجُهم بشـكلٍ أقلَّ من المَرضى البيض، وأنَّ النِّسـاءَ أقلُّ عُرضةً للعِلاجِ من الرِّجال[1].

٦ - الاضطراباتُ النَّفسيّة:

تمَّ إجراءُ مَسحٍ إحصائيٍّ في نوفمبر ٢٠٢٣ على عيِّنةٍ من تلامذةِ الأقلِّيّاتِ مُكوَّنةٍ من ٢١٧٠٠ طالب من CE٢ إلى Terminale. وجَرى اسـتخدامُ ١٧٤٠٠ اسـتبيان (نسبة الاستجابة ٨٠٪). النَّتائجُ التي صدرَت عن الدِّراسة هي وفق الآتي: الخوفُ من الذَّهابِ إلى المَدرسة (في كثير من الأحيان) بسـببِ مَخاوفَ من زُملائِهم، واحـد أو أكثر من الطُّلاب: ٥٪ من أطفالِ المَدارسِ من CE٢ إلى CM٢، ٢٪ مـن طُلّاب المَرحلة المُتوسِّـطة، ٢٪ من طُلّاب المَدارسِ الثّانوية. وعلى المسـتويات كافّة، يَقول ما يَقربُ من ٥٪ من الطُّلّاب إنَّه ليس لدَيهِم أيُّ أصدقاءَ في مدرسـتِهم أو مُؤسَّستِهم[2].

1 - Middle East Eye, France: It's Better to Be a White Man than a Black Woman in Emergency Rooms, According to a Study (London: Middle East Eye, 2024).

2 - Ministry of National Education, First Statistical Results of the Harassment Survey 2023 (Paris: Ministry of National Education, 2023).

رابعًا: التَّمييزُ العُنصريُّ في ألمانيا

تُعدُّ ألمانيا واحدةً من الدُّولِ الأوروبيّـةِ التي تتعرَّضُ فيها الأقلّيّاتُ للتَّمييزِ العُنصريِّ، خاصّةً معَ تصاعُدِ التَّيارِ اليَمينيِّ، وانتشارِ نَزعةِ الكراهيةِ للمُسلمينَ.

١ - جرائم الكراهية:

أ - الجرائمُ ذاتُ الدَّوافعِ العُنصريّةِ: تمَّ تَسجيلُ ١١٥٢٠ جريمةَ كراهيةٍ في عام ٢٠٢٥ [١].

ب - جرائم ذات دوافع سياسيّة:

أظهرَت الإحصاءاتُ الرَّسميّةُ زِيادةً كبيرةً في الجرائمِ ذاتِ الدَّوافعِ السِّياسيّةِ من ٤٤٦٩٢ جريمـةٍ في عام ٢٠٢٠ إلى ٥٥٠٤٨ جريمة في عـام ٢٠٢١. وزادَت أعمالُ العُنفِ ذاتُ الدَّوافعِ السِّياسيّةِ بنحو ١٦ في المئة[٢].

ت - جرائم ذات دوافع يَمينيّة:

سـجَّلَت وزارةُ الدّاخليـةِ ٩١٦٧ جريمة بدَوافـعَ يَمينيّةٍ خلالَ النِّصـفِ الأوَّلِ من عام ٢٠٢٢، بما في ذلك ٤١٨ عملاً من أعمالِ العُنف[٣].

ج. جرائم ضدَّ المُسلمين[٤]:

في عام ٢٠٢٣، وصلَ عددُ الحَوادثِ المُعاديةِ للمُسـلمينَ إلى مسـتوًى قياسيٍّ جديدٍ بلغ ١٩٢٦ حالةً مُوثَّقةً. وفي المُتوسِّطِ، وقعَت أكثرُ من خمسِ حوادثَ مُعاديةٍ للمُسلمينَ كلَّ يومٍ في عـام ٢٠٢٣، بما في ذلك التَّمييزُ والاعتداءاتُ اللَّفظيّةُ والجَسـديّةُ والإضرارُ بالمُمتلكات. وشملَت هذه الهَجماتُ حوالي ٩٠ هجومًا على مواقعَ دينيّةٍ مثل المَساجدِ والأماكنِ التي يُنظَرُ إليها على أنَّها تَعودُ لمسلمينَ، مثل المَطاعمِ أو المَحلّاتِ التِّجاريّةِ.

لقد ارتفعَتِ الهَجماتُ والتَّمييزُ ضدَّ المسلمينَ بدرجة كبيرة، خاصّةً منذُ هجوم حماس على إسرائيل في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٢٣. وبشكلٍ عامٍّ، جرى توثيقُ ٦٧٩ حادثة في

1 - OSCE, Germany Hate Crime Report 2022 (Vienna: OSCE, 2022).

2 - Human Rights Watch, World Report 2022: Germany (New York: Human Rights Watch, 2022).

3 - See ibid 26.

4 - CLAIM, Report on Anti-Muslim Racism (London: CLAIM, 2024).

الفترة من ٧ أكتوبر إلى ٣١ ديسمبر ٢٠٢٣. وقد كانَت أنواعُ الحَوادثِ عام ٢٠٢٣ عبارةً عن: الاعتداءات اللَّفظيّة، وهي تمُثّل النِّسبةَ الأكبرَ (١,٢٧٧ حالة)، يَليها التَّمييز (٣٦٣ حالة) والسُّلوكُ العُدوانيُّ (٢٨٦ حالة).

٢ - التَّعليم[١]:

- وَفقًا لتقرير صادر عن الوكالة الفيدرالية لمُكافحة التَّمييز (FADA)، أفادَ نحو ٢٠٪ من المُشاركينَ من خَلفيّات مُهاجرة بوُجود تمَييز في التَّعليم.
- أظهرَتْ دراسةٌ أُجريت عام ٢٠١٩ أنَّ الطُّلابَ من أصلٍ تركيٍّ أو عربيٍّ هم أكثرُ عُرضةً بدرجة كبيرة لمُواجهة عَوائقَ أمامَ التَّقدُّم التَّعليميِّ؛ حيث يَشعر ١٣٪ من الطُّلاب من هذه المجموعاتِ بالتَّمييز ضدَّهُم من قِبَلِ المُعلِّمينَ أو زُملائِهم الطُّلاب.
- وَجدت دراسةٌ شملَت ١٤,٥٩٢ طالبًا جامعيًّا في جميع أنحاء ألمانيا أنَّ ٢٦٪ أفادوا بأنَّهم تعرَّضوا للتَّمييز أثناءَ دراستِهم، و٤٦٪ لاحظوا التَّمييزَ ضدَّ الآخَرينَ. وارتبطَ هذا التعرُّضُ بزيادةِ مُستوياتِ أعراضِ الاكتئابِ والإجهادِ المَعرفيِّ والإرهاق[٢].
- يُعاني ما يقربُ من نصفِ اللّاجئينَ في ألمانيا من التَّمييز، ممّا يُؤثِّرُ سَلبًا على صِحّتِهم العَقليّة. والجَديرُ بالذِّكر أنَّ اللّاجئينَ في المناطقِ الشَّرقيّة يُبلِّغونَ عن مستوياتٍ أعلى من التَّمييزِ مُقارنةً بتلكَ المَوجودةِ في المَناطقِ الغربيّة[٣].

1 - Antidiskriminierungsstelle des Bundes, Protection from Discrimination in School Settings (Berlin: Antidiskriminierungsstelle des Bundes, 2024).

2 - González, L. P., Mental Health and the Intersection of Perceived Discrimination and Social Inequalities Among Students in Germany – a Quantitative Intersectional Study, International Journal of Public Health, January 15, 2025.

3 - Grabo, J., & Leavey, G., Geographical Disparities and Settlement Factors and Mental Health of Refugees Living in Germany, International Journal of Environmental Research and Public Health, March 1, 2023.

٣ - الصِّحة[١]:

وَفقًا لدراسة أجراها "المَعهدُ الألمانيُّ لحقوق الإنسان" عام ٢٠٢١، أفادَ ٢٠٪ من أفرادِ الأقلّيّاتِ العِرقيّة أنَّهم تعرَّضوا للتَّمييزِ أثناءَ المواعيدِ الطِّبيّة. وهذا يَشمل التَّنميطَ العُنصريَّ والمُعاملةَ بعنايةٍ أقلَّ من المَرضى الألمان. مضافًا إلى ذلك، فإنَّ المسلمينَ والأفارقةَ مُمثَّلونَ بدرجة كبيرة في التَّقاريرِ المُتعلِّقةِ بالمُعامَلةِ غيرِ المُتكافئةِ في المُستشفياتِ، والتي غالبًا ما تَرتبطُ بافتراضاتٍ مُتحيِّزةٍ عن أسلوبِ حياتِهم أو ظروفِهم الصِّحية.

٤ - سُوقُ العَمل[٢]:

أظهرَت دراسةٌ أجرتْها "الشَّبكةُ الأوروبيّةُ لمُناهضةِ العُنصريّة" (ENAR) عام ٢٠٢٠ أنَّ الأشخاصَ ذَوي الأسماءِ التي تَبدو عربيّةً أو المُنحدرينَ من أصلٍ إفريقيٍّ كانوا أقلَّ عُرضةً بنسبة ٣٠ إلى ٤٠٪ لتلقِّي مُكالمة مرّةً أُخرى لإجراءِ مُقابلاتِ عَملٍ مُقارنةً بالأفرادِ ذَوي الأسماءِ الألمانيّة النَّموذجيّة. ووَفقًا لوكالةِ التَّوظيفِ الفيدراليّة (Bundesagentur für Arbeit)، فإنَّ معدَّلَ البطالةِ بينَ الأشخاصِ ذَوي الخَلفياتِ المُهاجرةِ أعلى بنسبة ٣,٥٪ من المُتوسِّطِ الوَطنيِّ للألمانِ الأصليِّينَ، والذي يَبلغ عادةً حوالي ٦٪ في عام ٢٠٢٣.

٥ - المَداخيل[٣]:

بحسب دراسة أجراها «المعهدُ الألمانيُّ للبحوث الاقتصادية» (DIW) عام ٢٠٢٢، فإنَّ الأُسَر من خلفيّاتٍ مُهاجِرةٍ غيرِ غَربيةٍ تكسبُ في المتوسط ٢٥٪ أقلَّ من الأُسَر الألمانيّةِ الأصليّة.

---

1 - Knesebeck, O. v., & Klein, J., Perceived Discrimination in Health Care in Germany – Results of a Population Survey, National Library of Medicine (2024).

2 - ENAR, ENAR IS HIRING: Policy and Advocacy Advisor on Climate and Economic Justice (Brussels: ENAR, 2025).

3 - DIW Berlin, Entringer, T., Kumrow, L., & Stacher, B., Loneliness in Germany: Low-Income Earners at Highest Risk of Loneliness (Berlin: DIW Berlin, 2025).

وتَستمرُّ هذه الفَجوةُ في جميعِ مُستوياتِ التَّعليمِ والوَضعِ الوَظيفيِّ، ويُفسِّرُها جُزئيًّا ارتفاعُ احتمالِ التَّمييزِ في عَملياتِ التَّوظيفِ والحصولِ على التَّرقيات. فيما وجدَت الدِّراسةُ نفسُها أنَّ الأُسَرَ ذاتَ الخَلفيّاتِ الإفريقيّةِ والتُّركيّةِ والعَربيّةِ في ألمانيا هي أكثرُ عُرضةً للعَيشِ تحتَ خطِّ الفَقرِ؛ إذ تُعاني ٣٥٪ من الأُسَرِ من هذه المَجموعاتِ من الفَقرِ النِّسبيِّ، مُقارنةً بـ ١٥٪ من الأُسَرِ الألمانيّةِ الأصليّة.

٦ - الاضطرابات النَّفسيّة[1]:

وجدَت دراسةٌ نُشرت في "المَجلّةِ الدَّوليّةِ للبُحوثِ البيئيّةِ والصِّحّةِ العامّة" في عام ٢٠٢٠ أنَّ الأفرادَ الذينَ تعرَّضوا للتَّمييزِ في ألمانيا لديهم انتشارٌ أعلى لقضايا الصِّحةِ العَقليّة. على وجهِ التَّحديد، أفادَت الدِّراسةُ أنَّ ٣٠٪ من المُشاركينَ الذين تعرَّضوا للتَّمييزِ لديهم أعراضُ الاكتئابِ، مقارنةً بـ ١٥٪ من أولئكَ الذين لم يتعرَّضوا للتَّمييز.

تُشيرُ الأبحاثُ التي أجراها "المركزُ الفيدراليُّ للتَّثقيفِ الصِّحيِّ" (BZgA) إلى أنَّ المُهاجرينَ في ألمانيا أكثرُ عُرضةً لمشاكلِ الصِّحةِ العَقليّةِ بسببِ التَّمييز. ويَذكر BZgA أنَّ المُهاجرينَ أكثرُ عُرضةً بنسبة ١,٥ مرّة للإصابةِ باضطراباتِ الاكتئابِ والقلقِ مُقارَنةً بالسُّكانِ الألمانِ الأصليِّينَ.

- الأطفالُ والمُراهقونَ: وَجدت دراسةٌ نُشرت في مجلّةِ الطِّبِّ النَّفسيِّ للأطفالِ والمُراهقينَ الأوروبيّة في عام ٢٠١٩ أنَّ الأطفالَ والمُراهقينَ من خلفيّاتٍ مُهاجرةٍ في ألمانيا، الذين تعرَّضوا للتَّمييز، لديهم خطرٌ أعلى للإصابةِ بمَشاكلِ الصِّحةِ العَقلية. وذكرَت الدِّراسةُ أنَّ ٢٥٪ من هؤلاء الشَّبابِ أظهروا أعراضَ الاكتئابِ، مقارنةً بـ ١٠٪ من أقرانِهم الذينَ لم يتعرَّضوا للتَّمييز.

1 - González, L. P., Mental Health and the Intersection of Perceived Discrimination and Social Inequalities Among Students in Germany – a Quantitative Intersectional Study, International Journal of Public Health, January 15, 2025.

الولايات المتَّحدة الأميركية:

جدول ١: جرائم الكراهية

	عدد الحوادث ٢٠٢٢	النسبة المئوية من الإجمالي
الجرائم العُنصريّة ضد الأمريكيين الأفارقة	٣٤٢١	أكثر من ٥٠٪
الجرائم العُنصريّة ضد المسلمين	١٥٨	غير محدد
جرائم الكراهية حسب الدافع (العِرق/النَّسب)	٧٣١٤	٦١,٧٪
جرائم الكراهية حسب الدافع (الدِّين)	١٨٠١	١٥,٢٪

جدول ٢: عنف الشرطة

الشرطة	الإحصائيات
استخدام الشُّرطة للقوّة	استهداف ٣٠٠,٠٠٠ شخص
الإصابات الناتجة عن استخدام الشُّرطة للقوّة	إصابة ١٠٠,٠٠٠ شخص
عدد القَتلى السَّنوي بسبب الشُّرطة	يقتل حوالي ١٢٠٠ شخص
التَّفاوت العِرقيُّ في استخدام القوّة	الأفارقة يتعرَّضون لاستخدام القُوّة بمُعدلات أعلى بمقدار ٣,٢ مرة مقارنةً بالأفراد البيض

جدول ٣: العُنصريّة في التَّعليم

المجموعة العرقية	التعليم الثانوي	التعليم الجامعي
الطلاب البيض	٤٠٪	٥٥٪
الطلاب الأفارقة	٢٦٪	١٤٪

الطلاب الهسبان	٪١٩	غير محدد
الطلاب الهنود الأمريكيين	٪١٧	٪١
الطلاب من أصل إسباني أو لاتيني	٪٢٠	غير محدد
الطلاب الآسيويون	٪٦١	٪٦

جدول ٤ : التفاوت الاقتصادي

المجموعة العرقية	معدل البطالة (٢٠١٩)	متوسط الدخل السنوي للأسرة (٢٠٢٠)	الفقر المدقع
البالغون الأفارقة	٪٦,١	٤٦,٠٠٠ دولار	٪٢١
البالغون الهنود الأمريكيين	٪٦,١		٪٢٥
البالغون البيض	٪٣,٣	٧٥,٠٠٠ دولار	٪٤
البالغون الآسيويين	٪٢,٧	٩٥,٠٠٠ دولار	٪٤
البالغون اللاتينيين	غير محدد	٥٥,٥٠٠ دولار	٪٢١

جدول ٥ : التَّمييز في الخدمات الصحية

المجموعة العِرقيّة	نسبة الوفاة بسبب كوفيد-١٩ مقارنة بالأمريكيين البيض
الأمريكيون الأفارقة	١,٧ مرة أكثر عُرضةً للوفاة بسبب الجائحة
الأمريكيون اللاتينيون	١,٨ مرة أكثر عُرضةً للوفاة بسبب الجائحة
الأمريكيون الهنود	٢,١ مرة أكثر عُرضةً للوفاة بسبب الجائحة

بريطانيا:

جدول ١: جرائم الكراهية

جرائم الكراهية	٢٠٢٤: سجّلت الشرطة في إنجلترا وويلز أكثر من ١٤٠٥٠٠ جريمة كراهية.
جرائم الكراهية في أيرلندا الشَّمالية	أبلغَت الشرطة عن ٤٨ جريمة كراهية دينيّة عام ٢٠٢٣/٢٠٢٢.
جرائم الكراهية في اسكتلندا	في عام ٢٠٢٤/٢٠٢٣، تمَّ الإبلاغ عن ٥٢٣ تهمة بارتكاب جرائم كراهية دينيّة.
جرائم الكراهية الدينيّة	وصل عددُ جرائم الكراهية الدينيّة إلى مستوى قياسي بلغ ١٠٤٨٤ حادثة في ٢٤/٢٠٢٣.
جرائم الكراهية ضدَّ المسلمين	زادت جرائمُ الكراهية ضدَّ المسلمين بنسبة ١٣٪ في عام ٢٤/٢٠٢٣، ليصل إلى ٣,٨٦٦.

جدول ٢: الفقر

الفقر	أكثرُ من نصف الأطفال الأفارقة ونحو ٧٠٪ من الأطفال البنغاليين والباكستانيين يَعيشون في فقر نسبيٍّ، مقارنةً بنحو ٢٦٪ من الأطفال البيض.
الفَقر في الأسر البنغالية والإفريقية والباكستانية	الأشخاصُ في الأُسَرِ البنغاليّة والإفريقية والباكستانية أكثرُ عُرضةً بنحو ثلاثةِ أضعافٍ للانتقال إلى فَقرٍ مُدقعٍ كلَّ عامٍ.
الفَقر المُدقِعُ المُستمرُّ	الأُسَرُ البنغاليّةُ والإفريقيّةُ والباكستانيّةُ أكثرُ عُرضةً بنحو أربعة أضعافٍ لتَجربةِ فَقرٍ مُدقِع.

جدول ٣: التَّعليم

التَّعليم	زيادة بنسبة ٢٣٪ في حالات إيقاف الطلاب عن الدراسة بسبب الإساءة العُنصريّة.
الإيقاف عن الدِّراسة بسبب الإساءة العُنصريّة	هناك ارتفاع في معدلات الإيقاف عن الدِّراسة بين الطلاب الأفارقة من منطقة البحر الكاريبي.
تجاهل تجارب الإفريقيِّين في المناهج الدِراسية	يوجد اعتقاد واسع النِطاق بأنَّ المناهج الدِّراسية الحالية تتجاهل تجاربَ الإفريقيين.

جدول ٣: التَّعليم

الصِّحة	وَفقًا لمسح المواقف الاجتماعية البريطانية (٢٠٢٠)، أفادَ ١٦٪ من المُستجيبينَ البريطانيِّينَ الأفارقة و١٢٪ من المُستجيبينَ من جنوب آسيا بعدم رِضاهُم عن خدمات طبيبهم العامِّ، مقارنة بـ ٨٪ من المُستجيبينَ البريطانيين البيض.
الصُّعوبة في الوصول إلى الرِّعاية الصِّحية	يُواجِهُ حوالي ٢٠٪ من الأقلِّيّات العِرقيّةِ صُعوبةً في الوصول إلى الرِّعايةِ الصِّحيّة.

جدول ٥: الاضطرابات النَّفسية

الاضطرابات النَّفسية	الأقلِّيّات العِرقيّةُ أكثرُ عُرضةً للإبلاغ عن ضَعفِ الصِّحة العَقلية.
تشخيص الاضطرابات النَّفسية لدى الأفارقة البريطانيين	يُصابُ البالغونَ البريطانيُّونَ الأفارقة بحالاتٍ صحيّةٍ عقليّةٍ شديدةٍ مثلِ الفِصام، بمُعدَّلات أعلى بخمس مرات من السُّكان البيض.

القلقُ والاكتئابُ في المُجتمعات الآسيوية	المُجتمعاتُ في جنوب آسيا، خاصّةً من خَلفيّات باكستانيّة وبنغلاديشـيّة، تُبلِّغُ عن معدَّلات أعلى من القَلق والاكتئاب مُقارنةً بالأفراد البريطانيِّينَ البيض، لكنَّهم أقلُّ عُرضةً لطلبِ المُساعدة بسبب الوَصمةِ الاجتماعية.
الاضطرابات الذِّهانيّةُ لدى الأفارقة البريطانيِّين	الأفراد البريطانيون الأفارقة لديهم معدلات أعلى من الاضطرابات الذِّهانية (٣,٢٪) مقارنة بالأفراد البيض (٠,٣٪).

فرنسا:

جدول ١ : جرائم الكراهية

جرائم الكراهية ضدَّ المسلمين	• ارتفعَـت الجرائمُ أو الجُنح ذاتُ الطّابع العنـصريِّ أو المُعادي للأجانبِ والأديان بنسبة ٣٢٪ في العام ٢٠٢٣. • أفادَ ما يَقرب من ٨٠٠ ألف شـخصٍ أنَّهـم وَقعوا ضحايا لهجومٍ عُنصريٍّ في عام ٢٠٢١. • تَزايدت الجرائمُ المُعاديةُ للمسلمينَ والإسلامِ في السَّنوات الأخيرة، حسب اللَّجنة الوطنيّة الاستشـاريّة لحقوق الإنسـان ووزارة الدّاخليّة الفرنسـية. • الهَجماتُ على أماكنِ العبادة الإسلاميّة (المساجد) كانَت جزءًا من التَّقارير عن الأضرار والاعتداءات الجسديّة. • في ٢٠٢٢، كانَت هناك زيادةٌ بنسبة ٢٥٪ في الأفعال المُعاديةِ للإسلام. • سـجَّلَت الأجهزةُ الأمنيّةُ ٨٨٠٠ ضحيّة لجرائم أو مُخالفات عنصريّة في ٢٠٢٣.

جدول ٢: العَمل

سُوق العَمل	• دراسةٌ استقصائيّةٌ أجرَتْها منظمةُ "المدافعون عن الحقوق" في عام ٢٠١٩ أظهرَت أنَّ الأشخاصَ الذين يُنظَرُ إليهم على أنَّهم مسلمونَ أو من أصلٍ إفريقيٍّ يُواجِهونَ مُعدَّلاتٍ أعلى من التَّمييزِ عندَ البحثِ عن عملٍ وفي مكانِ العَمل. • وفقًا لدراسةٍ أُجريت عام ٢٠٢٤، الأشخاصُ الذين يَرتدونَ رُموزًا دِينيّةً مَرئيّةً، مثل الحجابِ الإسلاميِّ، يُواجهونَ تَمييزًا مُتزايدًا في البيئة المِهنيّة.

جدول ٣: الفقر

المداخيل	• العَمّالُ المُنحدرونَ من أصلٍ إفريقيٍّ يَحصلونَ على أجورٍ أقلَّ من نُظرائِهم من أصلٍ أوروبيٍّ. • الفارقُ في الرَّواتبِ يكون ٣٢٨ يورو بالنِّسبة للقادمينَ من الخارج، و١٨٦ يورو بالنِّسبة للقادمينَ من المَغرب العربيِّ. • الفُروقاتُ في الرَّواتبِ للنِّساء تكون على التَّوالي ٢٦٧ و١٣١ و٩٨ يورو.

جدول ٤: التَّعليم

التَّعليم	• يُواجِهُ الشَّبابُ من خلفيّاتٍ مُهاجرةٍ التَّمييزَ في الوصولِ إلى بعضِ مُؤسَّساتِ التَّعليمِ العالي. • الشَّبابُ من عائلاتٍ من شمال إفريقيا أو من جنوبِ الصَّحراء الكُبرى لديهم احتماليّةٌ أكبرُ بمِقدار ١,٥ مرّة للتَّوجُّهِ نحوَ مَساراتٍ تَعليميّةٍ أقلَّ شُهرةً مُقارنةً بنُظرائِهم البيضِ رغمَ تَماثُلِ النَّتائجِ.

التَّعليم	• الطُّـلّابُ ذَوو الخَلفيّةِ المُهاجرةِ هــم أكثرُ عُرضةً للتَّوجُّــهِ نحو الدَّوراتِ المِهنيّةِ بمقدار ٣ مرات أكثر من أقرانهم من أصلٍ أوروبيٍّ.

جدول ٥: الصِّحة

الصِّحة	• المَرضى من الأقلّيّات العِرقيّةِ يتلقَّونَ علاجًا أقلَّ جودةً بسبب الصُّوَرِ النَّمطيّةِ العُنصريّةِ. • المَرضى الأفارقةُ والعربُ أكـثرُ عُرضةً لعدم تلقِّي رعايةٍ ذاتِ جودةٍ مُماثلة للمَرضى البيض. • القَوالبُ النَّمطيّةُ العُنصريّةُ تُؤثِّرُ على مُمارساتِ التَّشخيصِ والعِلاجِ، معَ عدمِ مُراعاةِ الاحتياجاتِ المُحدَّدةِ لهذه الفِئات.
الرِّعاية في غُرف الطَّوارئ	• المَرضى والنِّســاءُ الأفارقــةُ تَحديدًا أقــلُّ عُرضةً للعِــلاجِ في غُرف الطَّوارئِ مُقارنةً بالمَرضى البيض. • المَرضى الأفارقةُ يتمُّ علاجُهم بشكلٍ أقلَّ من المَرضى البيض.

جدول ٦: الاضطرابات النَّفسية

الاضطرابات النَّفسية	• ٪ من أطفال المدارس من CE٢ إلى CM٢ يَشعرون بالخوف من الذَّهاب إلى المدرسة بسبب مَخاوفَ من زُملائِهم. • ٢٪ من طلّابِ المَرحلةِ المُتوسِّطةِ و٢٪ من طلاب المدارس الثانويّةِ لديهم نفسُ المَخاوف.

ألماني:

جدول١: العُنصريّة

الجرائم ذات الدَّوافع العُنصريّة	• تمَّ تسجيلُ ١١٥٢٠ جريمة كراهيةٍ في ٢٠٢٢.
الجرائم ذات الدَّوافع السياسيّة	• زيادةٌ كبيرةٌ في الجرائمِ ذاتِ الدَّوافعِ السِّياسيّةِ: من ٤٤٦٩٢ جريمة في ٢٠٢٠ إلى ٥٥٠٤٨ جريمة في ٢٠٢١. • زادَت أعمالُ العُنف ذاتُ الدَّوافعِ السِّياسيّة بنحو ١٦٪ في الفترة نفسها.
الجرائم ذات الدَّوافع اليَمينيّة	• سـجَّلَت وزارةُ الداخلية ٩١٦٧ جريمـة ذات دوافع يَمينيّةٍ في النِّصف الأوَّلِ من عام ٢٠٢٢، بما في ذلك ٤١٨ عملاً من أعمال العُنف.
جرائم ضدَّ المُسلمين	• في عام ٢٠٢٣، وصلَ عددُ الحوادث المُعاديةِ للمُسـلمين إلى ١٩٢٦ حالـة مُوثَّقة، مع وقوع أكثرَ من خمس حوادثَ مُعاديةٍ للمسلمينَ يوميًّا. • الحوادثُ تَشمل التَّمييزَ، والاعتداءاتِ اللَّفظيّةِ والجَسديّةِ، والإضرارَ بالمُمتلكات، بما في ذلك حوالي ٩٠ هجومًا على المَساجدِ والأماكنِ المُرتبطةِ بالمُسلمينَ. • ارتفاعُ الهجماتِ ضدَّ المسـلمينَ بعـدَ طوفانِ الأقصى في أكتوبر ٢٠٢٣. • أنـواع الحـوادث في ٢٠٢٣: الاعتـداءات اللَّفظية (١٢٧٧ حالة)، التَّمييز (٣٦٣ حالة)، والسلوك العُدواني (٢٨٦ حالة).

جدول ٢: التَّعليم

التَّمييز في التَّعليم	• نحو ٢٠٪ من المُشاركينَ من خلفيّاتٍ مُهاجرةٍ أفادوا بوجودِ تمَييزٍ في التَّعليـم وَفقًا لتقريرِ الوكالـةِ الفيدراليّةِ لمُكافحةِ التَّمييز (FADA).
الطُّلاب من أصل تركيٍّ أو عربيّ	• الطُّلاب من أصلٍ تُركيٍّ أو عربيٍّ هم أكثرُ عُرضةً بدرجة كبيرة لمُواجهةِ عَوائقَ أمامَ التقدُّمِ التَّعليميّ. • ١٣٪ من الطُّلاّب من هذه المَجموعاتِ يَشـعرونَ بالتَّمييزِ ضدَّهُم من قِبَلِ المُعلِّمينَ أو زُملائِهم الطُّلاّب.
دراسة شملت ١٤,٥٩٢ طالبًا جامعيًّا	• ٢٦٪ من الطُّلاب الجامعيِّينَ أفـادوا بأنَّهم تعرَّضوا للتَّمييزِ أثناءَ دراستهم، و٤٦٪ لاحظوا التَّمييزَ ضدَّ الآخَرينَ. • ارتبطَ التعرُّضُ للتَّمييزِ بزيادة مُسـتوياتِ أعراضِ الاكتئابِ والإجهادِ المَعرفيِّ والإرهاق.
التَّمييز ضدَّ اللاجئين	• يُعاني ما يَقرب من نصف اللاّجئينَ في ألمانيا من التَّمييز، ممّا يُؤثِّرُ سَلبًا على صِحّتِهم العَقلية. • اللاّجئونَ في المناطقِ الشَّرقيّةِ يُبلِّغونَ عن مستوياتٍ أعلى من التَّمييزِ مقارنةً بتلكَ الموجودةِ في المَناطقِ الغربيّة.

جدول ٣: الصِّحة

التَّمييز في المواعيد الطِّبّيّة	• ٢٠٪ من أفراد الأقلِّيّات العِرقية تعرَّضوا للتَّمييز أثناءَ المَواعيد الطِّبّيّة.

المُعامَلة غيرُ المُتكافئة في المُستشفيات	• المسلمونَ والأفارقةُ مُمثَّلونَ بدرجة كبيرة في التَّقاريرِ المُتعلِّقةِ بالمُعامَلةِ غيرِ المُتكافئةِ في المُستشفيات. • المُعاملةُ غيرُ المُتكافئةِ غالبًا ما تكونُ مُرتبطةً بافتراضاتٍ مُتحيِّزةٍ عن أسلوبِ حياتِهم أو ظُروفِهم الصِّحيّة.

جدول ٤: العمل

التَّمييز في مُقابلات العمل	• وَفقَ دراسة أجرَتْها "الشَّبكة الأوروبيّةُ لمُناهضةِ العُنصريّة" (ENAR) عام ٢٠٢٠: الأشخاصُ ذَوو الأسماءِ التي تَبدو عربيّةً أو المُنحدرونَ من أصل إفريقيٍّ كانوا أقلَّ عُرضةً بنسبة ٣٠-٤٠٪ لتلقِّي مُكالمةٍ مرّةً أُخرى لإجراء مُقابَلاتِ عَمل.
معدَّل البطالةِ بين الأشخاص ذَوي الخلفيّاتِ المُهاجِرةِ	• مُعدَّلُ البطالةِ بين الأشخاصِ ذَوي الخَلفيّاتِ المُهاجرةِ أعلى بنسبة ٣,٥٪ من المُتوسِّط الوَطني للألمان الأصليِّين.

جدول ٥: الفَقر

فَجوةُ الدَّخلِ بين الأُسر المُهاجرة والألمانيّة	• الأُسر من خلفيّاتٍ مُهاجرةٍ غيرِ غَربيّةٍ تكسبُ في المتوسط ٢٥٪ أقلَّ من الأُسر الألمانيّةِ الأصليّة.
الفَقر بين الأُسَر المُهاجرة	• الأُسَرُ ذاتُ الخلفيّاتِ الإفريقيّةِ والتُّركيّةِ والعربيّةِ في ألمانيا هي أكثرُ عُرضةً للعَيشِ تحتَ خطِّ الفَقر. • ٣٥٪ من الأُسَر من هذه المَجموعات تُعاني من الفقرِ النِّسبيِّ مُقارنةً بـ ١٥٪ من الأُسر الألمانيّة الأصليّة.

جدول ٦ : الصِّحة

التَّمييز وصِحّة العَقل	• دراسةٌ نُشرت في "المجلّةِ الدَّوليّةِ للبُحوث البيئيّةِ والصِّحة العامّة" عام ٢٠٢٠ أظهرَت أنَّ الأفرادَ الذين تعرَّضوا للتَّمييز في ألمانيا لديهم تعرُّضٌ أكبرُ لأزمات الصِّحة العقليّة. • ٣٠٪ من المُشاركينَ الذين تعرَّضوا للتَّمييز لديهم أعراضُ الاكتئاب، مقارنةً بـ ١٥٪ من الذين لم يتعرَّضوا للتَّمييز.
المُهاجرونَ وصِحّة العَقل	• المُهاجرونَ أكثرُ عُرضةً لمشاكلِ الصِّحةِ العَقليّةِ بسببِ التَّمييز. • المُهاجرونَ أكثرُ عُرضةً بنسبة ١,٥ مرّة للإصابة باضطراباتِ الاكتئابِ والقلقِ مُقارنةً بالسُّكانِ الألمانِ الأصليِّينَ.
الأطفال والمُراهقونَ	• الأطفالُ والمُراهقونَ من خلفيّاتٍ مُهاجرةٍ الذين تعرَّضوا للتَّمييز لديهم خطرٌ أعلى للإصابة بمَشاكلِ الصِّحة العَقلية. • ٢٥٪ منهم أظهروا أعراضَ الاكتئابِ مُقارنةً بـ ١٠٪ من أقرانهم الذين لم يتعرَّضوا للتَّمييز.

المصادر والمراجع

Reports:

1. Antidiskriminierungsstelle des Bundes, Protection from Discrimination in School Settings (Berlin: Antidiskriminierungsstelle des Bundes, 2024). https://www.antidiskriminierungsstelle.de/SharedDocs/forschungsprojekte/EN/Expertise_Schutz_vor_Diskr_im_Schulbereich_en.html.
2. BLS Reports, Labor Force Characteristics by Race and Ethnicity, 2019 (Washington, DC: Bureau of Labor Statistics, 2020). https://www.bls.gov/opub/reports/race-and-ethnicity/2022/.
3. Célinain, C., In Europe, One in Two Muslims Faces Racism According to a Report, lecourrier de latlas (Geneva: Lecourrier de latlas, 2024). https://fra.europa.eu/en/news/2024/muslims-europe-face-ever-more-racism-and-discrimination.
4. CLAIM, Report on Anti-Muslim Racism (London: CLAIM, 2024). https://www.claim-allianz.de/content/uploads/2024240810/08/_claim_lagebild_summary.pdf?x55771.
5. CNCDH, 2022 Report on the Fight Against Racism, Anti-Semitism, and Xenophobia (Paris: CNCDH, 2023). https://www.cncdh.fr/sites/default/files/202307-/The%20Essentials%20Report%20Racism%202022.pdf.
6. CNESCO, Report on the Influence of Geographic Origin on Academic Success (Paris: CNESCO, 2019). https://www.cnesco.fr/wcontent/uploads/2019190410/04/_Manoilov-1.pdf .
7. Counselling-Directory, Whitton, E., Key Statistics About Discrimination

and Minority Groups (London: Counselling-Directory, 2025). https://www.counselling-directory.org.uk/discrimination-stats.html.

8. Défenseur des droits, Experience of Discrimination in Higher Education and Research in France (Paris: Défenseur des droits, 2022). https://www.defenseurdesdroits.fr/eclairages-experience-des-discriminations-dans-lenseignement-superieur-et-la-recherche-acadiscri.
9. Department of Justice, 2022 FBI Hate Crimes Statistics (Washington, DC: U.S. Department of Justice, 2022). https://www.fbi.gov/news/press-releases/fbi-releases-2022-crime-in-the-nation-statistics.
10. Department of Justice, FBI Releases 2023 Crime in the Nation Statistics (Washington, DC: U.S. Department of Justice, 2023). https://www.fbi.gov/news/press-releases/fbi-releases-2023-crime-in-the-nation-statistics.
11. Department of Justice, FBI Releases 2023 Crime in the Nation Statistics (Washington, DC: U.S. Department of Justice, 2023). https://www.fbi.gov/news/press-releases/fbi-releases-2023-crime-in-the-nation-statistics.
12. ENAR, ENAR IS HIRING: Policy and Advocacy Advisor on Climate and Economic Justice (Brussels: ENAR, 2025). https://www.enar-eu.org/enar-is-hiring-policy-and-advocacy-advisor-on-climate-and-economic-justice/.
13. French Ministry of the Interior, Racist, Xenophobic, or Anti-Religious Attacks in 2023 (Paris: French Ministry of the Interior, 2024). https://www.interieur.gouv.fr/actualites/communiques-de-presse/atteintes-a-caractere-raciste-xenophobe-ou-antireligieux-en-2023.
14. Human Rights Watch, World Report 2022: Germany (New York: Human Rights Watch, 2022). https://www.hrw.org/world-report/2022/country-chapters/germany

15. LDH, ASSEMBLE FOR FREEDOMS (Paris: LDH, 2022). https://civicspacewatch.eu/france-victory-for-ldh-and-freedom-of-assembly-paris-court-overturns-protest-bans/.
16. Ministry of National Education, First Statistical Results of the Harassment Survey 2023 (Paris: Ministry of National Education, 2023). https://www.education.gouv.fr/premiers-resultats-statistiques-de-l-enquete-harcelement-2023380517-.
17. National Center for Education Statistics, Bachelor's Degrees Conferred by Postsecondary Institutions, by Race/Ethnicity and Sex of Student: Selected Academic Years, 197677- through 202021- (Washington, DC: U.S. Department of Education, 2022). https://nces.ed.gov/programs/digest/d22/tables/dt22_322.20.asp.
18. OSCE, Germany Hate Crime Report 2022 (Vienna: OSCE, 2022). https://hatecrime.osce.org/germany
19. Priorygroup, Mental Health Statistics UK 2025 (Priorygroup, 2025).https://www.priorygroup.com/mental-health/mental-health-statistics.
20. Statista, Hate Crime in the UK (Statista, 2024). https://www.statista.com/topics/3311/hate-crime-in-the-uk/.
21. U.S. Department of the Treasury, Racial Inequality in the United States (Washington, DC: U.S. Department of the Treasury, 2022). https://home.treasury.gov/news/featured-stories/racial-inequality-in-the-united-states.
22. UK Parliament, Unemployment by Ethnic Background (London: UK Parliament, 2024). https://researchbriefings.files.parliament.uk/documents/SN06385/SN06385.pdf.

Articles:

1. Financial Times, Religious Hate Crimes Hit Record High in England and Wales, Data Shows (London: Financial Times, 2024). https://www.ft.com/content/b6b64b2e-89314-f52994-f-379d928bb559.
2. Middle East Eye, France: It's Better to Be a White Man than a Black Woman in Emergency Rooms, According to a Study (London: Middle East Eye, 2024). https://www.middleeasteye.net/fr/actu-et-enquetes/france-aux-urgences-il-vaut-mieux-etre-un-homme-blanc-quune-femme-noire-selon-une.
3. Richardot, R., A Religious Phenomenon Increasingly Present in the Workplace, Generally Accepted, but with Rising Reluctance, Le Monde (Paris: Le Monde, 2024). https://www.lemonde.fr/societe/article/202421/11//un-fait-religieux-de-plus-en-plus-present-en-entreprise-plutot-accepte-mais-avec-des-reticences-en-hausse_6406388_3224.html.
4. The Guardian, McIntyre, N., & Thomas, T., Exclusion Rates Five Times Higher for Black Caribbean Pupils in Parts of England (London: The Guardian, 2021). https://www.theguardian.com/education/2021/mar/24/exclusion-rates-black-caribbean-pupils-england.
5. The Guardian, U.S. Police Use Force on 300,000 People a Year, With Numbers Rising Since George Floyd: 'Relentless Violence' (London: The Guardian, 2024). https://www.theguardian.com/us-news/article/2024/aug/28/police-use-of-force-violence-data-analysis

periodicals:

1. DIW Berlin, Entringer, T., Kumrow, L., & Stacher, B., Loneliness in

Germany: Low-Income Earners at Highest Risk of Loneliness (Berlin: DIW Berlin, 2025). https://www.diw.de/de/diw_01.c.935140.de/publikationen/weekly_reports/2025_05_1/lonelines (Placeholder1)s_in_germany__low-income_earners_at_highest_risk_of_loneliness.html.

2. González, L. P., Mental Health and the Intersection of Perceived Discrimination and Social Inequalities Among Students in Germany – a Quantitative Intersectional Study, International Journal for Public Health, January 15, 2025. https://www.ssph-journal.org/journals/international-journal-of-public-health/articles/10.3389/ijph.2024.1607826/full.
3. Grabo, J., & Leavey, G., Geographical Disparities and Settlement Factors and Mental Health of Refugees Living in Germany, International Journal of Environmental Research and Public Health, March 1, 2023. https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC10002295/.
4. Hsieh, C.-T., Klenow, J. P., & Hurst, E., The Allocation of Talent and U.S. Economic Growth (Wiley, September 30, 2019). http://klenow.com/HHJK.pdf.
5. Jean-Jaurès Foundation, Ferhat, I., & Kraus, F., State of Discrimination and Racist Attacks Against Muslims in France (Paris: Jean-Jaurès Foundation, 2019). https://www.visionofhumanity.org/a-snapshot-analysis-of-anti-muslim-mobilisation-in-france-after-terror-attacks/.
6. JRF, Matejic, P., Schmuecker, K., Ibison, Y., & Taylor, I., Bangladeshi, Black African, and Pakistani Households at Higher Risk of Very Deep, Long-Term Poverty (London: JRF, 2024). https://www.jrf.org.uk/race-and-ethnicity/bangladeshi-black-african-pakistani-households-higher-risk-of-very-deep-poverty.

7. Kent, A. H., & Ricketts, L. R., Has Wealth Inequality in America Changed Over Time? Here Are Key Statistics (St. Louis: Federal Reserve Bank of St. Louis, 2020). https://www.stlouisfed.org/open-vault/2020/december/has-wealth-inequality-changed-over-time-key-statistics.
8. Knesebeck, O. v., & Klein, J., Perceived Discrimination in Health Care in Germany – Results of a Population Survey, National Library of Medicine (2024). https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/38409013/.
9. National Center for Education Statistics, Rates of High School Completion and Bachelor's Degree Attainment Among Persons Age 25 and Over, by Race/Ethnicity and Sex: Selected Years, 1910 through 2020 (Washington, DC: U.S. Department of Education, 2020). https://nces.ed.gov/programs/digest/d21/tables/dt21_104.10.asp.
10. NHS Digital, Mental Health Act Statistics, Annual Figures, 202223- (London: NHS Digital, 2022). https://digital.nhs.uk/data-and-information/publications/statistical/mental-health-act-statistics-annual-figures.
11. Williams, D. R., Stress and the Mental Health of Populations of Color: Advancing Our Understanding of Race-Related Stressors, National Library of Medicine, December 1, 2019. https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC6532404/.

نقدُ أُسس التَّمييز العُنصري بالرُّؤية القرآنيّة[1]

- **أكرم حيدري**[2]
- **طاهره جوكار**[3]
- **المترجم**: **محمد فراس الحلباوي**[4]

ملخّص

يتطرَّق هذا البحثُ إلى دراسة أُسس التَّمييز العُنصريِّ، وعرض الرُّؤية القرآنيّة النّاقدة والمُفنِّدة لهذه الأُسس. فمن أُسس التَّمييز العُنصريِّ الأهمِّ، الاستعلاءُ في اتِّخاذ لون البَشرة أو اللُّغة أو الثَّروة أو كثرة الأولاد أو السُّلطة أو الدِّين أو المَنطقة الجغرافيّة معيارًا لهذا التَّمييز. وفي هذا المقال تُحلَّل كلُّ هذه العوامل بالتَّفصيل، فضلًا عن النَّقد والتَّفنيد. كذلك تَردُ في هذا البحث انتقاداتٌ مُستندةٌ إلى الآيات القرآنيّة لأُسَّين آخَرَين هما التَّمييزُ والتكبُّر، وهُما من العوامل الرَّئيسة في التَّمييز العُنصريّ.

الكلمات المفتاحية: القرآن، التَّمييز العُنصري، الاستعلاء، التَّمييز، التكبُّر.

1 - فصلية الدراسات القرآنيّة، السنة السادسة، العدد 21، ربيع العام 2015، ص 107-122.

2 - طالبة دكتوراه قسم علوم القرآن والحديث، جامعة كاشان.

3 - طالبة ماجستير قسم علوم القرآن والحديث.

4 - دكتوراه لغة فارسية وآدابها، محاضر في جامعة دمشق.

مقدِّمة

يُمكن عَدُّ الفكرِ العُنصريِّ للشَّـيطان نقطةَ البَدءِ لظاهرةِ التَّمييز العُنصريِّ. فاستعلاءُ الشَّيطان على الإنسان أدَّى إلى تمرُّده وعصيانه لأمرِ الله.[1] وهكذا فقد كانَت النُّقطةُ الأولى للعُنصريةِ أنواعًا من التَّفاخُرِ والاسـتعلاء. ففي التاريخ، عَدَّ كلُّ قوم وجماعة أنفسَـهم مُتفوِّقينَ على الجماعاتِ والأقوامِ الأخرى لأسباب مختلفة، وبناءً عليه وَضعوا لأنفسهم مبادئَ وأصولاً ساروا عليها، ورأَوا أنَّهم يَستحقُّونَ الانفصالَ عن الجماعات الأخرى والتَّميُّزَ عنها. ولمواجهةِ هؤلاءِ الأفرادِ بأسلوب صحيحٍ وعقلانيٍّ، وليس تَبعًا للعواطفِ وانجرارًا لها، يَنبغي مقارنةُ مَعاييرِ التميُّزِ والعلوِّ في رؤية بعض البَشر بمَعاييرِ التفوُّقِ لدى الله، ونَقـد المَعايير الخاطئة. وبالنِّهاية، أنْ يُناضِلَ النّاس ضدَّ الأفكار العُنصرية بحُكمٍ صائبٍ ورُؤية واعية.

يَهدف هذا البحثُ، من خلالِ دراسة أسُس العُنصُريِّينَ، إلى تَقديم حلٍّ قرآنيٍّ لمواجهةِ ظاهرةِ العُنصريّة، ومن خلال دراسـة أسُـس العُنصريّة، يَسـعى إلى تَجريدِ أيِّ فكـرٍ عُنصريٍّ من قوّته. لذلك، تَجري دراسـةُ ثلاثة أسُس رئيسة للعُنصريّة، وهي الاسـتعلاءُ والغرورُ والتكبُّرُ والتَّمييزُ، التي حَظيت باهتمامِ القرآنِ ونَقدِه.

أولًا: الاستعلاء

يُعدُّ مبدأُ الاسـتعلاءِ أحدَ أهمِّ مبادئ العُنصريّة وأسُسـها، فالعُنصريّةُ هي اعتقادُ مجموعةٍ عِرقيّة بأنَّها مُتفوِّقةٌ على المَجموعات العِرقيّة الأخرى. في بعض الأحيان، قد تُصبح الحدودُ الجغرافيّةُ سببًا للاستعلاء، وأحيانًا العِرقُ وتارةً أخرى الدِّين. لكنَّ القرآنَ لا يُولي أهمِّيةً للحدودِ الجُغرافيّةِ والعِرقيّةِ والطَّبقيّةِ وما شابَه

١ - الأعراف، الآية ٧.

ذلــك ممّا يَفصلُ الناسَ بعضَهم عن بعضٍ، بل يَعدُّ العاملَ الوحيدَ هو عامل «الإيمان» و«الكفر»، وبهذه الطَّريقة يَقسم المُجتمعَ الإنسانيَّ بأكمله إلى مَجموعتَين: مجموعة «الإيمان» و «الكفر».

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[التغابن، الآية ٢].

يُلاحَظ فرقٌ واضحٌ بــينَ المَعايير التي تَختارُها البشريّةُ للتَّفاضلِ فيما بينَها وبينَ مَعايير التَّفاضــلِ التــي يُبيِّنُها اللهُ. لقد طُرحت النَّزعةُ إلى الاســتعلاءِ أولَ مرّةٍ مــن قِبَلِ إبليسَ، ويمُكن عدُّهــا جَذرًا للعَصبيّات العرقيّة والاســتعلاءات الزّائفة في المجتمع. ويقــول القرآنُ الكريمُ في هذا الشّأن: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِــينَ﴾[ص، الآيــة ٧٥]. وقوله -تعالى-: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَــنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف، الآية ١٢].

في الواقع، إنَّ ما أدَّى إلى نزعة الاســتعلاء لدى الشَّــيطان هو تَوهُّمُ التَّفوُّق في الخَلق؛ إذ كانَ يَعدُّ المادّةَ الأوَّليّةَ لخَلقه، وهي النارُ، أفضلَ من المادّة الأوَّليّة للإنســان. ومن هنا نشأ استعلاؤُه وغُرورُه. إنَّ اســتعراضَ خلفيّات الاستعلاء ومعاييرها يَكشف أنَّ معاييرَ التفاضُلِ بينَ البشر هي العِرقُ، ولــونُ البشرة، واللُّغة، والثَّروة، وكثرةُ الأبناء،و السُّــلطة، والدِّيــنُ، والمَنطقة الجغرافية. لذلك، من الضَّروريِّ دراسةُ كلِّ واحد من هذه المَعايير.

وبما أنَّ العلماءَ القدماءَ كانوا يَعدُّونَ الصِّفات والسِّمات الخُلُقيّة والاجتماعيّةَ والفنيّةَ والعلميّةً موروثةً في الغالب، فقد كانَت كلمةُ «عِرق» تَشمل الخصائصَ الاجتماعيّةَ والثَّقافيةَ والعلميّة أيضًا. في أوائل العصر الإســلاميِّ، وبعد فترة وجيزة من وفاة النبيِّ محمد ﷺ، عادَت أســواقُ التَّفاخُر والاســتعلاءِ إلى الازدهار مرّةً أخرى في أوســاط العرب في العَصر الأمويِّ، إلى درجة أنَّ المَوالي (المســلمين من غير العرب) كانوا في العَصر الأمــويِّ أذلّاءَ وخُدّامًا للعرب، ولم تكنْ في أيديهم وظائفُ ومَناصبُ مُهمّةٌ. وكان العربُ المســلمونَ يَتباهَونَ على المسلمين غير العَرب (المَوالي) قائلينَ: لم نكتفِ بتَحريركُم من العُبوديّة والأسْر، بل أنقذناكم من اتِّباع الكُفر والشِّرك وأسلمْناكُم، وهذا يَكفي لنكونَ أفضلَ منكم. لقد أسعَدْناكم بالسَّيف وجَرَرناكُم بالسَّلاسل إلى الجنّة.[1]

وكان بَنــو أميّةَ يَعدُّونَ توظيفَ المَوالي عارًا عليهم، ويتجنَّبــونَ الاختلاطَ بهم ومُعاشرتَهم، ويَــرونَ أنَّ التَّعامُــلَ مع المَوالي دليلٌ على الدَّناءة والخِسّــة. فقد كان العــربُ يُنادونَ المَوالي

١ - جرجي زيدان، تاريخ تمدن اسلام [تاريخ الحضارة الإسلامية]، ج٤، ص٧٣.

بأسـمائهم وألقابهم، ولا يُنادونَهم بأيِّ حالٍ من الأحوال بكُنيتهم، ولا يمَشون معهم في صفٍّ واحـد، وإذا مات عربيٌّ لم يكنْ باسـتطاعة المَـولى أن يُصلِّيَ على جنازته مـع الآخَرينَ، وإذا أُقيمَت وليمةٌ لم يُجلسـوا المَولى - وإن كان فاضـلاً وذا تَقوى- على المائدةِ حتّى يَعلم الناسُ أنَّـه ليـسَ عَربيًّـا.[1]

في الواقع، كان أحدُ شـعارات الإسـلام محاربةَ العُنصريّة ومَظاهرَ الأرسـتقراطيّة، وكان أوَّلُ المؤمنينَ بالنَّبيّ محمد ﷺ عبيدًا مثل ياسر وسُـميّة وبلال الذين عظَّمَهُم النبيُّ ﷺ. وقـد رُوي في هذا الصَّدد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يا أيُّها الناسُ، إنَّ ربَّكُم واحدٌ، وأباكم واحدٌ، كلُّكُـم لآدمَ، وآدمُ من تـرابٍ، أكرمُكُم عندَ الله أتقاكُم، ليس لعـربيٍّ على أعجميٍّ فضلٌ إلا بالتَّقوى»[2].

إنَّ لـونَ البشرة هو أحدُ الفُروق البارزة التي تُـرى بالعَين المُجرَّدة بينَ البشر في البداية، وعلى مرِّ التاريخ كان اللَّونُ أحدَ مَعايير التفوُّق على الأفراد الآخَرينَ الذين لديهم لونُ بشرةٍ آخَرَ، وأكبرُ ضَحايا هذه النَّزعة القائلة بتفوُّق لون على لون آخَرَ على مرِّ التاريخ البَشريِّ هم السُّـودُ، فمُعاناةُ السُّود وظُلمُهم في عُمق التّاريخ لا يُمكن وصفُها. عندَما تُطرحُ قضيّةُ السُّود في الزَّمن المُعاصر، فإنَّنا نواجه إحصائيات كبيرةً من الخَسائر والضَّحايا والمَصالح والمَنافع والصِّراعات والنِّزاعات، ويَعودُ هـذا إلى أنَّ الرَّغبةَ العامّةَ لـدى بعض الأمريكيِّينَ كانَت دائمًا تَعتمـد على فكرة أنَّهم إذا لم يَنجحوا في تَبييض الوجه الأسـود، فعَليهم على الأقلِّ أن يَجعلوهُ عديمَ اللَّون، ويَسـلبوا منه هويّتَه الإنسانيّةَ. ولقد أخبرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- عن هذه المسألة في القرآن الكريم قبل حوالي ١٤٠٠ عـام، ولكيلا يتأجَّجَ هذا الجرحُ في المجتمع، قال -تعالى- في الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[الحجرات، الآية ١٣].

تناولَت هذه الآيةُ هذه المسألةَ، ففيها يُخاطبُ اللهُ جميعَ الناس ويَقول لهم: إنّا خلقناكُم جميعًا من ذكرٍ وأنثى. فالإنسـانُ لو كان قد فكَّرَ وعَلِمَ بأنَّ اللـهَ الواحدَ هو خالقٌ لجميع البَشر، فإنَّه لن يَسـعى بعدَ ذلك إلى إيجادِ أسبابٍ للتميُّزِ على الآخَرينَ. في هذه الآية، يُرفَضُ أيُّ تفاضُلٍ مطلَقٍ

١ - جرجي زيدان، تاريخ تمدن اسلام [تاريخ الحضارة الإسلامية]، ج٤، ص ٧٣.
٢ - محمدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص ٢٩-٣٦.

مَردُّه الطَّبقاتُ، أو لونُ البَشرة البَيضاء أو السَّوداء، أو العَربيّة أو الأعجميّة، أو الفَقر، أو العُبوديّة، أو السِّيادة، أو الذُّكورة أو الأنوثة. وتقول الآيةُ إنَّنا إذا جعلناكُم شعوبًا وقبائلَ مُختلفةً، فليس لكي تكـونَ طائفةٌ منكم مُتسـلِّطةً أو ذاتَ كرامةٍ على الآخَرينَ، بل لمُجـرَّدِ أن تتعارفوا، وتَجري أمورُ اجتماعِكم ومُعاملاتكم بأحسن حال.[1]

يقـول الله -تعـالى- في الآية الكريمـة: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[الروم، الآية ٢٢].

إنَّ اختلافَ الألوان والألسـنة من آيات اللـه، والاختلافُ بينَ الأعراق واللُّغات هو دليلٌ على مَعرفة الله؛ فالإنسانُ العالمُ الفاهمُ يَصلُ إلى معرفة الله من خلال اختلاف الألوان واللُّغات، أمّا الجاهلُ فيَتَّخذُ اللَّونَ واللُّغةَ وسيلةً للإهانة والتَّفاخُر.[2] في هذه الآية، يُذكَر اختلافُ اللَّون واللُّغة إلى جانب آيات أخرى مثل خلق السَّـماوات والأرض، ولا أحدَ يَعتبرُ خلقَ السَّماوات والأرض سببًا لتفوُّقه، لأنَّه علامةٌ من علامات قدرة الله. لقد وضعَ اللهُ تَبايُنًا واختلافًا بين هذه الأشياء، حتى إنَّ أيَّ شخصين يتحدَّثان لا يتَّفقان في أيٍّ من خصائص الكلام وطريقة الصَّوت، وهذا الاختلافُ موجودٌ في شكلِ الوَجه وخُطوطه، وفي الألوان وأنواعها. وبسبب هذا الاختلاف والتَّبايُن يُتعرَّفُ على الأفراد، وهذه الاختلافاتُ ليسَـت دليلاً على تفوُّق أحد على الآخَر، بل إنَّ الله قد أعلنَ أنَّ سببَ الاختلاف هو آياتٌ ودلالاتٌ وعلاماتٌ في قوله ﴿**إِنَّ فِي ذَالِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[3].

وفي كلام الأئمَّـة المَعصومـينَ أيضًا، وردَ كثيرٌ مـمَّا يدلُّ على أنَّهم لم يَـروا التفوُّقَ والفضلَ في اللَّون. فعلى سـبيل المثال، سـأل شـخصٌ الإمامَ الصّادقَ عليه السلام: لماذا بعضُ أبناء آدمَ فاضلٌ وشريفٌ، وبعضُهم مَفضولٌ؟ فقال: الشَّريفُ مَن أطاعَ اللهَ، والوَضيعُ مَن عَصاهُ. وقال بما معناهُ: الفضلُ إنمَّا هو في ضوءِ التَّقوى. فسألَه أتقولُ إنَّ أبناءَ آدمَ مُتساوُونَ جميعًا في الأصلِ والعِرق، ولا فضـلَ لأحدِهم على الآخَر من جهة العِرق؟ فقال: نعم، خُلقت النّاسُ جميعًا من ترابٍ، وأبوهم آدمُ وأمُّهم حواءُ، وقد خلقَهم اللهُ الواحدُ، وهم عِبادُه.[4]

---

١ - محمد حسين طباطبايي، تفسير الميزان، ج١٨، ص٤٨٨؛ نصرت أمين أصفهاني، مخزن العرفان در تفسير القرآن [مخزن العرفان في تفسير القرآن]، ج١٠، ص٩١.

٢ - محسن قرائتي، تفسير النور، ج٩، ص١٩٠

٣ - أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج٣، ص٢٦٣.

٤ - محمد باقر بن تقي، المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، ج١٠،

وكذلك في سيرة النبيِّ الأكرم ﷺ أنَّه اختارَ بلالاً الحبشيَّ، وهو عبدٌ أسودُ اللَّون، ليكون مُؤذِّنًا. وفي الدِّينِ الإسلاميِّ الحنيفِ لا فرقَ بينَ البشرِ لا من حيثُ اللّونُ ولا من حيثُ العبوديّةُ والحُريّة. لقد حاربَ الإسلامُ هذه العَصبيّةَ الجاهليّةَ بكلِّ تمثّلاتها وصُورها، وأقامَ نظامًا إنسانيًّا تحتَ رايةٍ واحدةٍ هي رايةُ الله، ورفضَ جميعَ رايات القوميّةِ والوطنِ والبيتِ والجنسِ والبَشرة[1].

وثمّةَ معيارٌ آخَرُ للتَّمييزِ بينَ بعضِ الناس، وهو اللُّغة التي يتحدَّثونَ بها، وقد كانَ لها دورٌ مُهمٌّ بينَ الأمم منذُ القِدَمِ. فالنَّاسُ الذين يتحدَّثونَ اللُّغةَ نفسَها يُمكنهم فهمُ بعضِهم بعضًا بشكلٍ أفضل. وفي المناطقِ التي تتصارعُ فيها المَصالحُ الوطنيّةُ لدَولتَينِ وتكونُ بينَهما خلافاتٌ، إذا كانَت لغةُ هاتَينِ الدَّولتَينِ مُختلفةً، فإنَّ الدَّولةَ التي تتحدَّثُ تلك اللُّغةَ تَعدُّ أسماءَ المُدن والأنهارِ والجبال وغيرِها من الأمور موضعَ الخلاف من أولوياتها لتتفوَّقَ من خلالها على الدَّولةِ الأخرى.[2] إنَّ الكمَّ الهائلَ من اللَّومِ والنَّقدِ المُتعلِّق بالكتابة والكلام الأجنبيِّ يُغنينا عن استخدام كلمةٍ جديدة؛ فمثلاً، يَقول الناسُ للتَّعبير عن عدم القُدرةِ على التَّواصُلِ اللُّغويِّ مع الآخَر: «هذا عربيٌّ» أو «هذا صينيٌّ» أو «هذا يونانيٌّ»، وهي عباراتٌ قابلةٌ للاستبدال تمامًا. وكما نَرى، في هذه العباراتِ أصبحَت اللُّغةُ أداةً رئيسيّةً للعَداءِ للأجانبِ إن لم نقلْ للتَّمييزِ العُنصريّ.

لم تكنْ لغةُ أيِّ أمّةٍ على صورتها الحاليّةِ منذُ بداية تكوينِها، بل بعدَ اجتماعِ قلوبِ الجماعةِ وتَلاحُمِها في أرضٍ مُعيّنة، نشأتْ لغتُهم معَهم وتطوَّرَت، وتوسَّعَت قواعدُها وأصولُها، وعلى مرِّ القرونِ حصلَ لها تغييراتٌ وتحوُّلاتٌ مُستمرّةٌ من خلال الاحتكاك بلُغاتِ الأُمم الأخرى، حتّى وصلَت إلى ما وصلَت إليه في هذا الزَّمن.[3] إنَّ اعتقادَ أمَّةٍ ما بتفوُّقِها وتميُّزِها، بمُجرَّدِ امتلاكِها وتحدُّثِها بلغةٍ تَعتقدُ بأنَّها كانَت منذ البدايةِ كاملةً ومتطوِّرةً، هو نظريّةٌ خاطئةٌ تمامًا. فتَقسيم اللُّغاتِ هو أمرٌ متَّفقٌ عليه بينَ جميعِ اللُّغويِّينَ.

لكنْ في كلامِهم لا يُشاهَدُ ترجيحُ لغةٍ على أخرى، لكنّ شعبَ كلِّ دولةٍ يتصوَّرُ أنَّه الأفضلُ والأذكى بينَ الناسِ على وجهِ الأرض، وأنَّ الآخَرينَ لَيسوا بجودتِه واستحقاقِه؛ وكلُّ هذه التصوُّراتِ

ص١٧٠. وكذلك، أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج٢، ص٣٤٠.

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ٣٣٤٨.

٢ - مسعود أنصاري، ناسيوناليسم ومبارزات ضد استعمارى [القومية والنضال ضد الاستعمار]، ص٣٢.

٣ - مرتضى مطهري، خدمات متقابل اسلام و ايران [خدمات إيران والإسلام المتبادلة]، ص٢٢.

ناجمــةٌ عن الأنانيّة وحبِّ الذّات.[1] يقول الله -تعالى- في الآية: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَالِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[الروم، الآية ٢٢]، فاللهُ في القرآن الكريم يُعدِّدُ اختلافَ الألوان والألسنة بجانب آياته الأخرى، ويَعدُّها علاماتٍ للعالمينَ والمُفكِّرينَ ليُدركوا قدرةَ الخالق. في الواقع، إنَّ اختلافَ اللُّغات هو أحدُ علاماتِ القُدرةِ الإلهيّة؛ لأنَّه علَّم أو ألهَمَ كلَّ مجموعةٍ لغةً، ســواء العربيّة أو الفارسية أو التُّركية وغيرها، لكي يتميَّزَ أهلُ كلِّ لغةٍ في التكلُّم؛ بحيثُ إذا تحدَّثَ عددٌ منهم خلفَ حائلٍ ما، يُدركُ المُستمعُ أنَّ الصَّوتَ الأوَّلَ غيرُ الثاني والثانيَ غيرُ الثالث.[2] ولاختلاف اللِّسان في هذه الآية عدَّةُ احتمالات؛ إمّا أنَّ المُرادَ هو اختلافُ الكلمات، أو قد يكونُ المُرادُ اختلافَ اللَّهجات، وقد يكونُ الاختلافُ في نبرة الصَّوت؛ لأنَّ اللُّغةَ تختلفُ بين مَدينةٍ وأُخرى، أو حتّى بينَ قريةٍ وقريةٍ مجاورة.[3]

لا يَهــمُّ في أيٍّ من الحالات المَذكورة أعلاهُ ما المَقصودُ؛ المُهمُّ هــو أنَّ اللهَ يُوضِّحُ اختلافَ اللُّغة باعتبارها آيةً من آيات قدرته للعُلماء، ويَعرضُ هذا الاختلافَ باعتباره طريقًا للتَّفكير لأولئكَ الذين يَتفكَّرونَ، لا أن يكونَ الاختلافُ بين المُفردات واللُّغات واللَّهجات ونبرة الأصوات مَدعاةً لتميُّزِ فئةٍ على فئةٍ أخرى أو قريةٍ على قريةٍ مُجاورةٍ لها أو تَفوُّقها عليها.

ثانيًا: الأموالُ والأبناء ليسوا معيارًا للتَّفضيل

مــن بين دوافع التَّفاخُــر بين الناس المالُ والــثَّروةُ وكَثرةُ الأولاد. فالغُــرورُ النَّاتج عن الثَّروة والعَدد الكبــير يَجعلُهم يَقعون في الرَّذائــل الأخلاقيّة، ويَظنُّونَ أنْ لا أحدَ يَســتطيعُ مُواجهتَهم، حتى إنَّهُم يَعدُّونَ أنفسَهم في مَنأًى عن عذاب الرَّبِّ، ويَقولون: ﴿**نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[ســبأ، الآية ٣٥]. إنَّهم يَعدُّونَ الفــلاحَ والنَّجاحَ فقط في امتلاك المال والأولاد الكثيرينَ، ويَرَونَ أنَّ المالَ والأبنــاءَ دليلٌ على كرامتهم ومَنزلتهم عندَ الله، ويَقولون: نحنُ دائمًا نَنعم بهــذه الكرامة، وإذا كان هناكَ عذابٌ فلن نُعذَّبَ. لكنّ اللــهَ يَردُّ على هذا المَنطقِ المُخادعِ

---

١ - جواهر لعل نهرو، نامه‌های پدری به دخترش [رسائل والد لابنته]، ص١١٧.

٢ - حسين بن أحمد حسيني شاه عبد العظيمي، [تفسير اثناعشري]، ج١٠، ص٢٨٤.

٣ - محمد حسين، طباطبايي، تفسير الميزان، ج١٦، ص٢٥٠-٢٥١؛ أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج١٩، ص١١٧.

بأعلى صورة في الآيات الآتية من السُّورة نفسها، ويقول: مسألةُ الرِّزق، أي الأموال والأولاد، قِلَّتُها وكثرتُها بيد الله، يُوسِّعُ أو يُضيِّقُ على مَن يشاء. وأموالُكم وأولادُكم ليسَت شيئًا يُقرِّبُكم إلى الله، إلا مَن آمنَ وعملَ صالحًا. فاللهُ يَعدُّ الإيمانَ والعملَ الصّالحَ مِعيارًا للقُربِ عندَه والاستحقاقِ للجزاء.[1]

في الواقع مَن يَعملُ صالحًا بماله ووَلده، فيُنفقُ مالَه في سبيل الله، ويُروِّجُ ويَنشرُ به الإيمانَ والعملَ الصّالحَ بينَ الآخَرينَ، ويُربيِّ أولادَه تربيةً دينيّةً، سيَنالُ أجرًا مُضاعَفًا.[2] في بعض الأحيان، لا يَعدُّ الأفرادُ المالَ والولدَ فقط سببًا للتَّفضيل، بل يَتفاخَرونَ بالأمواتِ أيضًا، ويَتباهَونَ بكثرةِ قُبورِ مَوتاهُم في المَقبرة، ويُظهرونَ تفوُّقَهم. وقد وردَ في سورة التكاثر (١-٢) أنَّ الكفّارَ كانوا يَقولون للرَّسول ﷺ: نحنُ نتباهى بأموالنا وأولادنا وسنَتغلَّبُ عليكم. لذلك، جادلَهم اللهُ القديرُ، وقالَ إنَّ أموالَكم وأولادَكُم ضَئيلةٌ أمامَ الله. ويُفهَم من هذا أنَّ أموالَ الكُفّارِ وأولادَهم لن تُغنيهم في الدُّنيا والآخرة. بمعنى أنَّه لو جمعَ الكفّارُ أموالَهم وأولادَهم ليَفتَدوا أنفسَهم ولينْجَوا من عذاب الله فلن يُقبَلَ ذلكَ عندَ الله، وهذا ليس دليلاً على تفضيل أفراد على أفراد آخَرينَ. في الآيات: ﴿**أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾[القلم، الآيات ١٤-١٦].

يَذمُّ اللهُ تعالى المالَ والثَّروةَ ويَقول: إنَّ المالَ والثَّروةَ يُسبِّبان في أن يَعدُّوا الآيات الإلهيّةَ خرافاتِ وأساطيرِ الأوَّلينَ، ولكنَّ اللهَ في جوابه يَضع وَسمًا على أنفِ القائلِ ليَفهَم أنَّ المالَ والأبناءَ تَسبَّبوا في أنْ يُمرِّغَ أنفُه في التُّراب لا أن يكونَ سببًا لتكبُّره وعَظمته. وفي موضعٍ آخَرَ، يُخبرُ عن أنَّ الأموالَ والأولادَ فتنةٌ ووسيلةُ امتحان[3]، ويُنبِّهُ الإنسانَ بتَعبيراتٍ مُختلفةٍ إلى عدمِ التعلُّقِ بالمال والأولاد، وإمكانيّةِ الانحرافِ بسببِهم. ومن ذلك:

---

١ - ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ سبأ، الآية ٣٦.
﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ سبأ، الآية ٣٧.

﴿**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾ سبأ، الآية ٣٨.
٢ - محمد حسين طباطبائي، تفسير الميزان، ج١٦، ص٥٨٠.
٣ - الأنفال، الآية ٢٨؛ التغابن، الآية ١٥.

إمكانيّـةُ مشـاركة الشَّـيطان في مـال الإنسـان ووَلَـده: ﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾[الإسراء، الآية ٦٤].

الإفـراطُ في طلـب الزِّيـادة في المـال والوَلَـد وآثـارُه السَّـلبيّة: ﴿**وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾[الحديد، الآية ٢٠].

إشـغالُ الوالِد بالولد والمالِ عن ذكرِ الله: ﴿**لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[المنافقون، الآية ٩].

عدمُ إغناء الأموالِ والأولادِ في القِيامة: ﴿**لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ**﴾[آل عمران، الآية ١٠][١].

يَنبغي أن تكونَ الأموالُ والثَّروةُ والأبناءُ سَـبيلاً لبُلوغِ السَّعادة للإنسان، لا أنْ تُوقِعَه في وَرطةِ المَعصيةِ، والقرآنُ في الآيات المَذكورةِ أعلاهُ يُحذِّرُ الإنسانَ من هذه النُّقطة.

من جملة عواملِ الترفُّـع والتَّعالي: القوّةُ والثَّروةُ، والقرآنُ يَطرحُ أمثلةً على ذلك. ومنها: ذِكرُ قصّة فرعونَ وقارونَ في هذا الشّـأن؛ حيثُ تسبَّبَتْ ثَروتُهما وقوّتُهما في تكبُّرِهما واستعلائهما. واللهُ -تعالى- في الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سـورة المؤمنـون يَروي قصّةَ تكبُّرِ فرعونَ بهذه الصُّورة: ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ* إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**﴾، تُبيِّنُ هذه الآياتُ أنَّه عندَما أُرسل موسى وهارونُ إلى فرعونَ، استكبرَ فرعونُ وقومُه ورَفضوا أن يُطيعوا شـخصَين من بَني إسرائيلَ.[٢] إنَّ استعلاءَ فرعونَ أوصلَه إلى حدٍّ جَعلَه يَقول لموسى: ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾[الشعراء: ٢٨].

في الواقـعِ، إنَّ ثروةَ فرعونَ وقوّتَه أوجدَتا فيه تكبُّرًا واسـتعلاءً، جَعـلاهُ يَنزعُ لقتلِ إله مُوسى؛ حيثُ قال لوَزيره هامان: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**﴾، لقد جعلَ الفراعنةُ الآخَرينَ عَبيدًا ومُطيعينَ لهم، تمامًا كما جَعلوا بَني إسرائيلَ عَبيدًا لهم.[٣]

في مثال آخَرَ يَذكرُه القرآنُ لأصحاب السُّـلطة والثَّروة، يُشيرُ إلى قصّة قارونَ. وقد وردَت قصّتُه في سورة القَصص. كانَ قارونُ رجلاً عالِمًا من بَني إسرائيلَ، اجتهدَ في جمع الثَّروة، وامتنعَ عن الإحسانِ

١ - محسن قراءتي، تفسير النور، ج٤، ص٣٠٧ - ٣٠٨.
٢ - السيد عبد الحسين الطيب، أطيب البيان فى تفسير القرآن، ج٩، ص٤٠٥.
٣ - محمد حسين، طباطبايي، تفسير الميزان، ج١٥، ص٤٦.

إلى المُعوزيـنَ ودَفـعِ الزَّكاةِ لمُوسى، وحصلَ على ثـروةٍ وقوّةٍ عظيمـة[1]. وكانَ غارقًا في هذا المال والمتَـاعِ إلى درجة أنَّه أمامَ تحذيرِ النّاصحـينَ الذين كانوا يَقولون له: لا تَفرَحْ بالمـالِ والثَّروةِ، فاللهُ لا يُحـبُّ مثلَ هذه الفَرحةِ التي تَبثُّ لديـكَ الغَفلةَ، وينبغي لك أن تنالَ نصيبًـا من هذا المالِ وتُعمِّرَ به آخرتَكَ، وكما أحسـنَ اللهُ إليكَ فأحسِنْ ولا تُفسـدْ، إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُفسدينَ، لكنَّه قالَ وهو في حالة الغرور نفسـها والتكبُّرِ النّاجمِ عن ثَروته الطّائلة: ﴿**قَالَ إِنَّمَـا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي**﴾، وليس من شـأنكَ كيفَ أتصرَّفُ بثَروتي. هنا، يُقدِّمُ القرآنُ ردًّا قاصمًا لقارونَ وأمثاله ﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَـكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَـدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا**﴾، أنـتَ تقولُ إنَّ ما لَديكَ قد أتاكَ لعلمٍ لَديكَ ومَعرفة، والخطابُ لقارونَ، ولكنَّكَ نَسيتَ أنَّ هناكَ مَن هُم أعلَمُ منكَ وأقوى منكَ وأكثرُ ثَراءً، فهل اسـتطاعُوا النَّجـاةَ من قبضةِ العقابِ الإلهيِّ؟ وفي نهايةِ الآيةِ، يُقـدِّمُ له تَحذيرًا آخرَ بجُملة قصيرةٍ ومُعبِّرة، ويَقول: عندَ نُزولِ العَذابِ الإلهيِّ، لا يُسـألُ المُجرمونَ عن ذُنوبهم. ﴿**وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**﴾، لا مجالَ أبدًا للسُّؤالِ والجَوابِ، فهو عذابٌ قاطعٌ ومُؤلمٌ وقاصمٌ ومُفاجِئ.[2]

في الرُّؤيةِ القرآنيّة، يُمكنُ أن تكونَ القوّةُ والثَّروةُ عاملَينِ للنُّموِّ أو الفسـادِ للبَشرِ والمُجتمعاتِ البَشريّة. لذلك، هي سـلاحٌ ذو حدَّين يَجب التَّعامُلُ معَها بحذرٍ شَـديد. إذا كانَت القوّةُ والثَّروةُ في أيدي غيرِ المُؤهَّلينَ، فقد يُؤدِّي ذلك إلى فسـادِ الشَّخصِ أو المُجتمع؛ كما أنَّ القوّةَ والثَّروةَ يُمكنُ أن تُفسـدَ حتى أهلَ الإيمانِ والتَّقوى. والعلومُ الدِّينيّةُ والوَحيانيّةُ تتمتَّعُ أيضًا بهذهِ القُدرة. يَذكر القرآنُ كيفَ أصبحَت العلومُ الإلهيّةُ في أيدي أشخاصٍ مثلِ (السّامريِّ) و(بلعم بن باعوراء) قوّةً تَسري في اتِّجاه الفَسادِ والإفسادِ في المُجتمع.

للقوّةِ والثَّروةِ مُتطلَّباتٌ يُمكنُ الإشـارةُ إليها بصفتها ثقافةَ القوّةِ والثَّروة. بمَعنى أنَّها تُصاحبُ نظامًا يَضع الإنسـانَ في فضاءٍ خارجَ الفَضاءِ الطَّبيعيِّ. أولئكَ الذين يَغرقونَ في السُّلطةِ والثَّروة، يَتبنَّونَ في عَمليّةٍ ما خصائصَ وسُـلوكياتٍ يُشارُ إليها بثقافةِ الأرستقراطيّة أو ثقافةِ المُتغطرسينَ. في هذه الثَّقافة، يَفقدُ الشَّـخصُ نفسَـه ويَجد هويّـةً جديدةً ومُختلفة. في هـذه الثَّقافةِ والهويّة، يُصبحُ التَّفوُّقُ والتَّباهي أمرًا طبيعيًّا، ويُصبحُ تَحقيرُ الآخَرينَ وإهانتُهم عَملاً جائزًا ومُباحًا. أولئكَ

١ - القصص، الآية ٧٦.
٢ - ناصر مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج١٦، ص١٥٢.

الذيــن يَنمونَ في ثقافة القوّة والثَّروة هم أولئكَ الذينَ يترَسَّــخُ فيهم انعدامُ التَّقوى[1] وتتعزَّزُ روحُ العُدوانيّــة والتمرُّد.[2] في هــذه الثَّقافة والبيئة المُلوَّثــة، يُصبحُ التَّباهي بالكماليــات دأبًا وعادةً، ويَسعى الشَّخصُ جاهدًا لإظهار مُمتلكاته للآخَرينَ والتَّفاخُر بها كلَّ يوم.[3]

والدِّيــنُ بصفته عُنــصرًا من الانتماءات المُشــتركة للنّاس، يَلعــبُ دورًا كبيراً من جهة في تَقسـيم المُجتمعات الإنســانيّة وتَمييزها بعضها عن بعض، وتَوحيدها من جهة أخرى. لدرجة أنَّ أحدَ أسباب الصِّراع الشَّــديد القائم بــينَ المَســيحيّة واليَهوديّة وعَواملها هــي عقائدُهما الدِّينيّــة. وقد أدَّت هذه العَداوةُ الدِّينيّةُ إلى انفصال عرقيٍّ، كانَ في البداية طَوعيًّا ثمَّ أصبحَ قَسريًّا، ونتيجةً لذلك، ظهرَت أوَّلُ مَنطقة يَهوديّة في عام ١٥١٦م. كما نجمَ عن الانقســام العرقيِّ بطبيعــة الحال تفاقُمُ الاختلافات في طريقــة اللِّباس وآداب الحياة وعلامات الوَجه وطُقوس العبادة وطَريقة الكلام فيما بينَهم. وأدَّت هذه الخلافاتُ بدَورها إلى إثارة مشــاعر انعدام الثِّقة والخوف المُتبادَل فيما بينَهم أيضًا، ومن هذا الخوف تولَّــدَ الكُرهُ. كان اليهودُ يَجعلــونَ حرمانَهم من الزَّواج بالمَســيحيّات يَبدو كأنَّــه شرفٌ عَظيمٌ. كانوا يَحتقرونَ المَســيحيِّينَ بكونهم مُشركينَ خرافيِّينَ وبَطيئي الفَهم إلى حدٍّ ما، ويُغطُّونَ عُنفَهُم وقَسوتَهم بلغة ناعمة وماكرة، ويُشعلونَ حروبًا أهليّةً. كما كان المَسيحيُّونَ يَحتقرونَ اليهودَ لأنَّهم يَعدُّونَهم كفّارًا غُربــاءَ وغاصبينَ. نقــلَ (Thomas More-توماس مور) عن امرأة مؤمنة أنَّها عندَما ســمعَت أنَّ مريمَ العَذراءَ من أصلٍ يَهوديٍّ، شــعرَت بالضِّيق الشَّــديد واعترفَت بأنَّها لم تعدْ تَســتطيعُ عِبادةَ أمِّ المَسيح بنفس الإخلاص والشَّوق السّابقَين.[4]

ويُبيِّنُ اللهُ -تعالى- استعلاءَ اليهود بقولهم: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾[البقرة، الآية ٨٠]، وهــو يتحدَّثُ عن اعتقادهم الخاطئ، ولكنْ على الرَّغــم من أنَّ العذابَ لن يَضرَّهُم إلا لبضعــة أيّام، حســبَ قولهم، لكنّهــم لا يَجرؤونَ على تمنِّي الموت ولقــاء الله. أو في الآية: ﴿**قُلْ إِن كَانَــتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّــاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صادِقِينَ**﴾[البقرة، الآية ٩٤]، يقولُ اللهُ لرسوله: قلْ لهم: إذا كانَتِ الدّارُ الآخرةُ خالصةً لكم عندَ

١ - القصص، الآيتان ٧٦ و٨٣.
٢ - القصص، الآيتان ٧٦ و٨٣.
٣ - مرتضى مطهرى، خدمات متقابل اسلام و ايران [خدمات إيران والإسلام المتبادلة]، ج٢، ص١١٢ .
٤ - ويل دورانت، تاريخ تمدن [تاريخ الحضارة]، مج٦، ص١٤٩-١٥٠.

الله دونَ النّـاسِ، فتَمنَّوا الموتَ إن كنتُم صادقينَ، لكنَّهم لا يتمنَّونَ الموتَ أبدًا. في الواقع، هُم لا يَعدُّونَ الدِّينَ معيارًا للتفوُّقِ فحَسب، بل يَستخدمونَ المَفاهيمَ الدِّينيّةَ مثلَ الآخرةِ لصالحِهم. وفي آيةٍ أُخرى، يَعدُّونَ اليهودَ والنَّصارى أبناءَ اللهِ وأحبّاءَه، ويَمنحونَ لأنفسِهم امتيازًا لا أساسَ له (المائدة: ١٨). والمرادُ من اختيارِهم لهذا الاسمِ واللَّقبِ لأنفسِهم هو الادِّعاءُ بتَمتُّعِهم بعلاقةٍ خاصّـةٍ معَ اللـهِ.[١] ولكنَّ اللهَ يُجيبُهم في تتمّةِ الآيةِ نفسِـها: إذا كنتُم أبناءَ اللـهِ وأحبّاءَه، فلماذا يُعذِّبُكم اللـهُ بذُنوبكُم؟ أليسَ الأبُ عَطوفًا على ابنِه، أو الصَّديقُ مُشـفِقًا على صَديقِه؟ فيُقِرُّونَ بأنَّهم سيُعذَّبونَ، ولكنْ لأيامٍ قليلةٍ فقط.[٢]

ومـن المعاييرِ الأخـرى للتفوُّقِ المَنطقةُ الجغرافيّـةُ التي يَعيشُ فيها بعضُهم، كما أنَّ الشُّـعورَ بالتَّضامُنِ يَنشأ بسببِ العَيشِ في أرضٍ مُعيَّنةٍ ومُوحَّدة، ومن أجلِ الحفاظِ على تفوُّقِ الأرضِ، تُشعَل الحروبُ وتُسـفَكُ الدِّماءُ. وفي هذا المَسـارِ، فإنَّ الأُمم التي استوطنَت قطعةَ أرضٍ قبلَ غيرِها من الأُمم تَعدُّ نفسَها صاحبةَ حقِّ الأولويّةِ في ملكيّةِ تلكَ الأرضِ، ولا تَزالُ فكرةُ حقِّ الأولويّةِ في الأرضِ التي يَقطنُها الفردُ تلعبُ دَورًا مُهمًّا في صِراعاتِ الأُمم حولَ الخِلافاتِ الإقليميّة.[٣]

ثالثًا: الغُرور والتكبر

أحدُ أُسُـسِ العُنصريّةِ هو الغُرورُ والتكبرُّ. التكبرُّ هو حالةٌ يَرى فيها الإنسـانُ نفسَـه أكبرَ من الآخَريـنَ[٤]، وأكبرُ الكِبرِ هو الكِبرُ على الله، وهو أن يمتَنـعَ عن قَبولِ الحقِّ منه،[٥] وهذه الصِّفةُ مـن الرَّذائلِ والصِّفـاتِ القَبيحةِ للعَبد؛ لأنَّ العبدَ ذليلٌ وفقيرٌ ومَملـوكٌ وضَعيفٌ، ولا يَليقُ به أن يتكبرَّ.[٦] وعندَما يسألُ اللهُ الشَّيطانَ عن عدمِ سُجودِه لآدمَ، فإنَّه يتوسَّلُ بعُذرٍ غيرِ وَجيهٍ ويَقول: ﴿**أنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقْتَنى من نارٍ وخَلَقْتَهُ من طينٍ**﴾[الأعراف، الآية ١٢] . فاللهُ أخرجَه من حضرتِه

١ - ناصر مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج٤، ص٣٢٩.
٢ - البقرة، الآية ٨٠.
٣ - مسعود أنصاري، ناسيوناليسم و مبارزات ضد استعماری [القومية والنضال ضد الاستعمار]، ص٢٥.
٤ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج١، ص٦٩٧.
٥ - الراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، ج١، ص٦٩٧؛ محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص١٢٧.
٦ - حسن مصطفوي، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم ، مج١٠، ص١٩.

الإلهيّة بسبب هذا التمرُّد، وبيَّنَ للشَّيطان سببَ هذا التنزُّل والسُّقوط بقوله: ﴿**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾[الأعراف: الآية ١٣]: لا يَصحُّ لكَ أن تتكبَّرَ فيها. فاللهُ لم يَطرُد الشَّيطانَ فقط بسبب عصيانه، بل إنَّ الكبرَ أيضًا كان سَببًا في هُبوطه،[١] وكلُّ شقاء الشَّيطان كان وليدَ كبره، فهذا الكبرُ جعلَه يَضعُ نفسَه في مَقام أعلى ممّا يَستحقُّه، وأصبحَ في النِّهاية من الصّاغرينَ ﴿**إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[٢]، وبَدلاً من العَظمة نالَه الذلُّ والهَوانُ[٣] .

التَّمييزُ هو من الأسُس الأخرى للعُنصريِّينَ. وهو الفرقُ الذي يَشعُرُ به النّاسُ بسبب العِرق أو اللَّون أو الدِّين أو اللُّغة أو الطَّبقة بينَ أنفسهم والآخَرينَ، وقد آذى كثيراً من النّاس على مرِّ التاريخ؛ لدرجة أنَّ كثرةَ الآلام التي عانَوا منها قد تَفتقرُ للعلاج بأيِّ دواء، ودائمًا ما كان البَشرُ بينَ قُطبَين سَلبيٍّ وإيجابيٍّ لنَظريّة التَّمييز، ففَريقٌ يُدافعُ عنها بحَزم وفَريقٌ آخَرُ يُحاربُها بسَالة. وبشكلٍ عامٍّ، التَّمييزُ هو وضعُ قيودٍ بمُوجب القانون أو الآداب أو العادات والتَّقاليد أو عقد غير رَسميٍّ ضدَّ مجموعة مُعيَّنة، مثل مَجموعة دينيّة أو عرقيّة. وأسوأُ أنواعه هو التَّمييزُ العُنصريُّ، الذي يُعَدُّ نظامُ جنوب إفريقيا السّابقُ مثالاً بارزًا عليه. لكنَّ الإسلامَ يتحدَّثُ في مُواجهة هذه النَّظريّة الخاطئة عن المُساواة، ويَدعو جميعَ النّاس إلى دين واحد ونظام واحد يَستندُ إلى الفطرة والطَّبيعة البشريّة ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَالِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الروم، الآية ٣٠].

لقد ثبَّتَ اللهُ مكانةَ الإنسان في القرآن الكريم بأفضلِ وَجه، فقد عُرض الإنسانُ بل جميعُ البشر في القرآن بصَفتهم أبناءَ رجلٍ وامرأة يتوالدونَ ويُصبحونَ قبائلَ وعَوائلَ كثيرةً، ولا يُرجَّحُ أيُّ فرد من هؤلاء على الآخَر، بل هُم إخوةٌ، إلا أنْ يَقوموا بعملٍ رائق وحَسَن، ويُظهروا صَلاحًا وإحسانًا[٤]. بعدَ مدّة مَديدة على نزول القرآن أُعلن ميثاقٌ في العام ١٩٦٣ يتحدَّثُ عن إلغاء كافّة أنواع التَّمييز العُنصريِّ، وصادقَت عليه الجَمعيّةُ العامّةُ في الأمم المتَّحدة.

١ - محمود الآلوسي، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم ، ج٤، ص٣٣١.
٢ - الأعراف، الآية ١٣ .
٣ - ناصر مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج٦، ص١٠٦ .
٤ - الحجرات، الآية ١٣ .

نتيجة البحث:

١. إنَّ الاستعلاءَ والتكبُّرَ والتَّمييزَ هي الأسُـس والدَّعائمُ الرَّئيسةُ للتَّمييز العُنصريِّ، التي تمَسَّكَ بها العُنصريُّونَ على مرِّ التّاريخ.

٢. عوامـلُ الأفضليّة والتفوُّق برُؤية البـشرِ عبارةٌ عن العِرقِ ولونِ البَـشرةِ واللُّغةِ والمالِ والثَّروةِ وكَثرةِ الأولادِ والمَنطقةِ الجغرافيّةِ والدِّين.

٣. يَرى القرآنُ الكريمُ ضمنَ نَقده لكلٍّ من أُسس العُنصريِّينَ أنَّ أساسَ خَلقِ البشرِ هو أمرٌ مُشتركٌ وناجمٌ عن رجلٍ وامرأة، ويُبيِّنُ أنَّ البشرَ قد خُلقوا من مادّة مَذرة لا تُبقي حاجةً لتفـوُّق عرقيٍّ لأيِّ أحد. كما يَعدُّ القرآنُ الاختلافَ باللَّون واللُّغةِ من عَلائم قُدرةِ الله، وأنَّ الجَعـلَ الإلهيَّ لقبائلَ مُختلفةٍ مَردُّه التَّعارُفُ بينَها. وقد أشـارَ القرآنُ إلى عواقبِ التكبُّرِ ونتائجه، ورَفَضَ أيَّ نوعٍ منه. ويَذمُّ القرآنُ الكريمُ التَّمييزَ أيضًا، وهو أحدُ أسُس العُنصريِّينَ الأخرى ويُفنِّدُها.

٤. المَعايـيرُ الحقيقيّةُ للتفـوُّق برُؤية القرآن هـي التَّقوى والإيمانُ والإيثـارُ والتَّضحيةُ والجهادُ، وهكذا يَفضُلُ فردٌ على آخرَ بنسبةِ ما لَديهِ من فضائلَ إنسانيّةٍ ورُوحيّةٍ مُتجليّةٍ لَديهِ.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ترجمه بالفارسية أحمد أميرى شادمهري، ط. أولى، طهران، دار فراهاني للنشر، ١٩٨١.
- جرجي، زيدان، تاريخ تمدن اسلام [تاريخ الحضارة الإسلامية]، ترجمه بالفارسية علي جواهر كلام، لامكا: مؤسسة أمير كبير للطباعة، ١٩٥١.
- جواهر لعل، نهرو، نامه‌هاى پدرى به دخترش [رسائل والد لابنته]، ترجمه بالفارسية محمود تفضلي، طهران، دار أمير كبير للنشر، ١٩٥٧.
- حسن، مصطفوي، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، طهران، مركز ترجمة الكتاب ونشره، ١٩٨١.
- حسين بن أحمد، حسيني شاه عبد العظيمي، تفسير اثناعشري، طهران، دار ميقات للنشر، ١٩٨٤
- السيد عبد الحسين الطيب، أطيب البيان فى تفسير القرآن، ط. الثانية، طهران، دار الإسلام للنشر، ١٩٩٩.
- علي أكبر، دهخدا، لغتنامه دهخدا [قاموس دهخدا]، طهران، مطبعة جامعة طهران، ١٩٦٢.
- علي، حجتي كرماني، اسلام و تبعيضات نژادى [الإسلام والتمييز العنصري]، دار شركة النشر المساهمة، ١٩٨٢.
- محمد باقر بن تقي، المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠١ ق.
- محمد حسين، طباطبائي، تفسير الميزان، ترجمه بالفارسية محمد باقر موسوي همداني، ط. الخامسة، قم، مكتب النشر الإسلامي لجامعة المدرسين في حوزة العلمية في قم، ١٩٩٥
- محمد، حسينى شيرازى، تبيين القرآن، چاپ دوم، بيروت، دار العلوم، ١٤٢٣

- محمود، الآلوسي، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥
- مرتضى، مطهرى، خدمات متقابل اسلام و ايران [خدمات إيران والإسلام المتبادلة]، ط. العشرين، طهران، دار صدرا للنشر، ١٩٩٤.
- مسعود، أنصاري، ناسيوناليسم و مبارزات ضد استعمارى [القومية والنضال ضد الاستعمار]، طهران، ٢٠٠٥.
- منوتشهر طباطبايي مؤتمني، آزادى‌هاى عمومى و حقوق بشر [الحريّات العامّة وحقوق الإنسان]، طهران، مؤسسة النشر والطباعة في جامعة طهران، ١٩٩١.
- ناصر، مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ط. أولى، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٩٩٥.
- نصرت أمين، أصفهاني، مخزن العرفان در تفسير القرآن، طهران، حركة النساء المسلمات، ١٩٨٢.
- ويل، دورانت، تاريخ تمدن [تاريخ الحضارة]، ترجمه بالفارسية پرويز مرزبان، دار إقبال بالتعاون مع دار فرانكلين للنشر، ١٩٦٦.

موتُ الإنسان ومآلاتُ البنيوية من منظور روجيه غارودي

■ د.عمار طرابلسي[1]

ملخّص

في ظـلِّ هذا الإنصـات العميق للفلسـفات الغربيّة، لم يكنْ (روجيه غـارودي) مجرَّدَ قارئ وشارحٍ للمَسالك المَنهجيّة والمَعرفيّة، بل انخرطَ في عمليّة النَّقد والكشف المَعرفيِّ والواقعيِّ، مُتحدِّيًا النُّصوصَ البنيويّةَ، وما حاولَت إدراجَه في سياق تفعيلِ النَّظريّة البنيوية من النَّمط الألسـنيِّ والتاريخيِّ إلى أسلوب حياة اجتماعيٍّ. ولم يكنْ اعتراضُ (غارودي) مجرَّدَ مُرافعة عن الواقعيّة، بل التزمَ بالردِّ المَنهجيِّ والصَّرامة العلميّة، وتشبيعِ فضولِ الذّاتِ الفلسفيّة والضَّمير البَحثيِّ.

وفضلًا عن مُكتسـباته المَعرفيّة الواسعة، يَتبدَّى لنا حرصُه على استعمال آليّة النَّقد ضدَّ البنيويّة بأسـلوب مَنهجـيٍّ مُنضبط، يُبيِّنُ من خلالـه الفَرضيّةَ والطَّرحَ والمِثـالَ، ومُوجِّهًا للأسـئلة الجَوهريّة، ثم ناقدًا مُستمرًّا للفكرة من جزئها إلى كلِّها. وحيث يَرصد (غارودي) إخفاقات البنيويّة على المستوى النَّظريِّ، كما الواقعيِّ، فإنَّه حاولَ أيضًا الردَّ على مُتزعِّمي هذا التَّيـار، مع تَحديد أعطاله الفكريّـة وإعطاب النَّظريّة، ما دفعَه لإبطـال جودة النَّظرية البنيويّـة في كلِّ المَجالات التي حاولَ مُنظِّروها إثباتَ إمكانيّة مُمارسـتها حَيويًّا باعتبارها عرضًـا قابل للتَّطبيق والتَّعميـم، فالذي أتى عليه (غارودي) أنَّه شـغَّلَ الآلـةَ النَّقديّةَ ضدَّ مكامنِ مراس النَّظريةِ البنيويّة، ما مَنحَه سلطةَ الحُكمِ عليها بأنَّها نظريّةُ مَوتِ الإنسانِ.

الكلمات المفتاحية: البنيويّة، الفلسفة الغربيّة، موت الإنسان، (ماركس)، (نيتشه).

---

١ - أستاذ الفلسفة، جامعة محمد لمين دباغين سطيف ٢، الجزائر.

مقدِّمة

يُعدُّ التَّجوالُ المَعرفيُّ والمفاهيميُّ، الـذي أدركَه (روجيه غارودي - Roger Garaudy)، من أهمِّ ميزاته باعتباره قارئًا للمَناهجِ الفلسـفيَّةِ المُعاصِرة، من (ماركس - Marx) إلى رُوّاد البنيويّةِ. كما تُعتبرُ الآليّةُ النَّقديّةُ، التي اعتمدَها، واحدةً من أكثر الإسهاماتِ المُتشبِّعةِ بمُعالجةِ المُنطلقاتِ والأُسس النَّظرية والتَّطبيقية، كذلك حالُه مع البنيويّةِ التي حاولَ أن يُفكِّكَها من ركائزِها الماركسيّةِ إلى تَطبيقاتها على الإنسـان، باعتبارها مُحاولةً تشـخيصيّةً للثَّقافة الغَربيّة، التي طرحَت بدورها مَخرجًا للنِّظامِ المَعرفيِّ والاجتماعيِّ المَوروثِ عن الحَداثة الأوربيّة.

وبالنَّظـرِ إلى جذريّة التَّتبُّعِ النَّقديِّ، الـذي أدلى به (غارودي) على مُسـتوى مباحثِ البنيويّةِ وأمثلتِهـا، يَدعونا مُجـدَّدًا للبَحثِ عن تحليـلِ مَوقفه انطلاقًا من السُّـؤالِ المَركـزيِّ: كيفَ قرأ (غـارودي) البنيويّةَ من خـلال مُطابقاتِها مـعَ الواقع؟ ولمـاذا يُعلنُ عن مَوتِ الإنسـانِ داخلَ مَنظومتِها؟ وما طبيعةُ الفَصلِ بينَ البنيويّةِ باعتبارها منهجًا للمَعرفة ومعالجةً اجتماعيّةً للإنسان؟

أولاً: عن (ماركس) وأُسس البنيويّة

لقد اعتلى (ماركس) خشـبةَ مسرحِ الفلسفة الحديثة والمُعاصِرة، من خلال إعلانه لواحدٍ من أكثر المَذاهبِ تأثيرًا في التاريخ، يَقومُ على السَّـعي لإعادة تَدويلِ مسـألةِ البِنى الاجتماعيّةِ على مَبدأ المساواة ودحضِ الطبقيّةِ المُنافيةِ لحياة المُجتمع المُتكامل.

فالمبادئُ الأساس التي ارتكزَ عليها (ماركس)، وتَبعَه عليها (إنغلز - Engels)، لقيَت استجابةً واسـعةً في تأسـيس المنهج البنيويِّ، حتّى ليُمكنُنا القولُ إنَّ البنيويّةَ هي آخرُ مراحلِ الاشتراكيّةِ تطوُّرًا من حيث البناءُ النَّظريُّ لها، والتَّمثُّلات التَّطبيقيّة المَبحوث فيها؛ حيثُ إنَّ هذا الالتقاءَ من الجانب النَّظريِّ تَركَّزَ في مَخرجَينِ أساسَيْن، الأول؛ ذلك المَعنيُّ بتَوحيد قُوى الإنتاجِ والعلاقاتِ

التي تَتعانقُ فيها الدَّوائرُ الإنتاجيّةُ بعضُها مع بعضٍ تَفاعُلاً وتناسقًا، وهنا يَستبقُ البنيويُّونَ استنزافَ فكـرةِ (ماركس) لتَحويلِها إلى نظريّةٍ منهجيّةٍ للعلومِ المُصنَّفة؛ إذ يَعتبرونَ أنَّ البنى الجُزئيّةَ يَنبغي أن تُعبِّرَ عن اجتماعٍ جَذريٍّ في البنيةِ الكليّة، وهو غالبًا ما ذهبَ إليه (جان بياجيه - Jean Piaget) في العلـومِ الدَّقيقةِ، وسُرعان ما تحوَّلَ إلى رُؤيةٍ اقتصاديّةٍ واجتماعيّةٍ حسـب ما أقرَّ به (ماركس) و(إنجلز) في مقدِّمةِ كتاب «مسـاهمة في نقد الاقتصاد السِّـياسي» بالقول إنَّه «ليسَ وعيُ النّاسِ هو الـذي يُحدِّدُ وجودَهُم، بل وجودُهم الاجتماعيُّ هو الذي يُحـدِّدُ وَعيَهم»؛ إذ إنَّ التحامَ كلِّ المُكوِّناتِ الإنتاجيّةِ سيَدفع بالضَّرورة إلى استصدارِ بنيةٍ كُليّةٍ لنسقِ المُجتمعِ الواحد، عبرَ آليّاتِ الإنتاجِ المُختلفة؛ حيثُ تُحيط بها مجموعةٌ من القواسـمِ المُشتركة، المُتمثِّلة في البيئةِ والسُّوقِ والظُّروفِ الاجتماعية. أمّا الثاني؛ فهو المُتعلِّقُ بمَنظور فلسـفةِ التّاريخِ أو التَّفسـيراتِ التّاريخيّةِ التي تَشملُ التطوُّرَ السياسيَّ الحضاريَّ للمُجتمعِ من خلال البنى المُكوِّنة له.

تتعرَّض هاتانِ الفكرتانِ للنَّقد لا من حيثُ المَبنى الفلسـفيُّ والنَّظريُّ، لكنْ انطلاقًا من الغاية الاجتماعيّةِ منهما، فيَعتقدُ (جان بول سـارتر - Jean-Paul Sartre) أنَّ هذا التأسيسَ، الذي يَربطُ بين البنيويّةِ والاشـتراكيّةِ (اليسـارية تحديدًا)، هو ثأرٌ أيديولوجيٌّ جديدٌ، وتأسيسٌ لنُخبةٍ مُوازيةٍ تَبحثُ عن مجتمعٍ يَسـتقيمُ وَفقَ هذه النَّظريّة، أي «أنَّ هدفَ البنائيّةِ هو إقامةُ أيديولوجيا جديدةٍ كانَت بمَثابةِ السدِّ الأخيرِ الذي أقامَتْه البورجوازيةُ أمامَ التيّارِ الماركسي»[1].

وفي هذا السِّـياقِ يُـدلي (توماس فريدمـان - Thomas Friedman) بمسـألةٍ مهمّة أصابَت الباحثينَ عن بنيويّةٍ اشـتراكيّة، وهي تلكَ المُتعلِّقةُ بحريّةِ الفردِ ضمنَ الحُرِّيةِ العامّة، سواء تعلَّقَ الأمرُ بالإبداعِ أم بمُمارسـاتِ العَمليّاتِ الاقتصاديّة، «لعلَّه يُوجد طريقةٌ مُعيَّنةٌ يَسـتطيعُ الفردُ من خلالها تَجاوزَ هذه الصُّعوباتِ وحمايةَ حريّته في إطار المُجتمعِ الاشتراكيِّ، هذا ليس مستحيلاً تمامًـا، ولكنَّ الواضحَ أنَّ هناكَ كثيرًا من العَقباتِ التي تمَنـعُ الخروجَ عن البنيةِ الواحدة، وعلى حدٍّ علمي، لم يتصدَّ أحدٌ من الذين أيَّدوا الاشتراكيّةَ لهذه القَضيّة، أو حتَّى اتَّخذوا خطوةً جديرةً بالاحترامِ عن طريق تَطويرِ النُّظُمِ المؤسسيّة التي من المُمكنِ أن تَسمحَ بتَحقيقِ الحرِّيةِ في إطار الاشتراكيّة»[2].

---

١ - عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، ص١٢.

2 - Milton Friedman: Capitalism And Freedom, p 18.

فالمُساواةُ التي تَدعو إليها الاشتراكيّةُ في سبيل التَّوافقات الاجتماعيّة والمُشترك العامِّ بينَ بنى المُجتمع الواحد قد لا تَبدو واقعيّةً من حيثُ طرحُ المَسألة نظريًّا، لطبيعة التَّمايُز الفَرديِّ ضمنَ السُّوق الاقتصاديّة، والإبداع الفنيِّ الصِّناعيّ؛ إذ قد تكونُ الفكرةُ البنيويّةُ قاتلةً لهذا التميُّز، بخلاف النُّظُم المَبنيّة على الحرِّيّة الفَرديّة، التي تُعجِّلُ بالمكاسب للفرد من أجل تطوير رُؤية المُجتمع.

وفيما يُساندُ بشدّة (ميشيل فوكو - Michel Foucault) فكرةَ تَفسير التّاريخ من المُنطلَق البنائيِّ، باعتبارها -من وجهة نظر التّاريخ المَعرفيِّ- أنَّ «البنيويّةَ هي الضَّميرُ المُتيقِّظُ والقَلقُ دائمًا للمعرفة الحَديثة»[1]، فيَلعب (فوكو) دورًا مهماً في جعل البنيويّة هي تلك الفكرةَ الصّائبةَ التي يَنبغي على المُجتمع الاحتكامُ لمبادئها، باعتبارها تجميعًا لتلكَ العناصر المُتفرِّقة ورَدَّها بناءً كاملاً، فهي لن تتطوَّرَ إلى فكرة كليّة، ولن تَجتمعَ لغاية واضحة إلا باستجماعها في إطار فكرة بنيانيّة واحدة.

سوف يُلاحظُ القارئُ غرابةً تامّةً، لا محالةَ، كون (ميشيل فوكو) أحدَ المُفكِّرينَ السّائرينَ على دروب فلسفة (نيتشه - Nietzsche) المُتحرِّرة من كلِّ التزام اجتماعيٍّ، لكنَّنا نُشيرُ في هذا الصَّدد إلى أنَّ (فوكو) يُدافعُ عن البنيويّة من خلال أنَّها المَنهجُ الوحيدُ الذي يَتقارب مع البَحث الأركيولوجي، الذي يَعتمدُ عليه في تتبُّع المَسار التاريخيِّ للمَفهوم النَّظريِّ، ومن جهة أخرى، يَعتقدُ أنَّها تجاوزٌ للعَدميّة التي يُبشِّرُ بها (سارتر) باعتبارها نهايةً للمُجتمع الأوربيِّ المُعاصر، فهو يَستجمعُ هذَين المُنطلقَين لتَبرير قوّة البنية الواحدة ضمنَ مسار مُجتمع مُتكامل، وقد يتفوَّقُ عن البقيّة في تَقديم هذا المَنظور الذي يُحرِّرُ الفردَ من الخوف الوَضعانيِّ داخلَ النَّسيج الاجتماعيِّ، فهو يُعبِّرُ عن فكرة البنيويّة بقوَّة البنى الفَرديّة التي تُؤسِّسُ لها.

والملاحَظ من جهة أخرى، أنَّ (غارودي) يُلاحقُ البنيويّةَ بفَرض أنَّها تَحُدُّ من القيمة الفَرديّة لصالح رُؤية الجَماعة، فتَجربتُه مع الماركسيّة، جعلَتْه لا يَفصلُ إحداهُما عن الأخرى، بل يُسمِّيهما بوَصفهما امتدادًا بيانيًّا، وهذا ما يُفسِّرُ كذلك اعتمادَه في نقد الماركسيّة على فكرة العَود الأبديِّ التي يتصوَّرُها (نيتشه) على أنَّها فراغٌ من موت الإنسان، وإدراكٌ لدَوره داخلَ الكون، ونَقد البنية من خلال (فرويد - Freud) الذي يُحيط نظريّةَ التَّحليل النَّفسيِّ بمبدأ التَّسامي، الذي يُعدُّ قيمةً فَردانيّةً لا يُمكنُ اختزالُها في ضوء الرُّؤية البنيويّة.

وبالتالي فإنَّ (غارودي) يُلوِّحُ بنَقد ذلك الشَّغَف بالمَنهج البنائيِّ على أنَّه فورةٌ فكريّةٌ كما حدثَ

1 - Michel Foucault: Les mots et les choses (Une archéologie des sciences humaines), p221.

مع بداية التأسيس للشُّيوعيّة الماركسيّة، «لقد كانَ الإغراءُ كبيراً، أن نُعلِّقَ أنفسَنا حَصرًا على هذه اللَّحظـة المُميَّزة من الواقع البَـشريِّ، لحظة العَقل المَوضوعـيِّ أو اللاوعي المَوضوعيِّ، على أي حـال، لحظةُ البنية، وأنْ نُنكـرَ حتّى حقيقةَ أيِّ لحظة أُخرى»[1]، إنَّ هـذا الرَّفضَ الذي يُبديه (غارودي) للبنيويّة القائمة على الأُسـس الماركسيّة يَستمدُّ قوّتَه، من البحث عن جوهر الإنسان وقيَم التَّمايُز التي تَفرضُها الواقعيّةُ، فالإبداعُ الفَرديُّ يَنطلقُ من إعلاء قيمة الذّات، وتَصنيفها ضمنَ التَّراتُبيّة التي يَنبغي أن تكونَ عليها.

والحالُ أنَّ توسُّعَ التأثُّر بالبنيويّة لم يكنْ لسلامتها الفكريّة، فهي لم تُثبتْ بعدُ أنَّها الفكرةُ القائمةُ على أصول مَتينة من حيثُ التأسيسُ النَّظريّ، إنَّما كان التوقُّعُ أنَّها تجديدٌ للاشتراكيّة الشُّموليّة على كلِّ المَجالات الإنسانيّة والعلميّة، ولعلَّنا نَرصُدُ في هذا المَخاض تلكَ الحَميّةَ الزّائدةَ للدِّفاع عن البنيويّة، خاصّةً لدى المدارس الفرنسيّة، بفعل أنَّها المَنهجُ الذي يُلائمُ مسارات الإنسان العلميّةَ والعَمليّةَ، رغم مـا عَرفتْه من انتقادات حتّى من رُوّادها الأوائـل، ويُمكنُ أيضًا التفطُّنُ لمُحاولة إنقاذها وإعادة دَورة الحياة لها، ولو ببَعثها في بعض المَجالات العلميّة التي أُريد التَّبريرُ بنَجاعتها داخلَها، غير أنَّ ملامحَ نقد النَّموذج البنيويِّ كانَت بارزةً، خاصّةً بظهور المَنهج التَّفكيكيِّ بالمُوازاة معَ عمليّة تمَكين البنيويّة.

ثانياً: أثر نيتشه في التخلُّص من قيَم التَّشاركية

يَرى (غارودي) في (نيتشـه) أنَّه المثالُ الأكثرُ تَعبيراً عن إسـقاط المَرجعيّـات المَركزيّة التي حكمَت الإنسانَ وتحكَّمَت في تاريخه، وأنَّ صرخةَ (نيتشه) ضدَّ القيَم السّامية والكلّية، هي التي خلَّصَت الإنسانَ من كنف العُبوديّة للأفكار مَهما كان شَكلُها ومَرجعيّتُها.

يأخذُ غارودي في تفسـير خطِّ (نيتشـه) من رَفضه لتَسـلُّل بقايا اليَهوديّة والمَسيحيّة إلى فكرة المُسـاواة المُطلَقة بينَ البَشر، على اعتبار أنَّ (نيتشـه) يَرفض فكرةَ المُساواة من الغاية التي تَدفعُ إليهـا، وهي رغبةٌ مُحدَّدةٌ، فـ «يُمكنُ أن تتمظهرَ الحاجةُ إلى المُسـاواة في مُحاولة المَرء خَفضَ كلِّ الآخَرينَ إلى مُستواهُ (بالحَطِّ من قِيمتهم، بتَجاهُلهم، بنَصب شِراكٍ)، أو في مُحاولة الارتفاع

1 - Roger Garaudy: Structuralisme et “mort de l’homme”, p 110.

إليهم (بإنصافهم، بمُساعدتهم، بالاستمتاعِ بنَجاحاتهم)»[1]، فالمُشكلةُ الأساس لدى (نيتشه)، التي يَسترسلُ فيها (غارودي)، هي أنَّ المساواةَ التي تَبحثُ عن نمطٍ واحديٍّ تمثِّلُ حالةً من التَّعميم الوَضعيِّ للإنسان، وهو ما يَعتقدهُ (نيتشه) أنَّه مُخالفٌ لجَوهرِه وطَبيعتِه التي يَنبغي أن تكونَ مُتعاليةً وتَراتُبيّة.

وفي هذا المَنحى الذي يَصف فيه (نيتشه) فكرةَ المُساواةِ بأنَّها طابعٌ للركون والارتهانِ لمَبدأ التَّعميمِ الذي يُلغي بدَورِه مَفهومَ التميُّزِ الفرديِّ، يأتي (غارودي) على الاستشهاد بفَلسفة (نيتشه) في نبذ الاشتراكيّة بوَصفها نمطًا حديثًا وأصلاً نظريًّا للمَنهجِ البنيويِّ، فهو يُقدِّمُ لها نقدًا من حيثُ القيمةُ الإنسانيّةُ السّاميةُ «إنَّ نفيَ الحياةِ باسمِ القِيَمِ العُليا، أكانَ ذلك إلهيًّا أم بشريًّا، يَجعل من الحياة قوّةً قَمعيّةً ونافيةً، ونيتشه هنا يُعلِّمُنا كيف نرفضُ هذا النَّفيَ، كيف نَسترجعُ وحدةَ الهويّةِ التي تَجمع بين الفِكرِ والحياة، فالحياةُ هي تجديدٌ وخَلقٌ»[2].

فـ(نيتشه) يَرى في الاشتراكيّة أنَّها نقيضٌ لمهمّة الإنسان، بما أنَّها تظاهرَت بكثير من المبادئ الدِّينيّة (اليَهوديّة والمَسيحيّة)، التي كانَت تُعلي من المبادئ التي تُساوي بين البَشرِ لإلغاء أحقِّيةِ التفوُّق والتَّمايُز «من السَّهلِ القولُ -قطع أراضي متساوية- كَم من الحُرقةِ تَلدُها تلكَ التَّفرقةُ والتَّمزُّقاتُ التي تجعلُ هذا الاشتراكَ ضروريًّا وخسارةَ هذه المُلكيّةِ القَديمةِ المُبجَّلة، كم من عَقيدةٍ مُهانةٍ ومُضحًّى بها»[3]، بما أنَّ العقيدةَ الاشتراكيّةَ تَقوم بَينيًّا على مبدأ عدمِ توَجيهِ الضرَّرِ والعُنفِ إلى الفردِ الآخَرِ، واحترامِ إرادته وتَقديرِها، والتَّقاسُمِ الآنيِّ لأقنيةِ الحياةِ ومَصارفِها، وهو السُّلوكُ العامُّ الذي يَربطُ مجموعةَ الأفرادِ ضمنَ النَّسقِ الاشتراكيِّ. ما يَعتبرُه (نيتشه) ضدَّ إرادةِ الحياةِ ونكرانًا لقيمتِها في التَّفرُّدِ والتميُّزِ والدَّعوى إلى العُلوِّ والتَّفاضُلِ، فقيمةُ الحياة عندَ (نيتشه) هي اضطهادُ الآخَرِ وفَرضُ إرادتنا عليه واستعبادُه، فهذه طبيعةُ الحياةِ التي تَقوم على مبدأ القوّةِ داخلَ المُجتمعاتِ[4].

فالدَّعوةُ إلى نفي عقيدةِ التَّمايُزِ بينَ البشرِ، هي مُؤدَّى أنطولوجي لانتقاص حقيقةِ التَّعالي

---

١ - فريديريك نيتشه: إنسان مفرط في إنسانيته (كتاب العقول الحرة)، ص١٦٢.

2 - Roger Garaudy: Structuralisme et "mort de l'homme", Op-cit, p 109.

3 - Friedrich Nietzsche: Le Voyageur et son Ombre (Humain, trop Humain, deuxième partie), p179.

٤ - أنظر: عمار طرابلسي: نيتشه في مواجهة مفاهيم الحداثة، ص١٨.

كما يَراها (نيتشــه)، وهي مُحاولةٌ لتحقيق توافُق بينَ طبقات المُجتمع الذي يَعتبرُه (نيتشــه) خطأً وُجوديًّا، بما هو غريزةٌ خفيّةٌ ضدَّ الأسياد والنَّوع المُتعالي، كما يحصل الأمرُ كذلك عند (نيتشه) في قَلبه لعبارة (أرســطو - Aristotle) الشَّهيرة «الإنســانُ حيوانٌ اجتماعيٌّ بطَبعه»، فيَعكسُها إلى «إنَّ الإنسانَ حيوانٌ مُفترسٌ مُتوحِّدٌ، فالأقوياءُ الذين هم سادةُ النَّوع البشريِّ يَميلونَ بالضَّرورة إلى العُزلة والتفرُّد، ويَنفرونَ من كلِّ نظام يَضطرُّهُم إلى الاتِّحاد والتجمُّع»[1]. وهذا الاســتتباعُ الذي يأخذُه (غارودي) على (نيتشه)، بوَصفه منعطفًا فلسفيًّا، أدَّى إلى قلب الثَّقافة الأوروبيّة نحوَ فلسفة التَّعالي والذّات الإنسانيّة.

غير أنَّ اســتخدامَ (غارودي) لـ(نيتشه) لم يكنْ بوجه مَوضعيٍّ، فقد سار على درب كلِّ الذين تأثَّروا بفلســفته، وأخذَهُم بوصفهم نمــاذجَ في نقد التَّواصُل الفكريِّ بين الاشــتراكيّة والبنيويّة، وهذا ما يَجعلُنا نُســائلُ مدخل (غارودي) لنَقد البنيوية، من حيثُ إعادةُ تقديم النَّماذج الفلسفيّة المُعاصرة في نَقد هذا المَســار الفلسفيِّ، رغم أنَّه عايشَ الاشــتراكيّةَ من الدّاخل، لكنّه استدعى نماذجَ فلسفيّةً ذائعةَ الصِّيت في نقد جَوهر الاشتراكيّة وعلاقتها النَّظريّة بالبنيويّة.

فالمواقفُ التي يُحصيها (غارودي) بأنَّها تقلُّباتٌ حصلَت في الفكر الإنسانيِّ، ويُساندُها نوعيًّا من حيــث طفرتُها بإعادة مَركزيّة الإنســان ومَعنى وجوده في الأرض، لم تكــنْ بدَورها مُتكاملةَ المَوقف الفلســفيِّ، وعُرضتُها للنَّقد بدأتْ معَها تحديدًا. يُضاف لهذا أنَّ مُدَّعي البنيويّة لم يُدلوا بالأسُس النَّظرية والمَفاهيميّة للاشتراكيّة، بل اعتبروها -البنيويّةَ- مَنهجًا جديدًا لاستيعاب ما خلَّفَه الصِّدامُ البشريُّ الأيديولوجيُّ؛ إذ إنَّ البنيويّةَ في ذاتها انطلقَت من العَدَميّة وإلغاء مَركزيّة الأخلاق المُطلَقة، بتأسيس مَنظور إنسانيٍّ يَحفظ جميعَ الأنواع في نسق واحد.

إنَّ إلغاءَ المَركزيّات الكُبرى واعتبارَهــا عالَمًا مُفارقًا لحقيقة الوُجود، وتَفعيلَ أنطولوجيا تأليه الإنســان، طرحَت بدَورها مشكلةَ الفَضاء الذي يَنبغي أن يَلتقي فيه الأفرادُ والمَجموعاتُ داخلَ إطار واحديٍّ يُنظِّمُ العَلاقاتِ العامّةَ والخاصّةَ بينَهم، فمَخصوصيّةُ ما قدَّمَتْه البنيويّةُ كان بالأساس يَعتمــدُ على بعث تَنظيم جديد يَحتوي مُشــكلةَ الفَراغ الذي أتَت به الفلســفاتُ العَدَميّةُ بدءًا من (داروين - Darwin) إلى (فرويد). أي إنَّها لم تُلغِ هذه الفلســفات بل انطلقَت من نتائجها لخلق مَشروعٍ جديدٍ على مُســتوى العِلم والمُجتمع. لهذا فإنَّ حصرَ (غارودي) للبنيوية في اســتمداد

١ - زكرياء إبراهيم: حول فلسفة نيتشه (ثورة على القطيع)، مجلة الرسالة، العدد ٥٨٨.

أصولِها من الاشـتراكيّة قد يَبدو نظرةً من زاويةٍ واحدة، وهو الذي تقمَّصَ الفكرَ الاشـتراكيَّ في بداياته، فهذا التوجُّه نحوَ رفضِ البنيويّة، من مُنطلق امتثالِها للفكرِ الاشـتراكيِّ، يَبقى محلَّ رؤيةٍ ذاتيّةٍ تَرفضُ كلَّ ما له علاقةٌ بالأيديولوجيا الشُّيوعيّة التي غادرَها (غارودي) فيما بعدُ.

يَسـتمدُّ (غارودي) أيضًا فكرةَ (نيتشه)، عن نقدِ القيَمِ المُسـتلَبة، من البُعد الدِّينيِّ والتاريخيِّ العَقليِّ للإنسان، بضَرورةِ إعادةِ النَّظرِ في مفهوم الإرادةِ والمَبنى الذي يَنبغي أن تُبنى عليه، «ومن هذا المَنظور فإنَّ الجدلَ لم يَعدو كونَه طريقةً لاسـترجاعِ القيمِ المُستلَبة، لا شيءَ جديدٌ، وذلك لأنَّه لا يَزالُ يَسـتبطِنُ الأفكارَ المُشوَّهةَ. وسوفَ تَغدو ضُروبُ العُبوديّةِ راسخةً داخلَنا، ونتحوَّلُ بعدَ ذلكَ إلى مُنتجينَ لها»[1].

والأمرُ هنا، أنَّ (غارودي) يَبحثُ عن تمَكينِ فكرةِ رَفضِ البنيويّة بوجهٍ كاملٍ يَتجاوزُ ما يُمكِنُ أن يَربطَها بالأصولِ الفكريّة للاشتراكيّة والمُساواةِ على حدٍّ سَواء، ولا يكونُ هذا إلا بإعلاء وتجديد مَفهومِ الإرادةِ الإنسـانيّة التي تَعتبرُ القيمةَ التي تَستوضِعُها وَفقًا لمُجرياتِ الحياة؛ حيثُ نَرى أنَّ (نيتشـه) يُهاجِمُ المُفاضلاتِ الحَداثيّةَ التي حافظَت على الجوهرِ العامِّ للتَّفكيرِ الإنسـانيِّ، فيما حاولَت إصلاحَ طريقةِ التَّفكيرِ فقط، «القِيَمُ الرّاقيةُ التي وجبَ على الإنسانِ أن يَعيشَ في خِدمتها، خاصّةً حينَ تَضعُ عليه أيديَها الثَّقيلةَ: هذه القِيَمُ الاجتماعيّةُ، ومن أجلِ تَقويتِها، وكأنَّها أوامرُ الرَّبِّ قد تمَّ رفعُها فوقَ النّاسِ، كما لو كانَت العالَمَ الحقيقيَّ»[2].

وعلى هذا النَّحوِ من الرَّفضِ النِّيتشـويِّ لمثاليّة القيَم، ومَنحِ الدَّورِ للإرادة الإنسـانيّة في تَقويمِ المَعايـير، يَرى (غارودي) أنَّ البنيويّةَ التي يَدعو إليها المُعاصرونَ فارقَت القَصدَ الأسـاسَ لها بينَ كونِها مَنهجًا يُحيط بالمَعرفة ويُقدِّمُ الرُّؤيةَ العلميّةَ السَّليمةَ، وترابُطًا بذلك يَستعيد النَّشاطُ الإنسانيُّ دورَه في نسـقٍ واحد، غير أنَّ هذا المَعنى يُؤدِّي إلى قيام فلسفةٍ بلا روحٍ «إنَّ مفهومَ النيّة، في وَقتنا هذا، يَحمل فلسفةً بوجهها الدوغمائيِّ، وهو مَربطُ الوصولِ إلى فلسفة موت الإنسان، فهي فلسفةٌ بلا ذات»[3]، والواقع أنَّ توجُّهَ (غارودي) لنَقد البنيويّة، على إثرِ إهمالِها للطّابعِ الإنسانيِّ، كان ميزةَ عصرٍ يُقدِّسُ الصِّفاتِ والخصائصَ الإنسانيّةَ ويَرفضُ كلَّ ما يُمكنه أن يَحدَّ من قيمتها.

---

1 - Roger Garaudy: Structuralisme et “mort de l’homme”, p109.

٢ - فريديريك نيتشه: إرادة القوة (محاولة لقلب كل القيم)، ص٢٥.

3 - Roger Garaudy:Structuralisme et «mort de l’homme» , p 110.

إلى هنا، يمُكنُنا فهمُ موقف (غارودي) بوَصفه نزاعًا داخلَ جَدل ما بعدَ الحَداثة؛ حيثُ تَخضعُ كلُّ الأفكار والمَواقف والنَّظريات للنَّقد اللاَّذع لتَثبت إمَّا قيمتها في واقع الإنسان، أو يتمَّ تجاوُزُها لِما يُقدِّمُ طَريقةً أفضلَ بالحفاظ على جَوهر الإنسان وإعلاء سماته وأدواره الأنطولوجية.

ثالثاً: جدل البنيويّة والتاريخ

لقد حمل (ميشيل فوكو) لواءَ تبنِّي الفَهم البنيويِّ لتاريخ المعرفة، فقد شرحَ طويلاً دورَ التّاريخ والمؤرِّخينَ، لإخراج هذا العلم من التَّناقُض الذي قد يَقع فيه، لكنَّ ما شغلَه كلَّ هذه الفترة كانَ مَدى إمكانيّة وصولنا إلى تاريخ حقيقيٍّ، تَنسجم فيه الرِّوايةُ مع زَمنها، والواقعةُ مع إحساسها، والتَّجربةُ مع نتائجها، والرّاوي مع حَبكته..، لكنَّ (فوكو) ظلَّ يُمارسُ نقدَ كلِّ هذه الأشكال الجُزئيّة التي أدَّت إلى نسبيّة التاريخ العلميِّ، ولم يكنْ على غاية من الاتِّفاق مَبدئيًّا معها، مُبيِّنًا أعطالَها بوصفها أجزاءً مكوّنةً للتّاريخ «ولكنَّنا بعدَ كلِّ هذا ما زلنا بَعيدينَ عن معرفة كيفَ نُؤسِّسُ مَفهومات نظريّةً تُحيطُ بكلِّ المُدركات الحسِّية المرُهَفة التي تتألَّفُ منها التَّجربةُ المُعاشةُ»[1]، فلا يَفتأُ (فوكو) أن يَعتبرَ أنَّ أنواعَ الرِّوايةِ التّاريخيّة تَقبعُ حيثُ لا يُمكن التحقُّقُ منها ولا الاستفادةُ من تَجربتها.

والواضحُ في هذا الصَّدد أنَّ (فوكو) بدَوره يُحاولُ استئصالَ سُلطة النَّزعة الإنسانيّة عن تاريخ العلم والخطاب، وهو ما ألحَّ عليه دائمًا في تأسيسه للمَنهج الأركيولوجيِّ بالرَّغم من استمداده للأُصول، لكنّه يُنادي فلسفيًّا بضرورة الحدِّ من وَضعيّة تسلُّط النَّزعة الإنسانيّة على البَحث التاريخيِّ. فتَجاوُزُ النَّزعة الإنسانيّة يَجدُه (فوكو) في البنيويّة التي تُمثِّلُ بالنِّسبة له إعادةَ تقويم للتّاريخ من حيثُ الجَمعُ بينَ كلِّ عناصر الخطاب لا عَزلُه عن نتائج الأحداث، على اعتباره دراسةَ اللَّحظات التَّاريخيّةَ الكُبرى، وفهمَ أسُسها وبداياتها، ثم استخراجَها في نمطٍ منهجيٍّ واحدٍ لإصدار الحُكم عليها، بوصفها مَعرفةً مَنهجيّةً[2].

واستقرَّ (فوكو) على أنَّ وحدةَ الخطاب هي التي تُعطي المَعنى المُتكاملَ للإنسان، فهو لا يَجدُ الفصلَ بينَهما، بل يتَّجهُ نحو ذلك الجمع الذي من خلاله يجري تحديدُ كلِّ التَّعامُلات داخلَ

١ - بول فيين: أزمة المعرفة التاريخية (فوكو وثورة في المنهج)، ص٤٧.
٢ - انظر: عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، ص١٤١.

المجتمعِ والدَّولةِ بشكلٍ بنائيٍّ؛ حيثُ لا تَعلو سلطةُ النَّزعة الإنسانيّة على الخطابِ، بل تكونُ ضمنَ تَشكيلته التي يَصدرُ بها. بالنسبة لـ(فوكو) لا يَهمُّ تجانُسُ المُكوِّناتِ الأساسِ للخطاب، حتّى لو حملَت في بعضها التَّناقُضَ والاختلافَ، لكنَّ المَسارَ الذي يَنبغي أن تَستوي إليه هو الشَّكلُ البنيويُّ لتُؤسِّسَ لمَعنًى علميٍّ ومَعرفيٍّ؛ إذ يَبدو (فوكو)، على غَيرِه من البنيويِّينَ، قادرًا على المضيِّ بالبنيويّة نحوَ الانسجامِ معَ العلومِ المُشتركة.

يَعترضُ (روجيه غارودي) على مبادئ إنشاءِ التّاريخِ المُوازي الذي يبحثُ عنه (فوكو) أركيولوجيا، في اعتبارِ أنَّ هذا المسلكَ لم يَردْ فيه الكلِّياتُ المَفاهيميّةُ، بل كان مُجرَّدَ شغفٍ قدَّمَه (فوكو) بطريقةٍ مُلهِمةٍ لقارئي الفَلسفة، فهو يَرى أنَّ أُطروحةَ (فوكو) لم تستوفِ الحدَّ النَّظريَّ الذي يُؤهِّلُها لتكونَ مَنهجًا علميًّا؛ إذ إنَّها لم تَتناولِ البحثَ التّاريخيَّ بالأسلوبِ الصَّحيحِ، وهي رغبةٌ مُلحّةٌ من (فوكو) لسرعةِ تأسيسِ المَذهبِ البنيويِّ لتَجاوُزِ طبيعةِ الفكرِ الإنسانيِّ لِما بعدَ الحَداثة «وقد اقتضَت أطروحةُ (فوكو)، تسهيلاً لبناءِ مَذهبٍ، قلبَ التَّسلسُلِ الزَّمنيِّ. والأمرُ ما كان ليكون ثانويًّا وهامشيًّا لولا الميلُ الدّائبُ -والمؤسفُ- لهذه البنيويّةِ المُجرَّدةِ والمُتمذهبةِ إلى مُعامَلةِ التَّسلسُلِ التّاريخيِّ بخِفّةٍ وإلى استبعادِ كلِّ ما لا يَتوافقُ بطَواعيّةٍ معَ المَذهبِ»[1]، فـ(غارودي) يَرفضُ ذلك التَّصنيفَ الذي أقرَّه (فوكو) بتَقسيمِ التّاريخِ الأوربيِّ إلى مراحلَ حسبَ التقدُّمِ الفكريِّ؛ إذ يَرى (غارودي) أنَّ هذا المَلمحَ ضيِّقُ الأُفُقِ، بما أنَّ (فوكو) ذاتَه يَعود للتاريخِ القَصصيِّ الذي لم يكنْ كاملَ العلميّةِ من حيثُ نسبيّةُ مُعطياتِه وتَفاصيلِه.

لم تكنْ إحالةُ (فوكو) للنَّشاطِ التّاريخيِّ البشريِّ إلى قانونِ الحالاتِ الثَّلاثِ بمَعزلٍ عن النَّقدِ الذي أبداهُ له (غارودي)، إذ إنَّ هذا المُنطلَقَ الذي يُمارسُه (فوكو) في تأسيسِ المَنهجِ البنيويِّ لقراءةِ التّاريخِ، بدأ معَ الارتكازِ على وضعيّةِ (أوغست كونت - Auguste Comt) لتاريخِ العلمِ، فحسبَ فَهمِ حدودِ النَّقدِ الذي يَشتغلُ عليه (غارودي) يَرى أنَّ بنائيّةَ (فوكو) غيرُ قادرةٍ على النَّظرِ إلى التحوُّلِ التّاريخيِّ من زاويةِ تَحليلِ الظَّواهرِ المَركزيّةِ فيه، بل اعتمدَت على مُجاراتِه لسرعةِ استوضاعِ هذا المَنهجِ «وما يَردُّنا إلى ضربٍ من النَّزعةِ الوَضعيّةِ، هو أنَّه يَجري وصفُ ظاهرةٍ من الظّاهراتِ، بارتباطاتِها البنيويّةِ، ولكنْ من دونِ أن تُطرَحَ أبدًا مشكلةُ علاقاتِها بمُجمَلِ حياةِ

١ - روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ص٤٠.

البَشر ومُمارستهم وتاريخهم»[1]، وبالتالي فإنَّ تَقييسَ المَنهجِ النَّظريِّ على واقع الإنسان يَنظرُ إليه (غارودي) على أنَّه إنزواءٌ نحوَ الرَّغبةِ المُعاصرةِ في تأسيس المَذاهبِ والمَفاهيمِ المُجرَّدةِ دونَ الاعتبارِ لمُقوِّماتِ الفعلِ الإنسانيِّ وحسِّه التّاريخيّ.

وهنا يُشير (غارودي) إلى إعلان (فوكو) بأنَّ الماركسيّةَ لم تكنْ فكرةً جاهزةً ضمنَ بنى الحَداثة، لتتأسَّسَ على نحوها البنيويّةُ بهذا الشَّكل، فيَعتبرُه (غارودي) صرخةً غيرَ مُبرَّرةٍ ولا تَملكُ الدَّوافعَ الفعليّةَ لإثبات نفسها فكريًّا؛ بداعي أنَّ الاهتمامَ الحَداثيَّ الذي يُقدِّمُه (فوكو) هو ذلكَ التصوُّرُ عن عُمقِ المَوجودِ والمَرئيِّ، والماركسيةُ لم تكنْ فكرةً ذاتَ صيتٍ في هذا السِّياق، فشغَفُها تمَثَّلَ بالأساس في إيجاد أسلوبٍ ماديٍّ رَمزيٍّ، «والحالُ أنَّ إحدى الأطروحاتِ الأساس التي قالَها ماركس، بخصوصِ نظريّةِ المَعرفة، تتمثَّلُ بالتَّحديد بفكرةِ أنَّ قوامَ العلمِ هو بالضَّرورةِ الباطنة، المُستترة، وليسَ بالعَلاقاتِ البَسيطةِ الثّابتةِ بينَ الوقائعِ. والمُجادلةُ ضدَّ النَّزعةِ الوَضعيّةِ لا يَنقطعُ لها حبلٌ عندَ ماركس وإنجلز»[2].

يَتراءى لـ(غارودي) في هذا السِّياق دائمًا أنَّ (فوكو) لا يُقدِّمُ تَبريرات تاريخيّةً وعلميّةً لطبيعة التعدُّد والتَّنقُّلِ بينَ النَّظريات والأفكارِ تاريخيًّا، فهو يُطلقُ أحكامَه المُتهوِّرةَ دونَ إصابةِ الهدفِ الأساسِ الذي يَنبغي الكشفُ عليه خلال خلاصةِ البَحث المَعرفيِّ، وهو ذاتُ السَّببِ الذي يَنحدرُ به إلى التوجُّه المُعاصر وخلفيّته الفكريّة حولَ إنكارِ الأصلِ الماركسيِّ للبنيويّة، فيما يُصرُّ تراتُبيًّا (غارودي) على التَّحقيق في الجذورِ الماركسيّةِ للبنيويّةِ ليتمكَّنَ من تَحصيلِ نتائجِ التتبُّعِ التّاريخيِّ النَّقديِّ لهذا المسلكِ النَّظريِّ.

والمسألةُ التي يَعكفُ (غارودي) على نقدِ جَوهرها هي تلكَ العَلاقةُ بينَ الإنسان والتّاريخ، التي يُقدِّمُ على نَحوها (فوكو) مَنظورَه النَّقديَّ، بفعلِ أنَّه يَرفضُ مَبحثَ المَعرفة ما قبلَ القرنِ الثامنَ عشرَ، على حساب التقدُّم الفكريِّ للإنسان، الذي يُمثِّلُ إرادةً مُعاكسةً تكشفُ عن ظاهرِ الإثبات وعُمقِ التَّحليل، فهو بنظرِ (غارودي) يُلزمُ نفسَه بالانتماء إلى التيّارِ العلمانيِّ بطريقة يُبرِّئُ نفسَه من الاعتراف بالنَّظريات الكلاسيكيّةِ والتَّوجُّه نحوَ اللا نَسَقيّةِ المُعاصرة.

فالمعرفةُ بحسبِه كانَت ركامًا لم يُقدِّمِ النَّتائجَ التّاريخيّةَ اللازمةَ لاستخراج الإنسانِ إلى فَهمِ

١ - روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ص٤٠.
٢ - روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ص٤٢.

جَوهر وجوده وتَرتيب أحداثه المَرئيّة عن الأشياء بنَمط التفوُّق الحَيَويِّ، «إنَّه الحياةُ (...) والمَعرفةُ تتحـوَّلُ إلى مَنهج فِعلٍ يُحقِّقُ التَّغييرَ في الذّات والعالَم من حَولها في آن واحد»[٣]. وعلى اعتبار هـذا التصوُّر المُبهَـم يَعتبرُه (غارودي) بأنَّه غادرَ مَجالَ المَعرفة الحَقّة على حسـاب الركون إلى التَّمذهُب دونَ إبراز مَكامن هذا الاستبدال «إنَّ هذا التصوُّرَ المُجرَّدَ والمُتمذهبَ للبنيويّة لا يَكتفي بإعادة خلق التّاريخ بواسطة المَراسيم، بل يَجعلُ حركةَ التّاريخ بالذّات مُستغلقةً على الفَهم»[٤].

إلى هذا الحـدِّ يَنبغي فَهمُ أنَّ المَذهبَ، الذي يتأنىَّ فيه (فوكـو)، لا يتقبَّلُ بوجه أو بآخَرَ ذلكَ الوَصلَ الذي حقَّقتْه المَناهجُ المَعرفيّةُ والأبحاثُ التّاريخيّةُ في تحديد علاقة الإنسـان والمَنهج، أو بدرجة أوسـعَ بينَ الحياة والمَعرفة، فهي تُحاولُ تَجاوُزَ كلِّ القيَم العَقليّة والرُّوحيّة في سـبيل إعلاء إرادتها على قيَم الحياة وجَوهريّة الإنسان، برَفض استوضاع أيِّ معنًى للتّاريخ، وتبديد كلِّ ما يُشير إلى تاريخ الأفكار لصالح فكرة التاريخ الكليِّ «إنَّ فكرةَ تاريخ شاملٍ وفكرةَ إمكانيّته أخذَتا في الانحدار، وصرنا نَلحَظُ ارتسـامَ البَشـائرِ الأوَّليةِ لما يُمكنُ أن نُطلِقَ عليه تاريخًا عامًّا، مُختلفًا عن الأوَّل أشدَّ الاختلاف»[٥].

وهنـا يَظهر مجدَّدًا أنَّ (فوكو) يَرمي بنفسـه في نفق خَلفيّته الما بعـدَ حداثيّة، التي تُكرِّرُ ذاتَ المَنطلَـق برَفض التّاريـخ الغائيِّ على اعتبار أنَّه مَوجةٌ عَقلانيّةٌ ودينيّـةٌ، وهو ما يُؤكِّدُ دائمًا انزواءَ (فوكـو) إلى عَدَميّة القَرن العشرينَ، واسـتمدادَ نتائجها في تَبرير ما يُحاولُ تَفضيلَه على غيره في إصدار الأحكام المَعرفيّة، وهو ما يَصفهُ به (غارودي) -في استعمالٍ مُتكرِّر- بـ «التَّهوُّر في إعلان» الهَيمنة المَعرفيّة الفوكوية على البَحث التّاريخيِّ والمَعرفيّ.

يتراءى لـ(فوكو) أنَّ تشكلَ التّاريخ والمَفاهيم المُرتبطة به لا يَحمل بالضَّرورة الطّابعَ القانونيَّ والأسـلوب المَنهجيَّ، فهـو يَرفضُ بالمُطلَق اسـتمدادَ المَعرفة من الجَواهر الثابتـة أو القوانين السَّببيّة، وأنَّ الإجماعَ في هذه الحال يتأتىَّ من شتات ما ليتكوَّنَ في بنية واحدة مَوصوفة بالحيويّة وراغبة في إيجاد مَخرج نَفعيٍّ جَماليٍّ يَربطُها بالواقع، وفي هذا التوسُّـل الفلسـفيِّ يَجد (فوكو) ضالّتَهُ عندَ (نيتشه) في إعلانه لقيمة الجسد وتَسيُّده على عناصر المَعرفة الكلاسيكيّة. إنَّ (فوكو)

٣ - مطاع صفدي: استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية، ص٥٦.
٤ - مطاع صفدي: استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية، ص٤٧.
٥ - ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، ص١١.

في هذه اللَّحظـة يتنقَّلُ بمثال البنيويّـة والبرَهنة عليها من خلال التَّمثيل بالجسـد وإخراجه من الصِّفـات الرُّوحيّة والظّاهراتيّة إلى بنية جامعة للبنى الجُزئيّة التـي تتفاعَلُ باعتبارها قوى حيويّةً يَستكملُ بعضُها بعضًا «لنَحترسَ من الاعتقاد بالهويّات التّاريخيّة، فهيَ ليسَت سوى أقنعة لصالح الوَحدة؛ فالحَقيقةُ الأعمَقُ، التي من شـأن الباحث النّسابيِّ أن يَكشفَها، هي سرُّ كون الأشياء بلا جَوهر أو كون جوهرها قد تكوَّنَ تَدريجيًّا انطلاقًا من أشكال كانَت غريبةً عَنها»[1].

والحـالُ أنَّ هذا الموقـفَ يُعادي الجزءَ الأكبرَ من تاريخ الإنسـان والإسـهامات التي قدَّمَها فلاسفةُ العقل والدِّين وغيرُهم، وهو مَلمحٌ بلا شكّ يَسترقُه (فوكو) من (نيتشه)، هذا الذي يَدعو إلى هدم كلِّ الجَواهر المُفسِّرة لطَبيعة العَلاقة بينَ العقل والإنسـان، الجَوهر والوجود، السَّـببيّة والتاريخ، الما-ورائيّة والحياة، لكنَّ النَّظرَ من هذه الزّاوية الضيِّقة يَجعلُ (فوكو) محلَّ عدم قدرة على تحديد الأسـلوب العامِّ للبنيويّة، بوَصفها مَجموعةَ بنًى مُتشابكة تَسيرُ في آن واحد لتَحقيق غاية أنطولوجية، على مُستويَين، الأوّل: إماتةُ التوجُّه الإنسانيِّ الذي دَعا إليه (نيتشه) بإلزاميّة وَضع قِيَم التَّراتُبيّة، والجسـد المُتفوِّق، فالبنيويّةُ هي احتواءٌ للأجزاء وانصهارُها ضمنَ الكلِّ. والثاني: على مستوى البَحث الأركيولوجي، الذي يُنقِّبُ عن أصول تطوُّر الفكرة وعلاقتها بالمَفهوم، وهو ما يُفسِّرُ غموضَ (فوكو) وتَشـبيكَه لمجموعة واسعة من الاسـتعمالات اللُّغويّة التي تُبعدُه عن التَّدقيق في نحت فِكرته والمُواصلة على نفس الدَّرب في إبرازها.

رابعاً: البنيويّةُ من المَعرفة إلى المُجتمع

احتاجَت النَّظريةُ البنيويّةُ اسـتئنافَ تموقعها في السّـاحة الفكريّة إلى إثبـات آليات تَطبيقاتها الاجتماعيّـة، أو بالأحرى ذلك الانتقال من مُجرَّد منهج للعلوم إلى فلسـفة للحياة العامّة؛ حيثُ تَعبرُ من خلالها مَجموعةُ القيَم الترَّابُطيّة التي تُؤسِّسُ لمعنى البنية، من خلال البَحث عن جوهر الأنثروبولوجيا الإنسـانيّة، عبرَ الكتابـات التاريخيّة والأدبيّـة الواقعيّة، ومُحـاكاة النصِّ الأدبيِّ والتّاريخـيِّ لأنطولوجيا المجتمـع، انطلاقًا من حدود حيـاة الفَرد إلى وصف الـصِّراع الطَّبقيِّ والحديث عن أنظمة الحُكم المُتمايزة.

ولعـلَّ (سـتراوس - Strauss) كان مـن أوائـل الذينَ درسـوا المُجتمعات القديمـةَ كشرائح

١ - أوبيير دريفوس وبول رابينوف: ميشيل فوكو (مسيرة فلسفية)، ص٩٩.

قياسٍ وعيّناتٍ للبَحث، ليَستجمِعَ تبصُّرَه ضمنَ الاتِّجاه البنيويِّ، بالتزامه دائمًا بمَنحى التَّفكيرِ الماركسيِّ، بما أنَّه أحدُ الذينَ أعلنوا عن توجُّههم واندراجهم في الأسلوب الماركسيِّ، لا سيَّما المَظهرِ الاجتماعيِّ منه، ويتخلَّلُ هذا فروقاتٌ على مُستوى التَّطبيقِ للنَّظريةِ الاقتصاديّة على المُجتمعاتِ التّاريخيّةِ في صيغةِ إيجادِ عمليّةٍ قابلةٍ للفَهمِ والقياسِ «فقد كانَت الماركسيّةُ تُقدِّمُ تصوُّرًا تاريخيًّا للطَّبيعةِ، وتَصوُّرًا ماديًّا للتاريخِ، والمُمارسةُ الفعليّةُ هي العَمليّةُ الحَيويّةُ الواقعيّةُ بوجود الإنسان، الذي لا يكونُ وَعيُه إلا انعكاسًا للمُمارَسةِ التّاريخية.

وعلى هذا فإنَّ وعيَ الإنسانِ وذكرَه ليس من إنتاج الطَّبيعةِ، وإنَّما صُنع التّاريخِ»[1]، الذي يَعني أنَّ (ستراوس) يُفاضِلُ مَنهجُه على (ماركس) في تناوُلِ المُجتمعاتِ التّاريخيّةِ من خلال المَبنى الاقتصاديِّ لها، فيما اكتفَى الماركسيُّونَ بالسَّردِ الأدبيِّ الواقعيِّ للمُجتمعاتِ القَديمةِ، وهذا الفرقُ الأساسُ بما أنَّ (ستراوس) يَبحث في استوضاعِ نظريّةٍ مُتكاملةٍ تَستجمِعُ في قوامها الأبعادَ الجَوهريّةَ بينَ المَنهجِ العِلميِّ والحياةِ الاجتماعيّة.

إنَّ مسلكَ القياسِ والمُقارنةِ هنا هو النَّظرُ إلى حالةِ مُختلفِ المُجتمعاتِ، التي تكونُ قد سبقَت على حُكمها اتِّجاهاتٌ فردانيّةٌ على مُستوى الملكيّة، أو وجوديّةٌ على مُستوى المُجتمع، وهذه الخصائصُ حسب تمَعُّنِ (ستراوس) ستكونُ حائلاً لا محالةَ من الوصولِ إلى الأسُس والقِيَمِ والقَوانينِ والعَلاقاتِ التي تُحلِّلُ البنى وتَطمحُ لتكوينِ البنيةِ الاجتماعيّة، وبالتالي فإنَّ وقوفَ (ستراوس) على إنزال الماركسيّةِ ونمَذجتها بنيويًّا هو مُوافقتُه المَبدئيّةُ المَبنيّةُ على اعتقاد (ماركس) بأنَّ روحَ الثَّقافةِ لدى أيِّ مجتمعٍ تَستلزمُ بنيةً اقتصاديّةً شاملة.

«إنَّ الجدلَ عندَ ليفي ستراوس: يَنبعُ مباشرةً من عاداتٍ وفلسفةِ المَجموعةِ التي يتعلَّمُ منها الفردُ، ومن إيمان هذا الفردِ بالأرواحِ الحارسةِ، ومن حقيقةِ أنَّ المجتمعَ كلَّه يُعلِّمُ أفرادَه أنَّ أملَهُم الوحيدَ في الخلاصِ، داخلَ النِّظامِ الاجتماعيِّ الثابت، يَكمُنُ في مُحاوَلةٍ عبثيّةٍ للتَّحرُّرِ من هذا النِّظام»[2]، ورغم أنَّ (ستراوس) يُصرُّ على الماركسيّةِ في مُحاولته لقراءةِ طبيعةِ المُجتمعاتِ البدائيّةِ لكنّ ملامحَ العَطبِ تَظهرُ على فلسفته من خلال مُحاولته لتطبيقِ الماركسيّةِ على مُجتمعاتٍ بدائيّةٍ تَفتقِدُ للمَظهرِ الصِّناعيِّ والاقتصاديِّ القويِّ، وهو ما يُرصَدُ باعتباره عورةً في هذا المَصبِّ.

١ - صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص٢٨٥.
٢ - إيديث كريزويل: عصر البنيوية، ص٥٣.

وتكمنُ السِّـمةُ الثّانيةُ، التي يَرتمي في أحضانها (ستراوس)، في أنَّه انسجمَ معَ فكرةِ (روسو) عن الطَّبيعةِ والمُسـاواةِ، من خلال المُوافقة على المُشـكلةِ التّاريخيّةِ التي يُعدِّدُها (روسـو) في أصلِ التَّفاوُتِ وضرورةِ العَودةِ إلى مبدأ المُسـاواةِ الفطريِّ الطَّبيعيِّ، لكنَّه يُنشـئُ اختلافًا ضمنيًّا ليُواكبَ مرحلةَ العَصْرِ في اعتقاده بأنَّ «التصوُّرَ الحقيقيَّ للإنسـانِ يَرتبطُ باللَّغوِ، واللُّغةُ لا يُمكنُ تصوُّرُهـا بـدون المُجتمع»[1]، وبما أنَّ (سـتراوس) أخذَ على (روسـو) نمَذجـةَ تفاصيلِ السرَّدِ التّاريخـيِّ للمُجتمعِ البدائيِّ، لكنّـه يَبتعدُ عن واقعيّةِ المُقارَنةِ بينَ عَـرضِ الحالاتِ الثَّلاثِ التي يُشيرِ إليها (روسو)، وبينَ ما يَطمحُ له (ستراوس) في تحقيقِ مَنفعةِ الدِّراسةِ التّاريخيّةِ على النَّحوِ البنيويِّ للمُجتمعِ الكلاسـيكيِّ، وهنا مَربطُ الارتياب: هل يَعُدُّ (ستراوس) هذه الدِّراسةَ للبحثِ عن مُجتمعٍ نَموذجيٍّ مُعاصرٍ مُغايرٍ لما هو عليه الحالُ، أم يَسـتعملُ ذلكَ لإثباتِ صحّةِ المَنهجِ البنيويِّ في دراسةِ الحالةِ القَديمةِ، وهنا يقعُ محلُّ إبهامٍ وتداخُلٍ في استعمالاته لطبيعةِ المَفاهيمِ والألفاظِ المُعبِّرةِ عن حالةِ المُجتمعاتِ، وهو ما لم يُؤسِّـسْ لنتائجَ فعليّةٍ خلالَ هذه الدِّراسـاتِ عن المُجتمعاتِ السّابقة؟

والحالُ أنَّ سيرَ (ستراوس) في عرضِ البنيويّةِ يَنطلقُ من الإقرار بأنَّ لكلِّ ظاهرةٍ ماديّةٍ أو مَعرفيّةٍ بنيةً مُحدَّدةً تتشكَّلُ منها مجموعةُ علاقاتٍ في شكلِ نسقٍ واحدٍ قابلٍ للتَّحليلِ فهي «قاعدةٌ أساسٍ من قواعدِ التَّحليلِ البنائيِّ.. وأنا أعني بذلكَ أنَّ التَّحليلَ لا يَسـعُه أن يَكتفي بتناوُلِ الألفاظِ، بل عليه أن يُـدركَ من خلالِ الألفاظِ ما يُوحِّدُ بينَها من علاقاتٍ، إنَّ هذه العَلاقاتِ وحدَها هي التي تُشكِّلُ موضوعَه الحقيقيَّ»[2]، وهو الفهمُ القائمُ على دراسةِ تلكَ الرَّوابطِ الحَيويةِ بينَ كلِّ الأجزاءِ والعَنـاصرِ لفَهمِ العَلاقةِ بينَها وتَوحيدهـا ضمنَ بنيةٍ واحدة، وهنا يَبدو أنَّ (سـتراوس) لا يُحدِّدُ طبيعـةَ البنيويّةِ الاجتماعيّةِ، فهو يَنتقلُ من التَّمثيلِ بالمَنهجِ العلميِّ البنيويِّ إلى تَعميمه في ضبطِ العَلاقاتِ الاجتماعيّةِ، وهو ما لا يَتوافقُ معَ الحركةِ الأنثروبولوجية تاريخيًّا.

فرأيُ (سـتراوس) هنا مَبنيٌّ على مفاهيمَ وليس على تجاربَ مُلاحَظةٍ أو فلسـفةٍ واقعيّةِ النَّظرِ. وبالرَّغـمِ من أنَّـه حاولَ تجاوُزَ هذه الحالةِ مـن الارتيابِ بقوله «إنَّنا مُضطـرُّونَ إلى تصوُّرِ البنى الاجتماعيّـةِ بوَصفِها مواضيعَ مسـتقلّةً عن وعي النـاسِ لها، وباعتبارِها قابلـةً لأنْ تَختلفَ عن

١ - محمـد مجدي الجزيري: البنيوية والعولمة في فكر كلود ليفي ستراوس، ص٤٣.
٢ -كلود ليفي ستراوس: الإناسة البنيانية، ص٧٩.

الصُّــورة التي يُكوِّنونَها عَنها اختلافَ الواقعِ الفيزيــائيِّ عن التمثُّلِ الحسيِّ الذي نُكوِّنُه عنه وعن الفَرضيّاتِ التي نَصوغُها بصَدده»[1]، وهو ما يَقع محلَّ نقد (غارودي)، باعتبار أنَّنا نُسَلِّم مَوضوعًا ألسنيًّا لجَدليّة مَكنوناتيّة إنسانيّة، ونُسلِّمُ المُجتمعَ لفَرضيّة مَنهجيّة لم تَحظَ بالتَّعميم الكلِّيِّ بعدُ، فهــي لم تُحقَّق الفَرضيات المُقدَّمةَ من طرف (ســتراوس)، وهو ما يَعتــبرُه (غارودي) مُجدَّدًا أنَّ البنيويّةَ هي الصُّورةُ المُنقَّحةُ عن الماركســية التي تَبحثُ عن إعادة ضبطٍ للمُجتمع، وفي أحيانٍ أُخرى تُريدُ أن تكونَ فلســفةً كانطيّةً بدونِ ذاتٍ مُتعاليةٍ، وكلا المُبرِّرَينِ يَحملُ في كَنفِه الارتيابَ المَنهجيَّ والمَفاهيميَّ الذي وقعَ فيه (ستراوس).

فالمشكلةُ الرَّئيسةُ عندَ (ســتراوس) هو انطلاقُه من تَشريحِ المُجتمعاتِ القديمة على نظرةٍ لا تاريخيَّةٍ تُريدُ أنْ تُوَحِّدَ فَرَضيّاتِ الدِّراسةِ مع الحالةِ الآنيّة، بما في ذلكَ التَّفاعُلُ بينَ الأبنيةِ، باعتبار أنَّ ماضيَ هــذه المُجتمعاتِ يمثّل نوعًا مــا حاضرَ المُجتمعاتِ الرّاهنة، فهو بمثابة الاســترجاعِ لصِفاتٍ سابقةٍ، فيَكون بذلكَ تصوُّرُه خاضعًا لمبدأ الأسطورةِ، وليسَ لقواعدِ الدِّراسةِ التّاريخيّة، باعتبارها مجموعةَ المَبادئ والأسُــس المَوضوعيّة التي تَروي الأحداثَ التّاريخيّةَ ضمنَ سلسلةٍ زمنيّــةٍ مُحدَّدةٍ معَ تَعريفٍ لكلِّ مرحلةٍ ومُميِّزاتها الذّاتيةِ والجَماعيّة. وهنا يتحدَّدُ مَبنى الخلطِ بينَ البحثِ عن مُبرِّراتٍ افتراضيّةٍ، وبينَ إيجادِ قوانــينَ طبيعيّةٍ ثابتةٍ تَحكم المجتمعَ بطريقةٍ تَحليليّةٍ وعلاقةٍ مُنضبطة.

ويَرى (غــارودي) من ناحيةٍ أعمقَ أنَّ البنيويّــةَ الاجتماعيّةَ لم تُحقِّقْ ذلك الإشــباعَ الحقيقيَّ الذي يَنبغي أن يكونَ، فهي تَعتبرُ أنَّ الأفرادَ أقنيةٌ لا واعيةٌ لنظامٍ كلِّيّ، «وعلى هذا الأساس يكونُ اللّا وعي، لا بالمَعنى الفرويــدي (أي العامر بالرَّغبات)، بل بالمَعنى الكانطيِّ (أي المُؤلَّف من مَقولات، لكنْ بلا إحالةٍ إلى ذاتٍ مُفكِّرة)، هو مَصدرُ سائرِ البنى الأخرى، ولكنَّه يَبقى هو نفسُه مُعطًى غيرَ قابلٍ للتَّفسير، ومن المُستحيلِ البحثُ عن تكوينٍ له لأنَّه بالتَّعريفِ هو بَدئيٌّ»[2].

وبالتّــالي لا يُمكــنُ تَقعيدُ المنهجِ البنيــويِّ اللَّفظيِّ على الحالةِ الاجتماعيّــةِ للأفراد، فالواقعُ الخارجــيُّ مُتغيِّرٌ لا تَحكمُــه قواعدُ ثابتةٌ، أو تلــك التي يَعتمدُها (ســتراوس) في ضربِ الأمثلةِ وإســقاطِها على الواقعيّةِ الاجتماعيّةِ، فالفردُ أو المُجتمعُ لا يُمكِــنُ حَصرُه بمَوضوعٍ مُحدَّدٍ ولا

١ - كلود ليفي ستراوس: الإناسة البنيانية، ص٤٠.
٢ - روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ص٣٢.

بزمان ثابت؛ إذ إنَّ الاختلافَ فيه يُحدِّدُه التطوُّرُ التَّجريبيُّ الذي يَقوم به الإنسانُ من خلال اكتسابه للخبراتِ التّاريخيّةِ، وكذا الطَّفرة التي تُميِّزُ موضوعَ الإنسانِ عن بقيّةِ المَوضوعاتِ كاللُّغةِ والثَّقافة.. وغيرها.

خاتمة

تَدعو البنيويّةُ إلى تفعيل نظامِ الوَحدة الكاملة بينَ مختلف العناصر والأجزاء، لتكونَ في مَثابة صورةٍ واحدة تتضمَّنُ كلَّ الجواهر، وتَسيرُ بها إلى رُؤيةٍ شاملة تُحافظُ بها على الجَميع، وقد تمتَّعَت باستظهار قُدراتها النَّظريّة في مَجالات مُختلفة كالألسنيّة، والتّاريخ، والمَنهج، والمُجتمع وغيرها..؛ حيثُ حافظَت قدرَ المُستطاع على قدرةِ التَّعميم والشُّمول، وجعلِها بمَثابة المَنظور الصِّحيِّ للعلوم والمَعارف وحياة الإنسان.

لكنَّ الرُّؤيةَ النَّقديةَ التي قدَّمَها مُفكِّرو الحرِّية الفَرديّة، ومُنظِّرو التَّراتُبيّة، ومُؤصِّلو التَّفاوُت، عاكسَت النَّظريّةَ النِّيانيّةَ في مَنهجها وأساليبها وطُرق وُصولها لتلكَ النَّتائج التي خلقَت التَّداخُلَ والإبهامَ بتَجاوُزها للجَوهر والمَرجعيّة، ودونَ تَحديدها للنَّموذجِ المَركزيِّ الذي يَنبغي أن تسيرَ عليه.

وبما أنَّ الأصلَ في الإنسان التفوُّقَ والتفرُّدَ، من خلال مبدأ التفاوُت، لم يكنْ للبنيويّة حظٌّ وافرٌ في إثبات أصالتها وتَخطِّي مأزقَ الانهيار الأداتيِّ، فارتماؤُها في حضنِ فلسفات المُساواة من (روسو) إلى (ماركس)، بدَّدَ نجاعتَها العَمليّةَ، وعجَّلَ بالحُكم عليها من قِبَل (روجيه غارودي) بأنَّها فلسفةُ موت الإنسان، الباحث عن ذاته في الوجود وإبداع الحياة. فهو يَعود لتلكَ اللَّحظة التي تُصبحُ فيها البنيويّةُ مَنهجًا مُفارقًا للحياة الطَّبيعيّة التي يَنتمي إليها الإنسانُ، في ظلِّ مَنظومة تَدعوهُ للمُساواة والتَّوازي والشُّمول.

وقد يَتجاوزُ مَبنى الخَطأ البنيويِّ، في نظر (غارودي)، ذلك المَسعى المنهجيَّ الذي حاولَ البنيويُّونَ استكمالَه على مستوى اهتماماتِهم العِلميّة، بأنَّهم نقلوهُ لنَظريّة اجتماعيّة تَحُدُّ النَّشاطَ البشريَّ في إطارٍ بنيانيٍّ شاملٍ.

المصادر والمرجع

باللغة العربية

- أوبيير دريفوس وبول رابينوف، ميشـيل فوكو (مسيرة فلسفية)، تر: جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت.
- إيديث كريزويل، عـصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور، دار سـعاد الصباح، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٣.
- بـول فيين، أزمة المعرفة التاريخية (فوكو وثـورة في المنهج)، ترجمة: إبراهيم فتحي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٢.
- روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩.
- زكرياء إبراهيم، حول فلسفة نيتشه (ثورة على القطيع)، مجلة الرسالة، العدد ٥٨٨.
- صلاح فضـل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الـشروق، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨.
- طرابلسي عمار، نيتشه في مواجهة مفاهيم الحداثة، مجلة الحكمة، الجزء الثاني، العدد الأول، المجلد التاسع، الجزائر، ٢٠٢١.
- عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسـفة عند ميشـيل فوكـو، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩.
- فريديريك نيتشه، إرادة القوة (محاولة لقلب كل القيم)، ترجمة وتقديم محـمد الناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١١.
- فريديريك نيتشـه، إنسـان مفرط في إنسـانيته (كتاب العقول الحرة)، ترجمة محـمد الناجي، الجزء الأول، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٢.
- كلود ليفي ستراوس، الإناسـة البنيوية، ترجمة: حسين قبيسي، مركز الإنماء القومي، لبنان، ١٩٩٠.
- محمـد مجدي الجزيري، البنيوية والعولمة في فكر كلود ليفي ستراوس، دار الحضارة

للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، مصر، ١٩٩٩.

- مطاع صفدي، استراتيجية التسـمية في نظام الأنظمة المعرفية، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٦.
- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يافوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٧.

باللغات الأجنبية

- Michel Foucault, Les mots et les choses (Une archéologie des sciences humaines), Editions Gallimard, Paris, 2013.
- Milton Friedman, Capitalism And Freedom, The University of Chicago Press, United States of America, 2002.
- Roger Garaudy, Structuralisme et «mort de l'homme», Revue La pensée, n°135, France, 1967.
- Friedrich Nietzsche, Le Voyageur et son Ombre (Humain, trop Humain, deuxième partie), Traduit par Henri Albert, Edition numérique : Pierre Hidalgo, 2012.

قِراءةٌ في كِتاب: العُنصريّة

■ مراجعة: ميرفت إبراهيم[1]

ملخّص

يُعَـدُّ التحيُّز الغربيُّ في معالجة القضايـا القيَميّة ظاهرةً بارزة، تَتجلَّى في ازدواجيّة المَعايير التي تُطبَّقُ على مختلف الشُّـعوب والثَّقافات. هذا التحيُّز أشار إليه المفكِّرُ (نعوم تشومسـكي) في معظم مُؤلَّفاته؛ حيثُ انتقدَ السياسـات الغربيّةَ لعدم اتِّساقها مـعَ المَبادئ التي تدَّعيها. كـما لفتَ إليه موران في بعض مؤلَّفاتـه، فبيَّنَ أنَّ الغربَ يُعـاني من أزمة في الفَهمِ والتَّعامل مع التَّعقيـدات العالميّة، تقودُه إلى تطبيق معاييرَ مزدوجة في سياساته.

في هذا السِّياق، يأتي كتاب "العنصرية" لـ(فرنسوا دي فونتيت)، الذي يُقدِّم نفسَه بوصفـه محلّـلاً موضوعيًّا لظاهرةِ العُنصرية. ومع ذلك، يُلاحِـظ القارئُ أنَّ الكاتبَ قـد وقع في فخِّ ازدواجيّـةِ المَعايير التـي انتقدَها كلٌّ من (تشومسـكي) و(موران)، فعـلى الرَّغم من محاولته تقديمَ طرح حياديٍّ، لكنّ تحليلَـه تأثَّر بالتحيُّزات الثقافية والسياسيّة السّائدة في الغرب.

الكلمات المفتاحية: العُنصريّة، معاداة السامية، العِرق، الرِّقّ.

1 - باحثة في مجال الأديان المقارنة، ومدرّسة في جامعة المعارف وجامعة المصطفى العالميّة.

بطاقةُ الكتاب

عنوان الكتاب: «العُنصريّة».

مُؤلِّف الكتاب: فرنسوا دي فونتيت.

ترجمة: عاطف علبي.

دار النشر: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.

رقم الطبعة: طبعة أولى/عام ١٩٩٩م.

عدد الصفحات: ١٧٩ صفحة.

مقدِّمة

لَطالما كانت العنصريّةُ إحدى أكـثر الأيدولوجيّاتِ تأثيراً في المجتمعات؛ إذ اتَّخذت أنماطًا مختلفة عبرَ التاريخ من التَّمييز القائم على اللَّون والانتماء العِرقيِّ إلى سياسات الفصلِ العنصريِّ والإبادة الجماعيّة، وعلى الرغم من الجهود المَبذولة لمكافحتها، لا تزال العنصريّةُ قائمةً بطُرق مختلفة، سواءٌ في البِنى الاجتماعيّة أو في الخطابات الثقافيّة والسِّياسيّة.

يتنـاول (فرانسـوا دي فونتيـت - François de Fontet) في الكتاب الذي بـين أيدينا موضوعَ العنصريّةِ من زوايا متعدِّدة، مُحلِّلاً جذورَها الفكريّةَ والتاريخيّة، ومُبيِّنًا كيف تحوَّلت من نظريّات فلسفيّةٍ إلى سياساتٍ تطهيرٍ عرقيٍّ وتمَييزٍ مؤسَّسيٍّ، ويَستعرض فيه أبرزَ المُفكِّرينَ الذين أسهموا في صياغة المَذاهبِ العُنصريّةِ، مثل (غوبينو - Gobineau)، و(شمبرلين - chamberlain)، وصولاً إلى تَطبيقاتها في النّازيّة والنظام الفصل العنصريّ في إفريقيا الجنوبيّة، كما يُناقشُ تأثيرَ العُنصريّةِ على المُجتمعات الحَديثةِ، خاصّةً الولايات المتَّحدة وفرنسا، وعلاقتها بالقانون؛ وفي الختام يَربط

العنصريّةَ بالبُعد النفسيِّ والاجتماعيِّ، مُشيراً إلى ضرورة الوَعي بمخاطرها لتَجاوُزها، وبالرَّغم من الصُّورة الموضوعيّة التي سَعى لتَقديمها لكنّه لم يَسلم من المسِّ الغربيِّ الذي طَالَ كثيراً منهم.

وقد جاء الكتابُ في مقدِّمةٍ ستّةِ فصولٍ على الشَّكل الآتي:

مقدِّمة الكتاب

يُوضِّح الكاتبُ في مقدِّمة كتابه أنَّه رغمَ الانتشار الواسع لمصطلح «العنصريّة»، لكنّه لم يكنْ له وجودٌ في المعاجم والقواميس اللُّغوية، وهذا يُشير إلى أنَّه مصطلحٌ مُستحدثٌ نشأ استجابةً للوقائع والسُّلوكيّات التي برزَت لاحقًا، لا سيَّما في تصرُّفات الألمان تجاهَ اليَهود؛ وإنْ كان صحيحًا أنَّ المفهومَ الحديثَ للعُنصريّة، بمَعنى التَّمييز العِرقيِّ أو التحيُّز الاثنيِّ، إنَّما تطوَّرَ في السِّياقات الأوروبيّة خلال القرنَين الثّامن والتّاسع عشر، ولكنْ يُمكن العثورُ على جذور المفهوم في معانٍ أقدمَ، ككلمة «العَصبيّة» كما وردت في لسان العرب لابن منظور (ت ١٣١١م)، والتي تدلُّ على الأنَفة للقبيلة والدِّفاع عنها، سواءٌ أكانوا ظالمينَ أم مَظلومينَ، و"العرق" و"الجنس" كما وردا في كتاب تاج العروس للزبيدي (ت ١٧٩٠م)، ويُشيران إلى فئات مُحدَّدة يختلفُ بها شعبٌ ما عن غيره، وبالتالي فإنَّ تَعميمَ اعتبار عدم وجود المُصطلَح في معاجم وقواميس اللُّغة تَعميمٌ غيرُ موفَّقٍ؛ ذلك أنَّ الكلمةَ وردَت في بعض القَواميس العَربيّة، فكان يَجدرُ الالتفاتُ والإشارةُ إلى ذلك.

وفي إطار البحث في تعريف العُنصريّة، يَتناولُ الكاتبُ مسألةَ ربطها بالعِرق، فيَسعى إلى تفسير مَفهوم "العِرق"، وبيان الالتباس الشّائع بينَ المؤلِّفين والأكاديميِّين في استخدامهم لهذا المُصطلَح بَدلًا من مَفاهيمَ مثلِ "حضارة" أو "شعب" أو "أمّة"[1]، لكنّه في معالجته هذه، يُركِّزُ على تَصنيفات البَشر وتَمييزهم استنادًا إلى خصائصهم الجَسديّة، وفقَ نظريّة «العِرق»، دونَ أن يُناقش الأُسسَ النَّظريّةَ وأسبابَ نشأة هذه النَّظريّة التي أسهمَت في انتشار هذا التَّمييز وتَعميمه على المُستوى النَّظريّ، وتَجلِّيه لاحقًا في المُمارسات العُنصريّة، ويُعدُّ التطرُّقُ إلى هذه الأُسس أمرًا جوهريًّا؛ إذ إنَّه يَكشف مَدى هشاشة تلكَ النَّظريّات التي حكمَت العالمَ، وخلَّفَت وراءَها تاريخًا حافلًا بالمُمارسات غير الإنسانيّة ضدَّ الإنسانيّة ذاتها.

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٢.

ظهرَ مَفهومُ العِـرق باعتباره مصطلحًا علميًّا زائفًا في العَصر الحديـث، وتَحديدًا في القرنَين السّابعَ عشرَ والثامنَ عشرَ، تَزامُنًا مع صُعود الفكر الاستعماريِّ الأوروبيِّ وتطوُّر الأنثروبولوجيا، ورغم وجودِ تَصنيفاتٍ جسـديّة وثقافيّة بينَ الشُّـعوبِ، منذُ الحَضـارات القديمة، فإنَّ العِرقَ لم يُستخدَمْ آنذاكَ كتَفسيرٍ بُيولوجيٍّ للفروقِ البَشريّة.

وقد أغفلَ الكاتبُ الإشارةَ إلى أنَّ الاكتشافاتِ العلميّةَ الحديثةَ، وخُصوصًا في مجال الجينات والحَمضِ النَّوويِّ (DNA)، أثبتَت أنَّ التنـوُّعَ داخلَ العِرقِ الواحد يَفوقُ الفُروقاتِ بينَ الأعراقِ المُختلفة، ممّا أسـقطَ الأسـاسَ البيولوجيَّ لهذا التَّصنيف؛ كما بيَّنَت الدِّراساتُ أنَّ العِرقَ ليس تَصنيفًـا علميًّا دقيقًا، بل بناءٌ اجتماعيٌّ، وبهذا إشـارةٌ إلى كونه قد جرى تَوظيفُه سياسـيًّا لإدامة الفُروقاتِ بينَ البَشر، وهو جانبٌ جوهريٌّ لم يَتطرَّقْ إليه الكاتبُ.

الفصل الأوّل: المُقدِّمات

يَتناول الكاتبُ في هذا الفصل قضيّتَين محوريتَين يَعتبرُهما أساسًـا لدراسـة العُنصريّة، وهُما الرقُّ ومُعاداةُ السّاميّة، فيَسـتعرضُ نظامَ الرقِّ في العَهد الرُّوماني، مُشيرًا إلى أنَّ العبوديّةَ لم تكنْ مُقترنـةً بعرقٍ مُعينٍ، بل كانَت تَطالُ أيَّ فـردٍ غريبٍ عن المجتمع، حتّى وإنْ كانَ مُواطِنًا رُومانيًّا؛ إذ يُمكن أن يقعَ في الأسر ويعامَلَ بوصفه رقيقًا خارجَ حدودِ بلاده.

أمّا في سياق مُعاداة السّاميّة، التي باتَت تُحصَرُ غالبًا في اضطهاد اليَهود، فيَسعى الكاتبُ إلى تسليط الضَّوءِ على وضعِ اليَهودِ قبلَ ظهورِ المَسيحيّة، مُوضِّحًا أنَّ العَداءَ تجاهَهم في النُّصوص الإنجيليّـة، ومـن قِبَلِ اليونان والرُّومـان، كان دينيًّا بَحتًا، ولم يكنْ قائمًا عـلى تَمييزٍ عُنصريٍّ أو عِرقيٍّ، من هنا يُؤكِّدُ الباحثُ ضرورةَ التَّفريق بينَ مُعاداة السّـاميّة ومُعاداة اليَهوديّة (الحاخاميّة)؛ إذ إنَّهما مفهومان متمايزان في جَوهرِهما[1]. كما يُوضِّح أنَّ العَداءَ بينَ المَسـيحيِّينَ واليَهودِ في مراحله الأولى نشـأ من دافعٍ دينيٍّ خالصٍ؛ حيثُ سَعى كلُّ طرفٍ إلى الحِفاظ على نقاء عَقيدته ومَنعِ التأثيرِ العقديّ المُتبادَل[2].

ولكنْ معَ مرورِ الزَّمنِ، شـهدَت هذه المُعاداةُ الدِّينيّةُ تحوُّلًا جذريًّا في العُصور الوُسـطى، ولا

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٣٦.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص ٤٠.

سـيَّما في عهد «الفرنك»؛ حيثُ أصبحَت مُرتبطةً بعَواملَ اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة[١]، وبرزَ مَفهومُ «نقاءِ الدَّم»، الذي أحدثَ نقلةً نَوعيّةً في النَّظرة إلى اليَهود؛ إذ لم يعد التَّمييزُ قائمًا على أُسس دينيّةٍ فحسب، بل اتَّخذَ طابعًا عرقيًّا واضحًا، ممّا اعتُبرَ بحسب الكاتبِ أُولى بوادرِ العُنصريّة[٢].

من اللاّفـت أنَّ الكاتبَ يُركِّزُ في تَحليله للعُنصريّة على مُعاداة السّـاميّة، ممّا يَحصر دراسـتَه في المُمارسـات الأوروبيّة ضـدَّ اليَهود، مُتجاهلاً أشـكالاً أُخرى، لا سـيَّما العُنصريّة اليَهوديّة نفسُها، التي تَستند إلى مفهوم «التفوُّق اليَهوديّ» و«شعب الله المُختار»؛ إذ تُعتبرُ اليَهوديّةُ حالةً خاصّةً تمتازُ على سـائر الأجناسِ البَشريّة، وقد أشـار المُفكِّرُ (موسى هـس) لذلك بقوله: «إنَّ العرقَ اليَهوديَّ من العُروق الرئيسـة في الجنس البشريِّ، وقد حافظَ على وحدته على الرَّغم من التأثـيرات المُناخيّة عليه، كما حافظَت السِّـمةُ اليَهوديّةُ على نَقائها عـبرَ العُصور»[٣]، كما يقول الزَّعيمُ الصهيونيُّ (آحـاد هاعام): «إنَّ اليهوديَّ هو الرَّجلُ المُتفوِّق، وهو غايةٌ في حدِّ ذاته، وإنَّ العالَمَ خُلق من أجله»[٤].

إنَّ هذه التَّصريحات لا تتأتَّى من فراغٍ فكريٍّ وديني، فقد وثَّقَت النُّصوصُ التَّوراتيّةُ، مثل سفر يشـوع، أوامرَ تاريخيّةً بإبادة شعوب بأكملها، كما عانى السّـامريونَ بسبب عدم اعتبارهم جزءًا أصيلاً من الهويّة اليَهوديّة، وهذا يَحتاج دراسةً مُفصَّلةً حولَ العُنصريّة اليَهوديّة استنادًا إلى الكتاب المُقدَّس ليس هنا مَوردُها، ولكن ما يُمكن قولُه أنَّ العُنصريّةَ اليَهوديّةَ تُمثِّل أبرزَ أشكال العُنصريّة في العصر الحديث، وإغفالُها في دراسة تقدُّم نفسها على أنَّها دراسةٌ شاملةٌ عن العُنصريّة، يَقدَحُ في شُموليّة هذه الدِّراسة، ويُقوِّضُ نزاهةَ الطَّرحِ الذي يَتبنّاهُ كاتبُها.

الفصل الثّاني: البَوادر

يُناقش الكاتبُ فيه التحوُّلاتِ التي شـهدتها العصورُ الوُسـطى، نتيجةَ الاكتشـافاتِ الجغرافيّة،

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص ٤١.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٤٦.
٣ - مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينيّة: الصهيونيّة والعنصريّة بين الفكر والممارسة، ص١٣.
٤ - إحسان الكيالي: العنصريّة والفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا وإسرائيل، ص٢٣.

وانهيارِ الهَيمنة المَسـيحيّة في أوروبا، وما أعقبَ ذلك من تغيُّرات أدَّت إلى ظهور عالم جديد، تمَثَّلَ في اكتشاف الشُّعوب الأصليّة في الأميركيَّتين (الهنود)، وتوسُّع تجارة العبيد، وصُعود نظريّة الطَّبقات.

يُشـير الكاتبُ إلى أنَّ الاستيلاءَ على المُسـتعمرات الإسبانيّة كان له دورٌ محوريٌّ في استرقاق السُّكان الأصليِّينَ (الهنود)، تحت ذريعة أنَّهم «مَخلوقات دُونيّة، أرقّاء بالطَّبيعة»[1]، وفي مواجهة هذه المُمارسات، حاولَ بعضُ اللاهوتيّينَ لاحقًا الدِّفاعَ عن حقوقِهم، مُؤكّدين أنَّهم ليسوا مجرَّدَ كائنات شبيهة بالحيوانات، بل يمَتلكون العَقل، الذي يمَنحُهم القابليّةَ لتلقِّي الإيمان الكاثوليكيِّ. غـير أنَّ الكاتبَ لم يتطرَّقْ إلى نقد هذه الفكرة؛ إذ إنَّ دفاعَ بعضِ اللاّهوتيّينَ عن حقوق الهُنود لم يَكن سِوى إعادة صياغة للتَّمييز نفسه؛ حيثُ تمَّ اشتراطُ امتلاكِهم للعَقل القادر على تلقِّي الإيمان كي يُعترف بهم بوصفهم كائنات بشريّة[2]، وبالتالي فإنَّ معيارَ التفريق بينَ البشر لم يكنْ وُجودَهم الإنسانيَّ في حدِّ ذاته، بل مَدى توافُقِهم مع النَّموذج الكاثوليكيِّ المُقدَّس.

ويَكشـف هذا الموقفُ عن التحيُّز العَميق الذي طَغى عـلى الفكر الأوروبيِّ آنذاكَ؛ حيثُ لم يكنْ مفهومُ الإنسان مُستقلاًّ عن العَقيدة الدِّينيّة، بل خضعَ لتقويم مَبنيٍّ على مَدى تقبُّله للنَّموذج المَسـيحيِّ، ويَعكس ذلك نظرةً أنثروبولوجيّةً كنسيّةً ترسَّخَت لدى بعضِ المُفكِّرينَ اللاّهوتيِّينَ، الذين اعتبروا أنَّ العقلَ المَسيحيَّ هو النَّموذجُ الأسمى، الذي يَستحيل أن يَرتقيَ إليه مَن وُصِفوا بـ «البدائيِّينَ» أو «البرَابرة»، ويَبدو أنَّ ذلكَ له امتدادًا فكريًّا في التكوّن التّاريخيِّ للغرب الأوروبيِّ؛ حيثُ جعلَ النَّزعةَ الإنسانيّةَ «تقتصرُ على المُنتسبينَ إليه، مع الاعتقاد بأنَّ الشُّعوبَ الأخرى كانَت مُتخلِّفةً، وتَعيشُ وفقَ مُواصفات العُهود السَّحيقة، أي أنَّها بدائيّةٌ»[3].

وفي سياق الحديث عن تجارة العَبيد، يُوضِّح الكاتبُ أنَّ السببَ الرَّئيس وراءَ استعباد الأفارقة ونَقلهم بـينَ إفريقيا وأوروبا وأميركا، كان الاعتقادُ بأنَّهم عرقٌ دونيٌّ بطَبيعته[4]، وقد اسـتندَ هذا التَّصنيفُ إلى لون بَشرتهم الذي ميَّزَهم عن الوَثنيِّينَ الأوروبيِّينَ البيضِ الذين اعتنقوا المَسيحيّةَ، فبينَـما كان يُمكن دمجُ هـؤلاءِ الأخيرينَ في المُجتمعات المَسـيحيّة، ظلَّ الأفارقـةُ يُنظَرُ إليهم

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٥١.

٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٥٢.

٣ - إدغار موران: ثقافة أوروبّا وبربريّتها، ص٢٥؛ راجع أيضًا طلال عتريسي: التحيّز الغربي ضدّ حقوق الإنسان.

٤ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٥٤.

باعتبارهم أدنى مَرتبة، حتّى بعدَ تَعميدهم؛ لأنَّ الاختلافَ الجسـديَّ (لـون البشرة) أُعيد تأويلُه باعتباره دليلاً على الفُروقات الجوهريّة بينَ البَشر، وليسَ اختلافًا سطحيًّا عابرًا.

أمّـا في مناقشـته لنَظريّة الطَّبقات، فيُشـير الكاتبُ إلى أنَّ الاختلافـات الوطنيّةَ بدأتْ تُفسَّر بالخُصوصيّات التي تمتازُ بها الجماعةُ، فأصبحَت كلُّ جماعة تمَتازُ عن غيرِها بناءً على عناصرَ مثلِ اللُّغة والقوّة وغيرِها من السِّمات الثَّقافيّة والاجتماعيّة، ممّا أدَّى إلى فكرة تفوُّق بعضِ الأمم على غيرِها؛ كما يُوضِّحُ أنَّ نظريّةَ الطَّبقات أسـهمَت في دمج التَّمييز الطَّبقيِّ بالتَّمييز الإثني؛ إذ بدأ المُفكِّرونَ الأوروبيُّونَ بتَصنيف الشُّعوب بناءً على أصولهم العِرقيّة، فجرى تمَجيدُ أو تَحقيرُ بعـض الجَماعات مثل العنصرِ الجرمانيِّ أو العنصر الرُّومانيّ، وقد أسـهمَ هذا الاتِّجاهُ في بروز مُمارسـات علميّة زائفة داخلَ الأوسـاط الأنثروبولوجيّة؛ حيث تمَّ التعامُلُ مع مُعطيات مُنحازة وخادعة بوَصفها حقائقَ علميّة، الأمر الذي أرسى الأسُس الفكريّةَ الأولى للعُنصريّة الحَديثة.

الفصل الثالث: المذاهب العُنصريّة

يَسـتعرض الكاتبُ في هذا الفصل المذاهبَ العُنصريّة، من خلال ثلاث شخصيّات بارزة في هذا المجال: (آرثر دي غوبينو)، و (هـ. ش. شامبرلين)، و(فاشييه دي لابوج)، مُحلِّلاً أطروحاتهم التي قامَت على تصنيف الأعراق وتمَايُزها، ومُناقشًا الأُسس التي استندوا إليها، ثمّ يُفنِّدُها، مُبرِزًا تناقضات بعضها وأبعادَها الأيدولوجيّة.

يستهلُّ الكاتبُ عرضَه بمذهب (غوبينو)، الذي أسَّسَ نظريّتَه على مبدأ حتميّة العِرق في تكوين مَصير الحَضارات[1]؛ إذ رأى أنَّ سـقوطَ المجتمعات لا يُعزى إلى تدهوُر القِيَم وفشلِ الأنظمة، بل إلى اختلاط الأعراق وفقدان العِرق النَّقيِّ الأسـمى. وقد استندَ إلى التَّصنيف العِرقيِّ الشّائع في عصره، الذي قسَّمَ البشرَ إلى ثلاث فئات رئيسة:

- العِرق الأسود: وُضع في أسفل السُّلَّم الاجتماعيِّ، واعتُبر تجسيدًا للهَمجيّة والتخلُّف.
- العِرق الأصفر: احتلَّ مرتبةً وُسطى.
- العِرق الأبيض: عُدَّ أسمى الأعراق وأقدرَها على الإبداع والسَّيطرة، بفضلِ ما يتمتَّعُ به من ذكاء ويَقظة، مَكَّناهُ من فرض هيمنته على بقيّة الأعراق.

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٦٣.

لم يَكتفِ (غوبينو) بهذا التَّصنيف، بل أضافَ إليه تقسيمًا إنجيليًّا للعِرق الأبيض، فميَّزَ الحاميينَ والسّاميّينَ والجافتيّين، حيثُ رأى أنَّ أبناءَ (سام) و(حام) عندَ احتكاكِهم بالسُّودِ جَرى تَقديسُهم باعتبارهــم آلهة، ممّا أفضى إلى أنْ تكونَ السُّــلطةُ الأولى ثيوقراطيّــة، إلى أن جاءَت الفتوحاتُ الإسبانيّةُ لأميركا، فالتقَى العِرقُ الأبيضُ بالسُّكانِ الأصليّينَ الذين كانوا من العِرقِ الأبيض، فانتقلَ الحُكمُ حينَها إلى النِّظامِ الجمهوريِّ والأرستقراطيِّ.

بلغَــت نزعةُ (غوبينو) العِرقيّةُ ذروتَهــا عندَما اعتبرَ أنَّ الجافتيّينَ هم الآريُّــونَ، ويمُثِّلونَ أرقى الأعــراقِ على الإطلاق، بل ذهبَ إلى القولِ بأنَّ جمالَهم وحدَه كان كفيلاً ببَثِّ الفرحِ في العالَم، ودَليلاً على تفوُّقِهم العَقليِّ والحضاريِّ، لكنّ الكاتبَ في هذا السِّياق لم يَكتفِ بسَردِ هذه الرُّؤية، بــل عمدَ إلى تَفكيكِها ونَقدهــا مُعتبرًا أنَّ طروحاتِ (غوبينو) أقــربُ إلى الخيالِ الأدبيِّ منها إلى البَحــث العلميِّ، مُؤكِّدًا أنَّ هذه النَّظريّةَ لم تكنْ ســوى أداةٍ أيدولوجيّــةٍ لتبريرِ مَواقفِ (غوبينو) السياسيّةِ وتَحقيقِ غاياتِه العُنصريّة.

يَنتقلُ الكاتبُ بعدَ ذلك إلى (هوســتون ســتيوارت شــمبرلين)، الذي تبنَّى مقاربةً مُختلفةً عن (غوبينو)، إذ رفضَ الاعتمادَ على الخصائصِ الجســديّة والقياســاتِ الأنثروبولوجيّةِ وحدَها في تحديدِ العِرق، وطرحَ بَدلاً منها معيارًا ثقافيًّا وخُلُقيًّا؛ فوَفقًا لـ(شمبرلين) مَن يتمتَّعُ بمُستوًى ثقافيٍّ مُعينٍ لا يَكتفي بالتَّمييز بينَ الأعراق، بل يَستطيعُ تحديدَ أصله العِرقيِّ بنفسه، ممّا يَجعلُه قادرًا على التَّفرقةِ بين العِرقِ الصّافي النَّبيلِ والعِرقِ المُختلطِ الفَوضويِّ؛ وبذلك فهو لا يَنفي وجودَ التَّفاضُلِ العِرقيِّ، بل يَرى أنَّ التَّمايُزَ الحَقيقيَّ يَكمُنُ في مَدى قدرةِ الفردِ على إدراكه، إذ إنَّ «وجودَ الأعراقِ حقيقةٌ بَديهيّةٌ، ونَوعيّةَ العِرقِ قيمةٌ مُطلقةٌ تتحدَّدُ من خلالِ التَّجربةِ المُباشرة»[1].

أمّا فيما يتعلَّقُ بانحدارِ العِرق، فقد رأى (شمبرلين) أنَّه ظاهرةٌ يُمكنُ مُعالجتُها عبرَ إعادةِ تكوينِ العِرقِ النَّبيلِ من جديد، مُستندًا إلى نظريّةِ (داروين - Darwin) في التَّهجينِ، حيثُ وَضعَ خمسةَ قوانينَ رئيسة لضمانِ تكوينِ الأعراقِ النَّقيّة:

- وجودُ مادّةٍ أُولى ذاتِ نوعيّةٍ مُمتازة، لا يُدري من أينَ يمُكنُ أن تأتي.
- استمرارُ زواجِ القُربى لفترةٍ طويلةٍ للحفاظِ على نقاءِ العِرق.
- حقُّ الانتخاب، وهو آليّةٌ لفَرزِ العناصرِ المَرغوبِ في إعادةِ إنتاجِها واستبعادِ العناصرِ الأخرى.

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٨٣.

- ضرورةُ الاختلاط العِرقيِّ، شرطَ أن يكونَ مَضبوطًا ومَدروسًا.
- إخضاعُ عمليّةِ التَّهجينِ لمَعاييرَ صارمةٍ، بحيثُ يتمُّ اختيارُ أنواعٍ مُعيَّنةٍ من التَّزاوُجِ دونَ غيرِها.

يُلاحِظُ الكاتبُ أنَّ اليهودَ وَفقًا لـ(شمبرلين) كانوا نتيجةَ تَهجينٍ غيرِ مُتجانسٍ بين نماذجَ بشريّةٍ مُتباينة، ممّا جعلَهم عِرقًا غيرَ مُتماسكٍ، لكنَّهم وبعدَ إدراكِهم لهذا العَيب، اتَّخذوا تدابيرَ لإعادة تأصيلِ عِرقِهم من خلال بعضِ التَّدابيرِ والمُمارساتِ التي تَتلاقى إلى حدٍّ بعيدٍ معَ القوانينِ التي اقترحَها (شمبرلين) نفسُه، منها مَنعُ الرَّجلِ اليَهوديِّ من الزَّواجِ بغيرِ اليَهوديّةِ وغيرها. كما يُوضِّحُ الكاتبُ أنَّ مُعاداةَ اليهودِ لم تَعدْ قائمةً على أُسسٍ دينيّةٍ أو اقتصاديّةٍ، كما في العصورِ الوُسطى، بل تحوَّلَت إلى معاداةٍ عِرقيّةٍ مَحضة، وفي هذا السِّياقِ تحدَّثَ (شمبرلين) عن تفوُّقِ الجرمانِ بنفسِ الحَماسِ الذي تحدَّثَ به (غوبينو) عن الآريِّينَ، مُعتبرًا أنَّ الجرمانَ هم العِرقُ النَّبيلُ الذي يَنبغي الحفاظُ عليه من التلوُّثِ العِرقيِّ[1]، بل ذهبَ أبعدَ من ذلك، فاعتبرَ أنَّ المسيحيّةَ في جوهرِها تَعكس الرُّوحَ الآريّةَ الصّافيّةَ، وأنَّه لا يُوجَدُ شعبٌ أجدَرُ من الجرمانِ بتَمثُّلِ تعاليمِها[2].

أخيرًا، يَعرض الكاتبُ أفكارَ (فاشييه دي لابوج)، الذي طوَّرَ مجموعةً من القوانينِ العُنصريّةِ التي عزَّزَت ما يُعرَفُ بـ «الغَطرسة العِرقيّة»، ومن أبرزها:

- قانونُ المُؤشِّرِ المَدينيِّ، الذي جعلَ المُؤشِّرَ الرأسيَّ لدى سكّانِ المُدنِ أدنى من نظيرِه لدى سكّانِ الأرياف المُحيطينَ بها.
- قانونُ المُثقَّفينَ؛ حيث اعتبرَ أنَّ جماجمَ المُثقَّفينَ أكثرَ تطوُّرًا وفقَ قياساتٍ أنثروبولوجيّة مُعيَّنة.

يُشير الكاتبُ إلى أنَّ هذه القوانينَ أسهمَت في ترسيخ المدرسةِ الأنتروبوسوسيولوجية التي يَنتمي إليها (لابوج)، والتي بلغَت ذروتَها مع تمَجيدِ إنسانِ الشَّمالِ الأشقرِ، مُستطيلَ الرّأسِ، باعتبارِه النَّموذجَ الأسمى، وقد أصبحَت المذاهبُ العُنصريّةُ، التي كانَت في السّابقِ مُجرَّدَ نظريّاتٍ، موضِعَ تَطبيقٍ عَمليٍّ مع نشوءِ الاشتراكيّةِ الوطنيّةِ (النازيّة)، وهو ما سيَتناوَلُه الكاتبُ في الفصلِ الرّابع.

---

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٩١.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص٩٣.

الفصل الرابع: الاشتراكيّة الوطنيّة

يَستعرض الكاتبُ في هذا الفصل كيفَ انتقلَت المذاهبُ العُنصريّةُ من مُجرَّد نظريّات وأفكار إلى واقـع تطبيقيٍّ، على يد الألمان، بقيـادة (هتلر) و(روزنبرغ) وغيرهما، فقد أتاح اسـتيلاؤُهم على السُّـلطة المَجالَ لترَجمة رُؤاهُم المُتطرِّفة إلى سياسات مُمنهجة تَهدف إلى التَّطهير العرقيِّ واسـتعادة الصَّفاء الآريِّ، ولم يكنْ عداؤُهم مُقتصرًا على اليَهود فحسـب، بل شـملَ المَسيحيّةَ وغيرَها من الأيدولوجيّات التي رأوا فيها تَهديدًا للوجود الألمانيِّ.

اعتبرَ (هتلـر) أنَّ الطَّبيعةَ تَرفضُ اختلاطَ الأعراق المُتفوِّقة بالدُّونيّة، ورأى في التَّهجين خطيئةً كُبرى تُخالفُ إرادةَ الخالق الأزليِّ، فالأُمم التي تَخلطُ دماءَها مَحكومٌ عليها بالاندثار، وليس في ذلـك ظُلمٌ لها، بل إعادةُ الحقِّ إلى نصابه؛ إذ إنَّ الخَطيئةَ ضدَّ الدَّم والعرق هي الخَطيئةُ الأصليّةُ لهـذا العالَم، وعلامةٌ على نهايته المَحتومة[1]، ويَـرى الكاتبُ أنَّ اليهودَ في نظر هتلر كانوا الأداةَ الشَّـيطانيّةَ التي تَعمل على إفسـادِ العِرقِ الآريِّ؛ إذ إنَّ هدفَهم تَدميرُ العِرقِ الأبيضِ عبرَ التَّهجينِ والتَّلويث العرقيِّ[2].

هذا وقد تبنَّـى (روزنبرغ) مقاربةً تاريخيّةً تقومُ عـلى الرُّؤية العرقيّة؛ إذ اعتـبرَ أنَّ تَحالفًا خَفيًّا يَجمع الكنيسـةَ الرُّومانيّةَ والماسونيّةَ واليَهوديّةَ والماركسيّةَ ضدَّ تفوُّق العرق الجرمانيِّ، فبالنسبة له، الشرُّ مُتخَفٍّ تحتَ سـتار التيوقراطيّة الرُّومانيّة، أو الإنسـانيّة الماسونيّة، ممّا جعلَه يَدعو إلى خلق ديانة جديدة، وإلغاء العَهد القَديم بشكل نهائيٍّ؛ باعتبار أنَّ ذلك هو الوسيلةُ الوحيدةُ لحماية الألمان من التَّهويد[3]. وقد شكَّلَ سَنُّ التَّشريعات والقَوانين، التي تُرسِّخُ أيدولوجيّاتهم، وتُؤسِّسُ للعُنصريّة المَنهجيّة، المَرحلةَ التَّمهيديّةَ لعَمليّـاتِ الإبادة الجماعيّة التي مثَّلَت النَّتيجةَ الحَتميّةَ لمَسارٍ طويلٍ من التأسيس الفِكريّ.

الفصل الخامس: المَظاهر المُعاصرة للعُنصريّة

يَستعرض الكاتبُ في هذا الفصلِ موقفَ الولَاياتِ المتَّحدة من الدِّيموقراطيّة وإلغاءِ العُنصريّة،

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص ١٠٧.
٢ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٠٨.
٣ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١١٦.

مُقدِّمًا إيّاها كرائدة في هذا المَجال، مُستندًا إلى الخُطوات التي اتَّخذَتْها، كإلغاء الرِّقِّ وإقرار مَبدأ المُساواة بين السُّود والبيض في المُواطَنة والحُقوق؛ لكنّ هذه المُساواةَ، وإن كانَت قد أُعلنت رسميًّا، ظلَّت تُعاني من عراقيلَ عديدة حالَت دونَ تمتُّع السُّود بحُقوقهم فعليًّا؛ حيثُ أقرَّت في محافلَ مُختلفة شروطًا وضوابطَ تُقيِّدُ حصولَهم على الامتيازات نفسها التي يَحظى بها البيضُ، دون أن تتعارضَ هذه الشُّروطُ ظاهريًّا مع القانون المُعلَن. ومع مرور الوقت، ظهرَت قوانينُ جديدةٌ عُرفت باسم «قوانين جيم كرو»، رسَّخَت الفصلَ العُنصريَّ في شتَّى مَناحي الحياة العامّة، كما رافقَها عنفٌ مُمارَسٌ ضدَّ السُّود، ممّا أفضى إلى انتفاضة عِرقيّة واسعة النِّطاق. فنَشطَت الحَركاتُ الحُقوقيّةُ التي بفَضل نِضالها، بحسب الكاتب، أُلغيت هذه القوانينُ العُنصريّةُ تدريجيًّا، وأصبحَت المُساواةُ مُكرَّسةً في نصوص القانون، ولكن لم يُشر الكاتبُ إلى النَّزعة العُنصريّة التي قام عليها وجودُ الولايات المتَّحدة من الأساس، بإبادة السكّان الأصليِّينَ، ووَضع الأوروبيِّينَ مَكانَهم.

يَنتقل الكاتبُ بعد ذلك إلى جنوب أفريقيا، حيثُ يُوضِّحُ كيفَ أنَّ الفصلَ العُنصريَّ هناكَ لم يكنْ مُجرَّدَ مُمارسة اجتماعيّة، بل كان مَنظومةَ قوانينَ ازدادَت شدّتُها تحتَ مُسمّى «الأبارتايد»؛ وتَعني هذه الكلمةُ حرفيًّا «الانفصال»، لكنَّ البعضَ أصرَّ على ترجمتِها بـ«التطوُّر المُنفصِل» في محاولة لمَنحها طابعًا أكثرَ شرعيّةً.

استندَت هذه السِّياسةُ إلى العودة إلى نمط الفَصل العِرقيِّ التَّقليديِّ؛ حيثُ يَعيش البيضُ وغيرُ البيض في مناطقَ مُنفصلة، وهو ما استدعَى إعادةَ تقسيم الأراضي في جنوب إفريقيا، ووَفقًا للحزب الوطنيِّ كان هذا الحلُّ مُبرَّرًا خُلُقيًّا وعقلانيًّا، لكنّه كان صعبَ التَّنفيذ نظرًا لاعتماد البيض الكبير على اليد العاملة غير الأوروبيّة، وهكذا يَكشف الكاتبُ أنَّ الهدفَ الحَقيقيَّ للأبارتايد، وَفقًا لما أقرَّه زعماءُ جنوب إفريقيا أنفسُهم، لم يكنْ إلا إطالة أمد سيطرة البيض[1].

ويَشرح الكاتبُ كيف تُرجمت هذه السِّياسةُ إلى إجراءات تَقييديّة وقوانينَ صارمة، ورغم تبريرات ذوي العِرق الأبيض بأنَّ هذه السياسات تَصبُّ في مصلحة السُّود أنفسهم، لكنّ ذلك كان يكشفُ عن قناعة راسخة بتفوُّق العِرق الأبيض؛ حيثُ اعتُبرَ السُّودُ خَطَرًا مُحتمَلاً وأعداءً يَنبغي السَّيطرةُ عليهم. ومعَ تصاعُد الضُّغوط الدَّوليّة والنِّضال الدّاخليِّ، أُلغيت العديدُ من القوانين التي عزَّزَت الفصلَ العُنصريَّ، ليتحوَّلَ الأبارتايد إلى فصلٍ من الماضي.

---

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٤٩.

في سـياق تَحليله للعُنصريّة الحَديثة يَنتقلُ الكاتبُ إلى فرنسا، مُوضِّحًا أنَّها كانَت قد رسَّخَت مبـدأَ رفضِ التَّمييزِ العُنصريِّ في دسـاتيرها، إلّا أنَّ الواقعَ لم يكنْ مُطابقًـا للنُّصوصِ، إذ وقعَت حوادثُ عديدةٌ عكسَت استمرارَ التَّمييزِ العُنصريِّ، ممّا دفعَ إلى نشوء حركاتٍ مُناهضة للعُنصريّة ومُعاداة السّاميّة؛ ويَلفت الكاتبُ إلى أنَّ مُعاداةَ الصّهيونيّة كان جزءًا من سياسة الاتِّحادِ السُّوفياتيِّ الرَّسـميّة، مُتمايزةً عن مُعاداة السّـاميّة في السِّـياق الغربيِّ، وقد شـهدَ العالَمُ اضطرابًا واسعًا إثرَ تصويـت الجَمعيّة الحُكوميّة لهيئة الأُمم في تشرين الثـاني ١٩٧٥م، على قرارٍ يَعتبرُ الصّهيونيّةَ نوعًا من أنواع العُنصريّة والتَّمييزِ العُنصريِّ، لكنّ هذا القرارَ لم يَدُمْ طَويلًا؛ إذ عادَتْ منظَّمةُ الأُمم المتَّحدة لتُصوِّتَ في كانون الأوّل ١٩٩١م بأغلبيّة على إلغائه.

ما يُثير الانتباهَ في هذا التَّحليلِ هو الطَّريقةُ التي يَعرِضُ بها الكاتبُ قرارَ الأُمم المتَّحدة؛ حيثُ يُعبِّرُ عن استغرابه من تَوجيه اللَّوم إلى مَن «بقي على قيد الحياة، أو إلى أحفاد ضحايا أفظع إبادة جماعيّة في التّاريخ، بتُهمة أنَّ تصرُّفَهم هو مُماثلٌ لتَصرُّف جَلّاديهم...» [1]، والمُستهجَنُ واقعًا هو إغفالُ الكاتب بَديهيّةَ أنَّ قرارَ الأُمم المتَّحدة أتى نظرًا لِما تُمثِّلُه الصهيونيّةُ من نظامٍ سياسيٍّ عِرقيٍّ يُعزِّزُ التفوُّقَ اليَهوديَّ على الآخَرينَ، ويَعمل على إقصاء الفلسطينيِّينَ، وهو ما يَظهر بوضوح في المُمارسات السِّياسيّة للاحتلال الإسرائيليِّ، منذ بدايته في فلسطين وحتّى اليوم، ناهيكَ عن كون الصهيونيّة مَشروعًا غربيًّا استعماريًّا بامتياز، هدفُه إحكامُ السَّيطرة على الشَّرق الأوسط وتَقسيمُه بما يَخدمُ المَصالحَ الغربيّة[2]؛ غريبٌ كيفَ يتمُّ التَّغافُلُ عن حقوق شعبٍ بالحُريّة والكرامة، عندَما يتعلَّقُ الأمرُ بمَصالحِ اليهودِ عالميًّا، وهذا دليلٌ دامغٌ على السِّياسـة الغربيّة العالميّة القائمة على ازدواجيّة المَعايير.

الفصل السادس: علمُ النَّفس الاجتماعي

يَقوم الكاتبُ في هذا الفصلِ الأخيرِ مـن الكتاب بمُعالَجة العُنصريّة من زاويتَين مُتكاملتَين: سـيكولوجيا الفرد والإطار الاجتماعيّ، فمن حيثُ الاسـتعداداتُ الفَرديّةُ، يَرى أنَّ جذرَ النَّزعة العنصريّة يَكمُنُ في رفضِ قَبولِ الآخَرِ كمُختلِفٍ؛ إذ يَميلُ الإنسانُ إلى اعتبار نفسه المِعيارَ الذي

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٥٩.
٢ - محمد محمود مرتضى: الكيان المارق، الغرب المتصهين، والشيطان الأخرس، ص١٦.

يَقيس به الآخَرَ، ويستغرب كيف يمُكنُ له أن يكونَ مُختلفًا عنه، ويُؤكِّدُ الكاتبُ أنَّه لا يَهمُّ إنْ كانَ الفـارقُ بين الأفرادِ حَقيقيًّا أو مُتخيَّلاً؛ إذ إنَّ الإحسـاسَ بالاختلافِ يَتعـزَّزُ في داخل العُنصريِّ، ويَدفعُه إلى التَّعميمِ المُـبرِّرِ لحُكمه على الأفراد إلى جماعاتٍ بأكملِها؛ ويُبيِّنُ الكاتبُ كيف أنَّ التَّحليلَ النَّفسيَّ غالبًا ما يَربطُ العُنصريّةَ بنَمطِ الشَّخصيّةِ المُتسلِّطة؛ حيثُ يَنبعُ السُّلوكُ العُنصريُّ من نزعةٍ مَرَضيّةٍ تَدفعُ الفردَ إلى البحثِ عن تَفوُّقٍ زائفٍ، وبهذا السِّـياقِ يَصفُ الكاتبُ التَّصرُّفَ العُنصريَّ بأنَّه «مرضٌ يَنبثقُ من نفسِ التَّفكيرِ لحامِلِ الأوسمةِ غيرِ الشَّرعيّة»[1].

إلى جانبِ العَواملِ النَّفسـيّة، يُسلِّطُ الكاتبُ الضَّوءَ على الدَّورِ الحاسمِ الذي يَلعبُه المُجتمعُ في تكوينِ الشَّـخصيّةِ العُنصريّة، فالأُسرةُ، باعتبارِها المُجتمعَ المُصغَّرَ، تَغرسُ بذورَ التَّمييزِ منذُ الطُّفولة، بينَما تُعزِّزُها السِّياساتُ والمُمارساتُ الاجتماعيّةُ في بعضِ الدُّول، خاصّةً في تَعامُلِها مع المُهاجرينَ، فحينَ يُحرَمُ المُهاجرونَ من الامتيازاتِ القانونيّةِ والاجتماعيّة، يُدفعونَ إلى الهامشِ السُّـفليِّ من الهَرمِ الاجتماعيِّ، مـمّا يُكرِّسُ التَّراتُبيّةَ العِرقيّةَ. ويَختـم الكاتبُ هذا الفصلَ بطرحِ تساؤلٍ مَفتوحٍ حولَ حَتميّةِ السُّلوكِ العُنصريِّ عندَ الإنسان.

وفي ختامِ الكتابِ يُشدِّدُ الكاتبُ على ضرورةِ التَّمييزِ بينَ مُستوياتِ العُنصريّةِ المُختلفة؛ حيثُ يُحدِّدُ ثلاثَ درجاتٍ رئيسـة: العُنصريّةُ العُدوانيّةُ المُدمِّرةُ، وهي الأشَـدُّ تطرُّفًا؛ حيث تَسعى إلى الإبادةِ أو الإقصاءِ العَنيفِ للأعراقِ الأخرى، كما فعلَ النّازيُّونَ؛ العُنصريّةُ القانونيّةُ التي لا تَلجأ إلى العُنـفِ الصريح، لكنَّها تضعُ حواجزَ قانونيّـةً للفَصلِ بينَ الأعراق؛ والعُنصريّةُ المُتخفِّيةُ في المُجتمعاتِ الحَديثة، وهي الأكثرُ انتشارًا في يَومنا هذا مُتمثِّلةً في التَّوظيفِ والإسكانِ والتَّعليمِ وغيرِها من المَجالات.

ويَختتمُ الكاتبُ كتابَه بمُلاحظةٍ لافتة، مفادُها أنَّ كلَّ إنسانٍ يَحملُ بداخلِه عُنصريًّا نائمًا، يتطلَّبُ وَعيًا ذاتيًّا عَميقًا لئلا يُوقظَ، فاحترامُ الآخَرِ وقَبولُه باعتبارِه شَريكًا متسـاويًا في الوجودِ الإنسانيِّ هو الرَّكيزةُ الأسـاس لتَجاوُزِ العُنصريّة، كما يُؤكِّدُ على أهميّـةِ التَّوازنِ بينَ الاختلافِ والتَّعايُش؛ إذ يمُكنُ الإنسـانَ أن يُحافظَ على هويّتِه الخاصّةِ دونَ أن يُنكرَ إنسـانيّةَ الآخَر، أو يُحاولَ مَحوَه، فالاندماجُ في المُجتمعِ البشريِّ لا يَعني الذَّوبـانَ المُطلَقَ، بل يتطلَّبُ الاحتفاظَ بالهويّةِ الفَرديّةِ في إطارٍ مُشتركٍ يَجمعُ بينَ الاختلافِ والتَّعدُّديّة.

---

١ - فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ص١٦٣.

رغم أنَّ الكاتبَ تَناوَلَ في هذا الفصلِ العُنصريّةَ من منظور علم النَّفسِ الاجتماعيِّ، لكنَّ طرحَه يَبقى قاصِرًا عن معالجةِ جُذورِها العَميقةِ؛ إذ لا يَتناولُ المعيارَ الحَقيقيَّ للتفوُّقِ الإنسـانيِّ الذي لا يَقوم على العِرقِ أو القوميّةِ، بل على مَدى تحقُّقِ الإنسانِ بإنسانيّته، فالإنسانُ بما أُودِعَ فيه من عقلٍ وإرادةٍ قادرٌ على الارتقاءِ فوقَ مرتبةِ المَلائكةِ، كما يُمكِنُه الانحدارُ إلى أدنى من الحيوانِ إذا فقدَ مُقوِّماتِ العَدلِ والإنصافِ.

إنَّ العُنصريّةَ ليسَت مُجرَّدَ سـلوكٍ اجتماعيٍّ مُنحرفٍ، بل هي انعكاسٌ لانحرافِ الإنسانِ عن غايتِه الوُجوديّةِ؛ إذ تَقومُ على إنكارِ مبدأِ المُساواةِ، واستبدالِ العَدالةِ بالتَّمييزِ القائمِ على العِرقِ أو اللَّون. وهذا الخَللُ في الميزانِ الخُلُقيّ كانَ عبرَ التّاريخِ أحدَ أهمِّ أسبابِ الصِّراعاتِ والاضطهادِ والاستعمارِ.

وبهذا فالحَلُّ لا يكونُ عبرَ مُعالَجاتٍ سَطحيّةٍ تَعتمدُ فقط على القوانينِ أو الخطاباتِ الخُلُقيّةِ المُجرَّدةِ، وإنَّما بإعادةِ الاعتبارِ للقيمِ التي تُكرِّسُ العَدلَ والإحسانَ. وهو ما أكَّدَه الإسلامُ بجَعلِ التَّقـوى معيـارَ التَّفاضُلِ؛ إذ قال النَّبـيُّ ﷺ: «إنَّ النّاسَ من عهدِ آدَمَ إلى يَومنا هذا مثلُ أسـنانِ المُشـطِ، لا فضلَ للعَربيِّ على العَجميِّ، ولا للأحمرِ على الأسـودِ إلّا بالتَّقوى»[1]، فالإسلامُ لم يُقدِّمْ هذا المَبدأَ بوصفه مبدأً نظريًّا، بل أرسى قواعدَه في الواقعِ العَمليِّ؛ بحيثُ جعلَ المُسـاواةَ أساسَ التَّعامُلِ بينَ البَشرِ، واعتبرَ التَّقوى التزامًا بالحقِّ والعَدلِ، ممّا يَجعلُها السَّبيلَ للقَضاءِ على العُنصريّةِ وإقامةِ مجتمعٍ تَسودُه العَدالةُ والكرامةُ للجميع.

خلاصة

في الختامِ يمُكن القولُ إنَّ الكتابَ يَتناولُ جذورَ العُنصريّةِ وتطوُّرَها عبرَ التاريخ، مع تسـليطِ الضَّوءِ على أبرزِ النَّظريّاتِ والشَّـخصيّاتِ التي أسهمَت في ترسيخِ هذا الفكرِ، لكنّه لا يَخلو من بعضِ الإشكالاتِ النَّقديّةِ على المُستويَينِ المَنهجيِّ والمَضمونيِّ.

أولًا- غيابُ التَّحليلِ النَّقديِّ العَميقِ: يَظلُّ طرحُ الكاتبِ في كثيرٍ من المواضعِ أقربَ إلى التاريخِ الوَصفيِّ منـه إلى التَّحليلِ النَّقديِّ العَميقِ؛ إذ يَكتفي برَصدِ التطـوُّراتِ التّاريخيّةِ والفِكريّةِ دونَ

١ - محمّد الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٤، ص٣٦٢٩.

تقديم تَفكيك جَذريٍّ للأُسس التي قامَت عليها العُنصريّةُ ونقدها.

ثانيًا- تَعميمُ العنوان وتَخصيصُ المَجال: يُعنونُ الكاتبُ كتابَه بـ«العُنصريّة»، لكنّ مُجمَلَ طرحه يُركِّزُ على التَّجربة الغَربيّة للعُنصريّة المُمارَسة ضدَّ اليَهود، بدءًا من نظريّات التفوُّق العِرقيِّ في أوروبا، وانتهاءً بالأنظمة النازيّة والفاشيّة، مُتجاهلاً تناوُلَ العُنصريّة خارجَ هذا الإطار، وهذا يَحدُّ من شُموليّة الكتاب باعتباره دراسةً عن العُنصريّة بوَصفها مَفهومًا عالَميًّا.

ثالثًا: إشكاليّةُ الحياد والمَوضوعيّة: يَبدو المؤلِّفُ حَريصًا على تَقديم المادّة بأسلوب يُوحي بالحِياد الأكاديميِّ، لكنَّه في بعض المَواضع لا يُخفي تأثُّرَه بالتصوُّرات الفكريّة الغَربيّة تُجاهَ بعض القضايا، مثل تعامُله معَ معاداة الساميّة والصّهيونيّة، فهو يَتناول قرارَ الأُمم المتَّحدة عام ١٩٧٥ الذي اعتبرَ الصهيونيّةَ وجهًا من وجوه العُنصريّة، كأنَّه مُجرَّدُ نزعةٍ أيديولوجيّة لا تَستندُ إلى أُسس مَوضوعيّة.

رابعًا: غيابُ الحُلول: في خاتمة الكتاب، يَطرَحُ الكاتبُ بعضَ الرُّؤى في كيفيّة مُواجهة العُنصريّة، لكنَّها لا تتعدَّى الأفكارَ العامّةَ، مثلَ الدَّعوة إلى تقبُّل الآخَر واحترام الاختلاف، في حين كان من المُمكن إغناءُ التَّحليل وإثراؤُه أكثرَ من خلال تفكيك المعيار الحَقيقيِّ لتفوُّق البشر، وإبراز أنَّ العُنصريّةَ ظاهرةٌ بشريّةٌ، وشأنٌ بشريٌّ قد مارسَها اليهودُ أنفسُهم في بعض السِّياقات، كما كان الأجدَرُ تقديمَ حلولٍ عمليّةٍ أكثرَ وُضوحًا.

المصادر والمراجع

- إحسان الكيالي: العنصريّة والفصل العنصريّ في جنوب أفريقيا وإسرائيل، ط١، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧م.
- إدغار موران: ثقافة أوروبّا وبربريّتها، المغرب، دار توبقال للنّشر، ٢٠٠٧م.
- طلال عتريسي: التحيّز الغربي ضدّ حقوق الإنسان، مجلّة جامعة المعارف، العدد ١٣، ٢٠٢٤.
- فرنسوا دي فونتيت: العنصريّة، ترجمة عاطف علبي، ط ١، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.
- مؤسّسة الأرض للدراسات الفلسطينيّة: الصهيونيّة والعنصريّة بين الفكر والممارسة، ط١، دمشق، سلسلة دراسات مؤسّسة الأرض رقم ٩، ١٩٨٠م.
- محمّد الريشهري: ميزان الحكمة، ط ١، قم، دار الحديث، ١٤١٦هـ.
- محمد محمود مرتضى: الكيان المارق، الغرب المتصهين، والشيطان الأخرس، مجلّة أمم، مركز براثا للدراسات والبحوث، العدد ٥، خريف ٢٠٢٤م.

Reading a Book: Racism

■ Reviewed by: Mervat Ibrahim[2]

Abstract

Western bias in addressing moral issues is a prominent phenomenon, reflected in the double standards applied to different peoples and cultures. The thinker Noam Chomsky, in most of his works, pointed out to this bias, where he criticized Western policies for being inconsistent with the principles they claim to uphold. Morin also highlighted on it in some of his writings, where he explained that the West suffers from a crisis in understanding and dealing with global complexities, which leads it to apply double standards in its policies. In this context, François de Fontaine's book "Racism" is considered an objective analysis of the phenomenon of racism.

However, the reader notices that the writer has fallen into the trap of the double standards criticized by both Chomsky and Moran. Despite his attempt to present a neutral perspective, his analysis was influenced by the cultural and political biases prevalent in the West.

Keywords:

Racism - Anti-Semitism - Race - Slavery.

1 - Researcher in Comparative Religions and Professor at Al-Maaref University and Al-Mustafa International University.

Death of Man, Fate of Structuralism from Roger Garaudy's Perspective

■ Dr. Amar Trabelsi[1]

Abstract

In the context of his deep engagement with Western philosophies, Roger Garaudy was not merely a reader and interpreter of methodological and epistemological approaches. Rather, he engaged actively participated in the process of critique and intellectual and practical discovery, challenging structuralist texts and what they attempted to integrate into the activation of structural theory, from linguistic and historical approaches to a social lifestyle. Garaudy's objection was not just a defense of realism but also adhered to a systematic response and scientific rigor, nourishing the curiosity of the philosophical self and the research conscience. In addition to his vast intellectual acquisitions, Garaudy's commitment to using critical tools against structuralism in a disciplined, methodical way becomes clear. He presented hypotheses, proposals, and examples while posing essential questions, continuously reviewing ideas from their parts to the whole. While Garaudy identifies the failures of structuralism both theoretically and practically, he also sought to respond to the proponents of this current, pinpointing its intellectual flaws and theoretical dysfunctions. This led him to invalidate the quality of structuralist theory in all fields where its theorists tried to prove the possibility of its practical and generalizable application. Garaudy's critical approach to of Marx's structuralist theory granted him the authority to judge it as a theory of the "death of man."

Keywords: Structuralism - Western Philosophy - Death of Man - Marx, Nietzsche.

1 - Professor of Philosophy at Mohammaed Lamine Debaghine University, Setif 2, Algeria.

Criticizing Foundations of Racial Discrimination from a Qur'an Perspective[1]

■ Akram Heydari[2]
■ Tahera Jokar[3]
■ Translated by: Mohammad Firas al-Halbawi[4]

Abstract

This research examines the foundations of racial discrimination and presents a critical and refuting Qur'anic perspective on these foundations. Among the most important foundations of racial discrimination are the arrogance of skin color, language, wealth, having many children, power, religion, or geographic location as criteria for this discrimination. This article analyzes all these factors in detail, as well as critiques and refutations. This research also includes Quranic-based criticisms of two other foundations: discrimination and arrogance, which are among the main factors in racial discrimination.

Keywords:

Quran - Racial Discrimination - Supremacy - Discrimination - Arrogance.

1 - Quranic Studies Quarterly, Sixth Year, Issue 21, spring 2015, pp. 107-122.

2 - PhD student in the Department of Qur'anic and Hadith Sciences, University of Kashan.

3 - Master's student in the Department of Qur'anic and Hadith Sciences.

4 - PhD in Persian Language and Literature, Lecturer at Damascus University.

Effects of Racism in the West

■ Zeinab Farhat[1]

Abstract

This statistical research monitors racial discrimination against minorities, particularly Muslims, Africans, Asians, and Latinos, in the United States and several European countries, including France, Germany, and Britain. According to studies, reports, and statistical research reviewed, it has become clear that the phenomenon of racism is on the rise in the aforementioned countries for political and religious reasons. It can be argued that racism is not a spontaneous tactic pursued by some extremists. Rather, according to the statistics in the research, it is a systematic and entrenched policy at all levels of the state, evidenced by discrimination in education, health, the right to work, unemployment rates, income levels, and housing. It is worth noting that the stresses individuals, who fall victim to racism, often experience have a negative impact on their mental health, leading them to experience a cycle of self-conflict.

Keywords: Racism - Racial Discrimination - Hate Crimes - Minorities - Assaults.

1 - Lebanese Researcher, Master's Degree in Information Management.

Impact of Artificial Intelligence on Entrenching Western Racism

■ Dr. Qassim Mohammad Danesh [1]

Abstract

The article discusses the impact of artificial intelligence (AI) on reinforcing Western racism towards other cultures and societies. AI emerges as a technological tool capable of bringing about radical changes in various fields. However, intelligent systems may reflect deep-rooted social and historical biases in the data used to train them, leading to the reinforcement of negative societal patterns.

This article analyzes the relationship between AI and human bias, and its impact on job opportunities, education, and social interaction. It also highlights the risks of AI applications, such as facial recognition and digital advertising, in perpetuating stereotypes. Based on this, recommendations are presented for developing fair algorithms and analyzing their social impacts, with a focus on diversifying development teams and adopting strict regulatory policies. The article aims at raise awareness of the need to design AI systems that promote social justice rather than exacerbate divisions.

Keywords: Artificial Intelligence - Western Racism - Human Bias -Biased data - Stereotypes - Intelligent Algorithms.

1 - Writer and researcher from Lebanon, PhD in computer engineering and specializes in artificial intelligence.

Western Racism, its Uses in Literature, Art, Media

Prof. Ghaidan Al-Sayed Ali[2]

Abstract

Racism is a concept that emphasizes the centrality of the self, while marginalizing the other, and believing in their inferiority. Western racism, which white Westerners believed in the supremacy and purity of their race, was the main tool for justifying Western colonization and the oppression and enslavement of other races.
Based on this, the white master had to be in control of the world's affairs and peoples. Western racism used literature, art, and media to reinforce the Western view of the "other" as inferior, suspicious, and in a lower status. It also promoted the idea of the white man being the only one capable of creativity, innovation, and building civilization. Western racism succeeded in literature by spreading racist novels. It also succeeded in the field of art by portraying racism through paintings, portraits, statues, and films. The media was also used to serve its racist goals.

Keywords:

Racism - Racist Art - Racist Literature - Racist Media - Racist Painting - Racist Film - Racist Novel.

1 - Professor of Philosophy, Faculty of Arts, Beni Suef University, Arab Republic of Egypt.

Roots of Racism in Western Culture

Critical Analytical Reading of Western Thought's History Modeling

■ Nahza Bouazza[1]

Abstract

Summary:
Western cultural presence is associated with superiority and universality, which classifies it as a historical threshold that transcends most previous civilizations. This presence obscured the possibility of achieving acculturation between different cultures, which might have the same classification rank in the historical trajectory, as the Western model is framed accordingly, giving Western centrality the guise of cultural racism, rooted in the belief in superiority resulting from European character, Christian doctrine, and Greek ancestry. This racist perception, which underlies the structure of Western culture, is fueled by European ideology, which emerged during the Renaissance and continues to this day. This ideology tends to create a Western narrative that thrives on continuity and historical extension, severing ties with other cultural influences. Thus, we find ourselves confronted with an opposing side to this West, namely the East. All of this has created a cultural unity that driven by the racism and the exclusion of those who differ, under the pretext of backwardness. This goes against the core of universalism itself, which is based on the principle of accepting differences, which have been obliterated in favor of modernizing everything in a Western way

Keywords:

Cultural Racism, Westernization, Progress, Ideology.

1 - Professor of Philosophy at the Academy of the East - Morocco

“Racism” in Jewish, Zionist Thought
Analytical Study

■ Dr. Ahmad Al-Bahnassi[1]

Abstract

Racism is one of the most harmful human behaviors. It has caused many conflicts and problems between nations and societies. That is why it is often described as a deeply human issue. However, it has been especially linked to certain groups and nations that, based on religious, historical, or ideological beliefs, saw themselves as superior to others. One of the most well-known of these groups is the Jewish community, which believed in the idea of being “Allah’s chosen people.” This religious belief was later developed by Zionism to justify the need for a special national homeland to protect their unique religious identity. This research focuses on that idea and explains its religious, intellectual, and historical roots.

The research also explained and analyzed the most important characteristics and manifestations of this Jewish racism, which extended to Zionist thought as well, and was limited to isolationism, aggression, and other manifestations that were the product of a deviant, discriminatory racist ideology.

Keywords:

Racism, Jews, Zionism, Nazism, Torah, Talmud.

1 - Egyptian researcher, PhD in Jewish Religious Thought and History of Religions, Cairo University.

courageously recognizing its true extent and being willing to face the consequences of eradicating it. If this does not happen, the West will continue to talk about equality, but it will be unable to truly achieve it.

This issue of "Oumam" contains a number of important studies that shed light on several important and integrated topics, addressing racism as one of the pillars of the Western civilizational project. It looked into the cultural and philosophical roots of racism in European thought, showing how European civilization was built around the idea that the European self is the only center of progress and superiority. Then it explored racism in both Jewish and Zionist traditions by examining their key texts and ideas, revealing a strong tendency toward cruelty, oppression, and bias, ethnic, religious, and intellectual, against other people of different religions, beliefs, and backgrounds.

The issue also addressed one of the emerging domains in the technological sector, namely artificial intelligence, and its role in promoting racism, hate speech, and bias against ethnic, religious, and cultural groups that differ from the political and cultural circles that influence the management of all areas of contemporary technology.

The research in this issue also addressed the manifestations of Western racism in the fields of literature, arts, media, and Western cinema, which were, and remain, a superior tool for highlighting Eurocentrism and Western supremacy in its American and Zionist forms, and for contributing to cultural and political normalization through this highly influential tool.

These studies emphasize that the Quranic discourse was pioneering in establishing a comprehensive knowledge framework that rejects racism and ethnic discrimination, and instead offers a universal human framework that embraces all racial, religious, cultural, and regional differences, based on human and faith-based brotherhood, and absolute social justice among people. The articles also touched on a statistical study that addressed racial discrimination against minorities, especially Muslims, Africans, Asians, and Latinos, in the United States and several European countries such as France, Germany, and Britain. Statistics show that racism is on the rise in the aforementioned countries for political and religious reasons and that it is a systematic and adopted policy in all parts of the government.

We present this issue to our dear readers, we hope it will be well-received and accepted by them. Above all, we pray that it is accepted by Allah, Almighty, as an act we offer in the context of the jihad [the struggle] for clarification. All praise is

due to Allah, in the beginning and the end.

new form of racism depends on subtle policies that reproduce discrimination in covert ways, through media, politics, and the economy. The question, however, is: Can Western societies free themselves from the discourse of white supremacy and populism, or will these tendencies remain a structural part of their political culture? The answer lies in the discourse mechanisms employed to justify racism and reproduce it in subtler, less obvious ways. Instead of using direct racist terms, Western discourse has come to rely on concepts such as "national identity," "protecting democratic values," "national security," and "social integration." These terms seem innocent apparently, but hide behind them a racist project.

Can the West Free Itself from its Racist Legacy?

Talking about racism in the West is an exploration of a dilemma that exists in the present and threatens the future as well. Western societies have attempted to present themselves as models of equality and justice, but in reality, they are still trapped in their colonial legacy and their superior attitude towards other races and cultures. Even when laws seem to change, or there are attempts to reform situations, racism continues to reproduce itself in more complex and less visible ways.

Racism in the West cannot be understood in isolation from the long history of slavery and colonialism, and the role of economic and political powers in maintaining racial gaps cannot be denied. This issue is not merely about personal or cultural biases. Rather, it is a comprehensive system that serves specific interests and ensures the continuation of privileges for one group at the expense of others.

Practices have revealed how racism is not limited to the past, but has returned today in new forms, supported by right-wing populist ideologies, and through government policies, media and economic institutions that enshrine the racial differences. Whether its discrimination in the labor market, media discourse that demonizes immigrants and Muslims, or security policies targeting minorities, we find that racism is not simply a problem of individual behavior, but rather a structural framework that permeates all social and political levels. In Western societies, there are voices rising today against racism, and there are reform attempts to create a more just environment. However, these attempts remain limited, and are often met with violent reactions from right-wing movements, which view any change as a threat to their identity.

The future may bring answers to many questions, but one thing is certain: racism will not simply fade away on its own. Without deep, structural changes in thought, politics, economics, and media, racism will continue to evolve and take on new forms. Western societies may cling to the ideal of equality, but in reality, racial divides are only growing wider.

The greatest challenge today is not only in combating racism, but also in

the Middle East by presenting them as "allies in the war against terrorism."
Regardless of the circumstances, while the 20th century witnessed a decline in direct racist discourse, the 21st century has seen a shift in the forms of racism, making it more subtle and adaptable to the new political and social climate. Racism no longer expresses itself openly as it did during the era of segregation laws, but has resurfaced through white supremacy discourse, the rise of populist movements, and the political manipulation of cultural and economic fears.
However, what caused racism to resurface in its new form? How did right-wing populism become the new front for racial discrimination in the West?
In the past, racism in the West was openly reflected in direct legal practices, like slavery, segregation, and colonialism. However, after World War II, with the growing emphasis on human rights and equality, these practices were morally rejected.
This shift forced those who supported racism to adopt new, more subtle ways to maintain racial privileges.
This shift has made it possible for racism to persist within democratic systems, where ethnic minorities are no longer viewed as "inferior," but rather as a "threat" to Western society, whether economically, culturally, or security-wise. With the escalation of economic crises and mass migration, far-right parties in Europe and America have found an opportunity to exploit racism politically, by adopting extreme nationalist discourses that claim to defend "national identity" against the "cultural invasion" represented by minorities and immigrants.
Donald Trump's reaching to the U.S. presidency in 2016, followed by his return in 2024, represented a significant shift in the discourse around racism. His campaigns were heavily focused on openly targeting immigrants, Muslims, and the black people, using slogans like "America First" to promote the notion that "white Americans" are the real citizens, while everyone else is seen as unwanted outsiders."

Europe, Far Right: When Racist Rhetoric Become Government Policy

Trump wasn't the only one reviving racist discourse. Europe has also witnessed an unprecedented rise of the far right, with the entry of parties such as:

- The National Rally in France (Marine Le Pen).
- The Alternative for Germany (AfD) party.
- The Freedom Party in Austria.

All of these parties used rhetoric of fear of immigrants and Muslims to mobilize votes, and presented themselves as defending "European values in the face of Islamic invasion."

Are We Facing "Soft Racial Segregation"?

While racial segregation in the past relied on explicit laws of discrimination, the

that permanently cast Muslims as "suspects." Prominent among these policies are:

- Laws banning the hijab and niqab in France, Belgium, and Germany, which impose restrictions on the freedom of Islamic dress under the pretext of "protecting secularism."
- Tough immigration measures targeting Muslims, like those introduced during Donald Trump's presidency in the U.S., which clearly singled out Muslim-majority countries.
- Widespread surveillance of Muslim communities, where Western governments monitor mosques and Islamic organizations, under the guise of fighting terrorism, fostering a climate where Muslims are presumed guilty until proven otherwise.[1]

Western media plays a pivotal role in promoting Islamophobia by portraying Muslims as potential terrorists, backward, or unable to integrate into modern societies. This stereotype includes the following:

1. Associating Islam with terrorism: Media highlights crimes by Muslims, while downplaying or ignoring similar acts committed by white extremists.
2. Framing the hijab as a sign of oppression: Muslim women are frequently portrayed as victims in need of saving from their so-called "oppressive and backward" cultures.
3. Spreading the "Islamization of Europe" issue: This idea uses skewed statistics to fuel fear that Muslims pose a demographic threat to Western values and identity.

Islamophobia has become a political tool in the hands of far-right parties in Europe and America, which exploit fear of Islam to mobilize popular support. They present Muslims as a threat to national identity, which justifies strict immigration policies and the use of Christian religious discourse against Islam, such as in the "War on Terror" discourse. In addition to that, they fund anti-Islam campaigns by Zionist pressure groups, which view spreading hostility toward Islam as a means of supporting Israeli policies against the Palestinians.

Islamophobia, then, is a political and economic project that serves specific goals, including justifying Western military interventions in Islamic countries, by portraying Muslims as a "global threat" requiring military confrontation, and using it as a scapegoat for the frustration of the lower classes, instead of focusing on unjust economic policies, in addition to supporting the military economy. The "Islamic threat" is used as a justification for increasing defense and intelligence budgets, as we must not forget to strengthen political alliances with dictatorial regimes in

1 Kundnani, Arun. The Muslims Are Coming! Islamophobia, Extremism, and the Domestic War on Terror. Verso Books, 2014, p.47.

- Mass Imprisonment of Minorities: The black individuals in the United States face incarceration rates that are five times higher than those of white individuals, leading some thinkers to describe the U.S. judicial system as "a continuation of segregation laws through modern means."[1]

Media, Stereotype Making How Racism Enshrined in Western Culture?

The media plays a major role in reproducing stereotypical images of ethnic minorities, which reinforce institutionalized racist practices. Immigrants, the black people, and Muslims are portrayed in films, television programs, and news coverage as a constant threat to Western societies. This behavior creates an environment that facilitates the continuation of discrimination. "Western media does not convey reality as it is, but rather reproduces a perspective that serves the ruling classes, portraying minorities as a burden on society, or as a danger that must be combated."[2]

Islamophobia: Modern Form of Racism in the West

As immigration from Muslim majority countries to Europe and America has increased, Islam and Muslims have increasingly become a new focus of both institutional and popular racism in the West. Discrimination in the West is no longer limited to the black people or Latino communities, rather, Islamophobia, the irrational fear and hostility toward Islam, has become a major form of racial and cultural bias. This trend intensified after the 9/11 attacks, when Western political and media discourses began portraying Islam as an internal threat to democratic values and modern Western ideals. However, the question is "Is Islamophobia merely a spontaneous hatred of Muslims, or is it part of a broader political and economic project? How is it exploited to serve specific agendas in the West?"

"The West's negative view of Islam isn't something new, it's rooted in centuries of colonial-era Orientalism that aimed at portray Islam as backward and incompatible with so-called modern Western civilization. From the time of the Crusades to the colonial domination of Muslim lands, Islam was often framed as a religion of violence, extremism, and isolation.

Even today, these outdated stereotypes still shape Western policies toward Muslims, whether through domestic discrimination against Muslim immigrants or through foreign interventions and wars in Muslim-majority countries.

Islamophobia in the West manifests itself through government laws and policies

1 - Alexander, The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colour-blindness, p. 123.

2 - Chomsky, Noam. Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media. Pantheon Books, 1988, p. 89.

Institutional Racism as Part of System

The West apparently promotes the idea that racism is outdated. However, in reality, racial discrimination remains deeply rooted in state institutions, as well as in economic and social policies. While racism has become less visible, it still has a profound impact on the lives of minorities. This is what is now referred to as "Institutional Racism", which operates indirectly to maintain the historical privileges of one group at the expense of another. Government laws and policies in the West contribute to the perpetuation of racial discrimination through measures that appear neutral, but in essence, deepen the racial gap.

Prominent among these policies are:

1. Housing Discrimination: Many Western cities employ an unspoken system of racial segregation, which confines Black and immigrant communities to poor neighborhoods with poor services. This reinforces social and economic isolation.
2. The Education Gap: Studies indicate that schools in poor neighborhoods, often inhabited by the black people and immigrants, receive less funding and poorer educational opportunities than schools in predominantly white areas.(1)
3. Disparities in employment opportunities: Statistics show that minorities face higher unemployment rates, receive lower wages, and have poorer opportunities for advancement compared to the white people, even when qualifications and experience are equal.(2)

Judicial systems play an important role in enshrining institutional racism, as laws are applied unequally based on race. Prominent examples include:

- Discrimination in Judicial Sentences: Studies show that the black people and Latino individuals in the United States are often sentenced more harshly than their white counterparts, when committing the same crimes.(3)
- Security Targeting of Minorities: The black, Muslim, and immigrant communities face higher rates of random judicial detention and searches compared to white citizens, even in European countries that claim to fight racial discrimination.(4)

---

1 - Alexander, Michelle. The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colorblindness. The New Press, 2010, p.78.

2 - U.S. Equal Employment Opportunity Commission, 2021.

3 - Tonry, Michael. Malign Neglect: Race, Crime, and Punishment in America. Oxford University Press, 1995, p.113.

4 - European Network Against Racism, 2020.

Then, in 1871, Charles Darwin published "The Descent of Man and Selection in Relation to Sex," and some biologists used his ideas to justify the concept of "survival of the fittest" as a rationale for colonization. This led to the rise of the eugenics movement, which aimed at reduce the reproduction of non-white races, considering them "unfit." These are ideas that were later adopted by the Nazis.

"Science became a tool to legitimize European racial superiority, helping to reinforce policies of exclusion and enslavement."[1]

With the end of direct colonialism, racism did not cease; rather, it was reproduced in the form of laws that enshrine racial discrimination, the most prominent of which are:

1. The apartheid system in South Africa (1948-1994), which denied Black people their basic rights and imposed restrictions on their movement and employment.
2. Jim Crow laws in the United States (1877-1965), which imposed racial segregation in schools, transportation, and public facilities, and confined Black people to low-wage jobs.
3. Discriminatory policies in Europe toward immigrants, such as immigration laws in France and Britain, which have limited the opportunities for refugees and minorities to obtain equal rights.
4. Racism in the Zionist entity, attempts to displace Palestinians from their land, and the wars of extermination waged against them.

In the 1960s, the world witnessed the rise of civil rights movements, led by figures such as Martin Luther King, Malcolm X, and Nelson Mandela. These movements demanded an end to racial discrimination and the granting of political and social rights to minorities. Indeed, many racist laws have been repealed, but this does not mean the end of racism. Rather, it has transformed from a legal phenomenon into a hidden cultural and economic structure. Ethnic minorities in the West continue to suffer from a significant economic gap compared to whites. Statistics indicate that the black and Latino people receive wages 20-30% lower than their white counterparts in the same jobs.[2]

Western police continue to commit excessive violence against the black people and immigrants, as clearly demonstrated in the George Floyd case (2020), which sparked global protests against police brutality. Western media is still reinforce stereotypes about Muslims, Africans, and immigrants, which perpetuate negative perceptions of these groups.

1 - Gould, Stephen Jay. The Mismeasure of Man. W. W. Norton & Company, 1981, p. 54.

2 - U.S. Bureau of Labor Statistics, 2021.

Deeper Perspective of Western Racism

Racism in the West is not a new issue; it is a deeply rooted legacy of a colonial system fundamentally built on the exploitation of racialized others. The Western world, whose wealth was amassed through slavery, imperial conquest, resource extraction, and the ideology of white supremacy, has not discarded its racist foundations. Instead, it has reconfigured them into more refined, institutionalized, and modern forms.

"Colonialism was a systematic reproduction of racism as a mechanism of control. Even after the end of direct colonialism, the racist structure persisted in Western societies in new ways."[1]

To understand racism in the contemporary West, one must trace it back to its historical roots. It is a continuation of centuries marked by imperial conquest, slavery, and racial hierarchies that have shaped the cultural, economic, and political foundations of Western societies.

From the onset of European expansion in the 15th century through the 20th century, Western powers systematically excluded and exploited the other, by describing him as inferior (lower status) as part of its imperialist project.

The transatlantic slave trade became a cornerstone of Western economic development. Starting in the 16th century, millions of Africans were forcibly taken from their homelands. They were sold into slavery across Europe and the Americas, treated as mere instruments of production. This system was underpinned by an ideology that legitimized the enslavement of non-European peoples, under the guise of "white racial superiority. This discrimination was not limited to slavery, but extended to European colonialism, which occupied most of the countries of Africa, Asia, and Latin America, exploiting their peoples as sources of raw materials and labor. Colonialism relied on racist justifications that non-European peoples were "backward" and in need of "civilization." This is what was called the "white man's burden," which European empires used to justify their plunder of wealth and subjugation of peoples.

Racial discrimination in the West was not merely a political and economic practice; it was also legitimized through science and philosophy. In 19th century, scientific racist theories emerged claiming that some races were inherently superior, while others were biologically "inferior."

In 1853, Joseph Gobineau published his book: "An Essay on the Inequality of Human Races," in which he argued that the white race was the most intelligent and best suited for leadership, while describing other races as less developed.

1 - Fanon, Frantz. Black Skin, White Masks. Grove Press, 2008, p.69.

This is what American thinker Cornel West emphasizes by saying: «Racism is an economic and political structure, which was used to maintain the privileges of one group at the expense of another.»[1] Indeed, when we look at indicators of poverty, education, the labor market, the judicial system, police violence, and political representation, we find that ethnic minorities–especially the black, Muslims, and immigrants of non-European origins–still suffer from systematic discrimination that places them at the bottom of the social pyramid, despite claims of legal equality.

From Human Rights Slogans to Reality of Discrimination

The West, which criticizes racism in the developing world and interferes in the policies of other countries under the pretext of defending freedoms, still suffer internally from various forms of racial discrimination. This is a glaring paradox.

The United States, which presents itself as a "global model for human rights," still experiences high rates of police violence against the black, inequality in criminal justice, and economic inequality between races. Meanwhile, In Europe, anti-immigrant policies, growing Islamophobia, discrimination in the labor and housing markets and the growth of far-right parties reflect a clear political hypocrisy between discourse and practice. "While the West continues to portray itself as a symbol of modernity and progress, it simultaneously reinforces its racial biases in increasingly complex ways, whether through state policies or cultural and media discourses."[2]

Some Western intellectuals attempt to frame racism as merely an individual issue, disconnected from broader political and economic systems. Yet, reality shows that racism in the West functions as a systemic structure, one that sustains white privilege and continues to marginalize ethnic minorities.

Why is it that predominantly Black and Latino communities in the U.S. continue to face poverty, limited access to quality education, and high unemployment? Why are the black and immigrants disproportionately stopped by the police? Why do ethnic minorities remain so underrepresented in politics and major corporations?" Historian Eduardo Bonilla-Silva said: "Contemporary racism now operates through hidden mechanisms that make discrimination appear as a natural consequence of differences in individual abilities, when in fact it is the result of a systematic structure."[3]

---

1 - West, Cornel. Race Matters. Vintage Books, 1994, p. 3.

2 - Goldberg, David Theo. The Racial State. Blackwell Publishers, 2002, p. 6.

3 - Bonilla-Silva, Eduardo. Racism Without Racists: Color-Blind Racism and the Persistence of Racial Inequality in America. Rowman & Littlefield, 2017, p. 27.

First talk
Racism, "Civilizational" Legacy of the West

Editor in chief:
Dr. Mohammad Mahmoud Mortada

Since the humanity exists, humankind has faced oppression in all corners of the earth. The most difficult form of oppression, when a humankind finds his fellow human beings striving to humiliate, enslave him, unaware that he - like them - has a soul yearning for justice, a heart beating with emotions, and a longing for the beauty hidden within existence and the light emanating from behind veils, telling him that Allah, Almighty, hears and sees everything.

Throughout history, humanity has suffered from the issue of racism, which emperors, kings, and nations propagated it. In the present day, the West has become its leader, hiding behind it its own contradictions and moral failings, using it as a tool to oppress the weak, both among nations and individuals. Although the West seeks to present itself as the birthplace of democracy and the leading defender of freedoms and human rights, racism remains a daily reality for millions of ethnic minorities and migrants within Western societies. Since the official abolition of slavery, through the civil rights movements, and into the postmodern era, Western societies have struggled to rid themselves of their racist legacy. Instead, they have recreated it in more complex and less obvious ways. This raises the pressing question: why is racism still deeply entrenched in Western societies despite all the slogans about equality and pluralism?

The Western discourse claims that racism is merely individual behavior, stemming from personal prejudice, and that it can be eradicated through ‹tolerance,› ‹education,› and ‹anti-discrimination laws.› However, reality reveals that racism is part of a broader social, economic, and political system that perpetuates racial disparities through indirect laws, discriminatory institutions, and media that continue to reproduces stereotypes.

Studies and Research

23 **Death of Man, Fate of Structuralism from Roger Garaudy's Perspective** — Dr. Amar Trabelsi

Reading in a book

24 **Racism** — Reviewed by: Mervat Ibrahim

index

7 **Racism, "Civilizational" Legacy of the West** — Dr. Mohammad Mahmoud Mortada

Focus

17 **"Racism" in Jewish, Zionist Thought Analytical Study** — Dr. Ahmad Al-Bahnassi

18 **Roots of Racism in Western Culture** — Nahza Bouazza

19 **Western Racism, its Uses in Literature, Art, Media** — Prof. Ghaidan Al-Sayed Ali

20 **Impact of Artificial Intelligence on Entrenching Western Racism** — Dr. Qassim Mohammad Danesh

21 **Effects of Racism in the West** — Zeinab Farhat

Rooting

22 **Criticizing Foundations of Racial Discrimination from a Qur'an Perspective** — Akram Heydari Tahera Jokar

At Upcoming issue

White Faces, Black Hearts

Some non-Governmental Organizations (NGOs)

Magazine Message:

Confronting the intellectual challenges imposed by the West and others on our Arab and Islamic societies, through:

- Refuting these issues in a scientific and systematic academic manner, highlighting their consequences and shortcomings, and criticizing their origins and contexts.
- Revealing the political, economic and colonial backgrounds behind the attempt to dominate culturally on our societies.
- Providing scientific statistics from the inside of Western societies, which monitor the destructive consequences of these cultures on societies.
- Providing authentic and alternative visions on these issues from a universal humanitarian perspective, that is consistent with the requirements of human nature and the universal, metaphysical vision of humanity.

Scientific Board:

- Prof. Hafez Abdel Rahim: (Political and Economic Sociology – University of Gabes - Tunisia).
- Prof. Hasan Bashir: (Sociology of International and Cultural Communication – Imam Al-Sadiq University – Iran).
- Prof. Ben Sharqi Ben Meziane: (Philosophy – University of Oran (2) – Algeria).
- Prof. Haider Hassan Al-Yaqoubi: (Educational Psychology – University of Kufa – Iraq).
- Prof. Khanjar Hamieh. (Contemporary Western Philosophy - Lebanese University - Lebanon).
- Prof. Talib Imran: (Differential implications and astronomy – Damascus University – Syria).
- Prof. Aqeel Sadiq: (Philosophy – University of Basra – Iraq).
- Prof. Mohsen Saleh. (Philosophy – Lebanese University – Lebanon).
- Prof. Mohammad Shaalan Al-Tayyar: (Archeology – Damascus University – Syria).
- Prof. Muammar Al-Hawarneh. (Psychology – Damascus University – Faculty of Education – Syria).
- Prof. Yasser Mustafa Abdel Wahab: (Medieval History – Kafr El Sheikh University – Egypt).
- Prof. Youssef Tabaja: (Sociology – Lebanese University – Lebanon).

Editorial Board:

- Prof. Hana Al-Jazar: (Philosophy – Damascus University – Syria).
- Prof. Saad Ali Zayer: (Philosophy of Education and Curricula of Arabic language – Iraq).
- Prof. Adel Al-Wachani: (Sociology of Culture and Communication – University of Gabes – Tunisia).
- Assoc. Prof. Neama Hasan Bakr: (Modern and Contemporary History – Ain Shams University – Egypt).
- Dr. Ali Haj Hasan: (Islamic Philosophy – Lebanon).
- Sheikh Dr. Mohammad Nimr: (Educational Curricula – Lebanon).

General Supervisor:
Al-sheikh Jalal al-Din Ali Al-Sagheer

Editor in chief:
Dr. Mohammad Mortada

Managing Editor:
Al-sheikh Dr. Mohammad BG Kojok

Managing Director:
Ms. Aya Baydoun

Technical Director:
Mr. Khaled Mimari

Proofreading:
Dr. Mahmoud Al-Hasan

Translator:
Mrs. Lina al-Saqer
Mohammad Firas al-Halbawi

Oumam magazine, for Human and Social studies, is a quarterly scientific periodical, issued every three months by «Baratha Center for Studies and Research» in Beirut, Lebanon. It is concerned with criticizing Western visions of humanity and society in various fields and contemporary challenges in philosophy, history, sociology, anthropology, and other fields. This is on one hand, and on the other hand , rooting them from a rational standpoint, that is consistent with the requirements of human nature, and with the genuine metaphysical cosmic vision of humanity.

Racism

Prominent Legacy in Western Identity

2nd year - Issue (6): Winter 2025 AD - 1446 AH

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

Oumam
For human and social studies

issued by:

A quarterly journal concerned with criticizing Western visions of humanity and society

www.barathacenter.com
www.oumam.barathacenter.com
Oumam.magazine@gmail.com

Baratha Center for Studies and Research
Beirut- Baghdad

المشاركون الكتّاب

د. محمّد مرتضى
لبنان

د. أحمد البهنسي
مصر

نزهة بوعزة
المغرب

أ.د غيضان السيد علي
مصر

د. قاسم محمد دنش
لبنان

زينب فرحات
لبنان

د.عمار طرابلسي
الجزائر

أكرم حيدري
إيران

طاهره جوكار
إيران

ميرفت إبراهيم
إيران

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

umam
For human and social studies

أُمم

issued by Baratha Center for Studies and Research